التصور والتصديق

بأخبار الشيخ سيدي محمد بن الصديق

تاليف

الإمام الحافظ المجتهد ناصر السنة

شهاب الدين

أبي الفيض أحمد بن محمد بن الصديق

أدام الله به النفع امين

طبع على نفقة

مكتبة الخانجي ومطبعتها

سنة ١٣٦٦ هـ

مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى .

أما بعد : فانى كنت جمعت كتاباً فى ترجمة والدى . قلت فى أوله :

الحمد لله الذى أنار القلوب بأنوار معارف أوليائه ، وأشرق فيها شموس الهداية بأسرار علوم أصفيائه ، وجعلهم نجوماً يهتدى بهم فى ظلمات الجهل من أسعده الله بحبائه ، ورفع عنه حجاب المعاصرة فأشهده خصوصية خاصة أحبائه .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة نستوجب بها نيل رضائه ، ونستجلب بها كمال السرور عند لقائه .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، وخيرته من خلقه وخليله ، أعلم العلماء بصفات الله وأسمائه ، وأعرف العرفاء بجلال عظمة الله وكبريائه ، وأشرف مخلوقات الله فى أرضه وسمائه ، صلى الله عليه وعلى آله الفائزين برضى الله ، والقائمين بشكر نعمائه ، وصحابته السابقين إلى إجابة دعوته وتلبية ندائه .

أما بعد : فلما كان شكر المنعم من أوجب الواجبات وأشرف الخصال ، وبر الوالدين من أعظم القربات وأفضل الأعمال ، وكان تدوين مناقب الشخص وفضائله ، ونشر محاسن أخلاقه وشمائله من تمام البر به وشكر نعمته ، والقيام بخدمته ورعى حقوقه وحرمته .

جمعت كتابى هذا فى مناقب سيدى وأستاذى ووالدى الشيخ الامام العلامة

البحر الهمام ، غوث الأنام ، ومصباح الظلام ، مفيد الخاص والعام ، ومقتدى الأولياء العظام ، بحر العلوم والمعارف ، ومعدن الأسرار واللطائف ، مربى المريدين ، ومرشد السالكين ، خاتمة العلماء العاملين ، وغرة جبين الأولياء الكاملين ، صاحب الكرامات الظاهرة ، والخوارق المعجزات الباهرة ، والأخلاق الزكية الزاهرة ، والشيم المرضية الطاهرة . الغوث الصمدى والفرد المحمدى . الختم الجامع ، والضياء اللامع ، برزخ الحقائق والشرائع ، المجتهد المطلق المخصوص بعناية الله على التحقيق . والمنعم عليه بكمال الهداية والتوفيق ، مولانا « محمد بن الصديق » رضى الله عنه وعنا به ، ونفعنا ببركاته قياماً ببعض ماله على من الحقوق العظيمة وأداء لبعض ماوجب من شكر نعمه الجسيمة ، فانه أنعم على دينا ودنيا ، وأحسن إلى روحاً وجسما ، جزاه الله عنى أحسن الجزاء ، وجمع بينى وبينه فى دار الكرامة والبقاء آمين .

وقصدت مع ذلك نفع الراغبين فى العمل الصالح ، والاهتداء بهدى حزب الله الفالح ، وانتهاج مناهج أهل الله ذوى المتجر الرابح .

وسميته « سبحة العقيق ، بذكر مناقب الشيخ سيدى محمد بن الصديق » ورتبته على ثلاثة عشر باباً :

الباب الأول : فى نسبه ومقر أسلافه ، وسبب انتقالهم من أحواز تلمسان إلى غمارة .

الباب الثانى : فى ترجمة أجداده من قبل الأب والأم ، وذكر مالهم من المناقب والكرامات .

الباب الثالث : فى ولادته ونشأته وطلبه للعلم ، وسلوكه طريق القوم ، ومجمل تاريخ حياته .

الباب الرابع : فى وصف حالته العلمية ومواهبه الفتحية .

الباب الخامس : فى سرد جملة من أخلاقه السنية وأحواله الزكية المرضية .

الباب السادس . فيما أكرمه الله به من الفضائل والمزايا وما أجراه على لسان خواص عباده من مدحه والثناء عليه نثراً ونظماً .

الباب السابع : فى بعض ما جرى على يديه من الكرامات وأخبر به من الغيوب والمكاشفات .

الباب الثامن : فى الأوراد والأذكار التى كان يلقنها ويأمر بها أصحابه .

الباب التاسع : فى ترجمة بعض أولاده ، وزوجته الأولى التى توفيت فى حياته .

الباب العاشر : فى ترجمة من عرف من مشايخه ومجيزيه فى العلم الظاهر .

الباب الحادى عشر : فى ترجمة شيخه فى التصوف وسلوك طريق القوم .

الباب الثانى عشر : فى سلسلة طريقه وتحقيق اتصالها بأبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه .

الباب الثالث عشر : فى ذكر مرضه وانتقاله وما قيل فى رثائه .

واعلم أنه قد سبقنى إلى تدوين مناقب الشيخ جماعة من الفضلاء . منهم الفقيه المفتى المؤرخ أبو عبد الله محمد بن العياشى سكيرج الفامى ، وسمى كتابه نبذة التحقيق ، والعالم العامل الصوفى الخطيب أبو حامد العربى بن العربى بو عياد الطنجى ، وسمى كتابه « نسمات وادى العقيق » ، والأديب الصوفى أبو عبد الله محمد بن الأزرق الفاسى ثم الزياتى ، واسم كتابه حادى الرفيق والفقيه المدرس أبو حامد العربى بن المبارك العبادى السلاوى ، وكان شرع فى كتابته أيام حياة الشيخ رضى الله عنه ، لكن صوارف الزمان صرفته عن إكماله ، وشواغل الدنيا شغلته عن الفوز بسعادة إتمامه ، وكل هذه المؤلفات حاضرة لدى ، وشاهدة بأنى حمت حول القيام بما وجب على فانها بالنسبة لكتابى كقطرة من نهر أو غرفة من بحر ، إذ رب البيت أدرى بما فيه ، وصاحب القصيد أعلم بقوافيه اهـ .

إلا أنه لما كان واسع القول، كبير الحجم، تقصر الأيدى غالبا عن استنساخه وكتابته، وتكل الهمم دون استيعابه وقراءته اختصرته بحذف ثلاثة أبواب بكاملها، وهى الباب الثامن والتاسع والعاشر، ولخصت مقاصد الأبواب العشرة الباقية فى هذا المختصر .

وسميته : التصور والتصديق بمناقب الشيخ سيدى «محمد بن الصديق» فقلت وبالله التوفيق .

الباب الاول

فى نسبه ومقر أسلافه وسبب انتقالهم من أحواز تلمسان إلى غمارة

أما نسبه : فهو أبو عبد الله سيدى محمد بن الصديق بن أحمد بن محمد ابن قاسم بن محمد بن محمد مرتين بن عبد المؤمن بن محمد بن عبد المؤمن بن على ابن الحسن بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن عيسى بن سعيد بن مسعود بن الفضيل بن على بن عمر بن العربى بن علال بن موسى بن أحمد ابن داود بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على وفاطمة الزهراء بنت مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذا هو النسب المعروف الشائع بين عائلتنا والموجود بأيديهم فى بعض التقاييد القديمة .

وذكر العلامة أبو العلاء إدريس بن محمد الفضيلى الشريف العلوى فى الدرر البهية والجواهر النبوية فى الفروع الحسنية والحسينية فى الفصل الثالث فى ذكر أبناء الفرع الثالث من فروع مولانا عبدالله الكامل، وهو السيد سليمان مانصه وفرقة بغماره، وهم أولاد عبدالمؤمن، ورجع بعضهم لتلمسان وجميعهم أولاد السيد عمر الشريف بن محمد العابد بن إدريس بن محمد بن سليمان ابن عبد الله الكامل اه، فالله أعلم من أين دخل الوهم .

أما النسب : فهو ثابت محقق بطريق الشهادة والاستفاضة والتواتر بين

الناس في الشهائد ورسوم الأنكحة والبيوعات والهبات على ضرائح الأسلاف وغير ذلك من التقاييد والتعاريف من أواخر القرن العاشر إلى هذا العصر ، وكذلك في ظهائر الملوك الآمرة بتعظيم الأسلاف واحترامهم ، ورفع التكاليف اللازمة لغيرهم عنهم من دولة الشرفاء السعديين ، ودولة الشرفاء العلويين الحاضرين ، إلى دولة السلطان عبد العزيز المؤرخ ظهيره بذلك سنة اثنتى عشرة وثلاثمائة وألف ، ومن بينها ظهير السلطان مولاى اسماعيل الذى بحث فى دولته عن الاشراف وحقق أنسابهم بالطريق الشرعى ، فكان لا يصدر ظهيراً باقرار النسب إلا بعد ثبوت ذلك عنده ، كما هو معروف فى ترجمته ، ونص عليه حفيده السلطان سيدى محمد بن عبد الله فى ظهير له .

فقال : ويعلم ويتحقق أن العلماء العاملين أجمعوا على أن النسب المقطوع به فى غربنا من غير شك ولا ريب ، هو ما أدخل فى دفتر مولانا الجد رحمه الله بعد ما تحقق أمره ، لأن ملكه اتبع القرى والمداشر والحواضر ، وشهدت لهم الكافة والجمهور وحقق من دفتر أبى العباس المنصور ، وبحث فيه أولا وثانيا فاذا هو مشهور اه .

وأما نسبه من جهة الأم ، فان والدته هى السيدة الجليلة الشريفة الصالحة فاطمة بنت الشيخ العلامة الولى الصالح أبى العباس أحمد بن الشيخ الامام العلامة العارف أبى العباس أحمد بن عجيبة ، القائل فى فهرسته .

أنا عبدالله أحمد بن محمد بن المهدى بن الحسين بن محمد بن عجيبة الحجوجى ابن عبد الله بن عجيبة ، ثم إلى سيدى سحنون بن مولاى ابراهيم بن محمد ابن موسى بن عبد الله ، ثم إلى مولاى أحمد بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر رضى الله عنهم أجمعين .

ثم أطال فى تحقيق ذلك ، ونقل إثبات نسبه عن جماعة من العلماء والأولياء

اهل الـكشف ، كشيخه العارفه البوزيدى ، وشيخ شيخه مولاى العربى الدرقاوى مع الشهرة والاستفاضة التى يثبت بمثلها النسب .

فصـــل

كان قدوم أحـد أجداد سيدى عبـد المؤمن الـكبير من الأندلس فى أواخر القرن الخامس ، ونزل بأحواز تلمسان ونشأ بها عقبه إلى أن اشتهر منهم الولى الشهير سيدى عبد المؤمن المـذكور المعروف بأبى قبرين ، وذلك فى القرن التاسع أو آخره ثم انتقل حفيده سيدى عبد المؤمن الصغير الى غمارة أواسط القرن العاشر خرج لطلب شيخ التربية فاتصل بالشيخ العارف أبى الحسن على الشلى ، نزيل جبل سريف ، المتوفى به سنة إحدى وثمانين وتسعمائة ، وهو من تلامذة العارف سيدى يوسف التليدى ، أحد تلامذة القطب الغزوانى ، فأخذ عنه وتخرج على يديه ، ثم انتقل يطلب محـلا يختلى فيه للعبادة ، فنزل بالموضع المسمى تجكان ، من قبيلة بنى منصور الغمارية ، وأقبل على العبادة ، وظهرت على يديه كرامات كانت السبب فى اشتهاره بتلك البـلاد واستقراره بها إلى أن مات وترك عقبه بها إلى اليوم .

البـاب الثـانى

فى ترجمة أجداد الشيخ رضى الله عنه من قبل الأب والأم

أما جده الأعلى سيدى عبد المؤمن بن على ، الذى تنسب اليه عائلة الشيخ رضى الله عنه ، فـكان من كبار الأولياء ، ذا مناقب عديدة وكرامات كثيرة شهيرة ، وكان له أتباع يحبونه ويعظمونه غاية التعظيم ، كسائر أهل القبيلة الزناسية . وكان مقصودا بينهم للتبرك والانتفاع به فى الدين لمـا رأوا من فضله ، وشاهدوا من كراماته ، وكان يقيم بموضعين من القبيلة المذكورة وله فى كل منهما تلامذة وأصحاب أحـدهما يسمى بيدر ، والآخر ورطاس ، وبهذا الأخير كانت وفاته ، وبه دفن أولا . ثم جاء أهل بيدر ونقلوه اليها .

فلما علم أهل ورطاس بذلك قصدوهم لرده إلى مدفنه الأول ، فامتنع من ذلك أهل بيدر ووقع بينهم نزاع كاد يفضى إلى المحاربة والقتال ، فبينما هم كذلك إذ وقف الشيخ على واحد منهم فى رؤيا منامية ، فقال له : لم هذا النزاع وأنا موجود بالقبرين معاً ، فرهم يحفرون على القبرين فانهم يجدونى فى كل منهما ، فلما أخبرهم بما رأى فعلوا ذلك ، فوجدوا الشيخ فى كل من القبرين ، فرضى الفريقان . وبنى كل واحد على القبر الذى عنده قبة ، هما موجودتان إلى الآن ، وكلتاهما مزارة مقصودة .

وبسبب هذه الكرامة اشتهر فى قبيلة بنى يزناسن بسيدى عبدالمؤمن ، أبو قبرين . ولا يزال أهل تلك النواحى يشاهدون له كرامات ويؤثرون عنه مناقب وحكايات ، إلا أنه لقلة اعتنائهم بالتاريخ لم يدون أحد منهم للشيخ ترجمة ولا كتب تاريخ وفاته على التعيين .

فصل

وأما حفيده سيدى عبد المؤمن دفين تجكان فانه لما قدم اليها بعد أخذه عن العارف أبى الحسن الشلى نزل على أحد سكان القرية فأكرمه باعتباره ضيفا غريبا ، ثم كلفه برعى غنمه ، فكان يخرج بها صباحاً ثم يذهب إلى محل بعيد فيه حفرة واسعة فيجمعها هناك ثم يقبل على العبادة إلى آخر النهار ثم يعود بها ، وأحيانا يذهب لناحية أخرى فيتركها وحدها وينصرف . فمر ذات يوم بعض الناس على تلك الغنم ، ورأى ذئبا يحوم حولها ، فذهب إلى ربها وأخبره ، فذهب للتحقق مما قال فوجد الغنم ترعى والذئب يحرسها ، فتعجب مما رأى ورجع إلى موضعه ، فلما جاء المترجم آخر النهار سأله عن الحقيقة وألح عليه فى ذلك ، فأخبره أنه يذهب إلى مكة المكرمة للصلاة بها ، ويترك الذئب حارساً للغنم ، فترك الرجل بعد ذلك تكليفه برعى الغنم ، وقال له : اشتغل بعلمك وعبادتك ، ولا تفكر فى القوت والمؤنة ، وبالغ فى تعظيمه

واحترامه ، واستمر على خدمته إلى أن مات . ودعا له الشيخ بدعوات لا يزال أثرها سارياً فى عقبه إلى اليوم . ثم اشتهر أمره بتلك النواحى ، وكثر ظهور الكرامات وخوارق العادات على يديه كما هو مشهور بين أهل تلك النواحى إلى اليوم ، وذكرنا منها جملة فى المؤذن وفى الأصل .

توفى بتجكان ، وقبره مزارة بها ، وعليه قبة عظيمة ، إلا أننا لم نعثر على تعيين سنة وفاته .

فصـــــل

وأما جد الشيخ الأدنى والد والده العارف الكبير . القطب الشهير سيدى أحمد بن عبد المؤمن ، فكان أعجوبة عصره ، ونادرة زمانه ومفرد وقته فى العلم والمعرفة وهداية الخلق مع كثرة الاتباع وبعد الصيت وانتشار الذكر .

وقد أفردت ترجمته بتأليف ، سميته : المؤذن لمناقب سيدى أحمد بن عبد المؤمن .

ولد رضى الله عنه على رأس المائتين بعد الألف ، وحفظ القرآن بالسبع وأتقن علم القراءآت وتضلع منه غاية ، ثم طلب العلم ببلده على رجل غريب من الأولياء وبسبب غريب ، وهو أنه قصد ضريح ولى الله سيدى احمد الفلالى ، فكان يختم فيه كل ليلة ختمة كاملة من القرآن العظيم فى الصلاة ، ويسأل الله تعالى أن ييسر له من يأخذ عنه العلم ، لأنه تحير فى ذلك ، ولم ينشرح صدره لطلبه بفاس ، فاستمر على ذلك أربعين ليلة ختم فيها أربعين ختمة ، وصبيحة اليوم الحادى والأربعين نزل من ضريح الشيخ المذكور ، فوجد بالطريق رجلا منكمشاً فى مرقعته من شدة البرد ، وعن يمينه وشماله أكوام من الثلج وحال الغربة بادية عليه فسلم ، وسأله عن حاله ، فأجابه بأنه غريب مسكين ، فطلب منه الشيخ أن ينزل معه ، فامتنع واعتذر بأن رجليه

حافيتان ولايقدر على المشى فى الثلج بدون حذاء فخلع الشيخ حذاءه وأعطاه إياه ، فلبسه ونزل معه فأطعمه وأكرمه ، وبقى معه ثلاثة أيام . وفى اليوم الرابع قال له : أتعرف من أنا . قال لا · قال أنا من بلاد بعيدة جئت مخصوصاً من اجلك أرسلنى سيدى على بن أحمد من جبل صرصر لأعلمك العلم ، ففرح غاية بهذه الكرامة التى أجاب الله بها دعوته على يد الولى الشهير سيدى على ابن أحمد ، وذلك من طريق الغيب والتصرف بعد الموت لأن سيدى على بن أحمد المذكور مات سنة سبع وعشرين وألف ، فلازمه ستة أشهر ظهرت عليه فيها بركته مع ما كان عليه الشيخ من التقوى والصلاح والاجتهاد فى العبادة ، ولاحت عليه لوائح الفتح فى سائر العلوم المعقول منها والمنقول ، بحيث صار إمام وقته فى تلك البلاد وماوالاها فى علوم الظاهر ، ولم يجلس بين يدى عالم سوى ذلك الشيخ . إلا فى علم المنطق فانه أخذه بعد ذلك عن تلميذه فى الطريق العلامة سيدى أحمد بن عجيبة الصغير . وإلا علم الفلك فانه أخذه عن تلميذه فى الطريق أيضا الفقيه مفرج . ثم بعد هذا تعلقت همته بسلوك الطريق ، فأخذ أولا الطريقة الناصرية على الشيخ محمد خمريش ، وأسس زاوية ببلده لذكر وظائفها ، ثم لما تحقق أنها طريق ذكر وتبرك ، لا طريق فتح وسلوك جرد سيف العزم لطاب الشيخ المربى فقصد الحجاز لأداء فريضة الحج والبحث عن القطب ، ومر فى طريقه على القاهرة ، فاجتمع بالعارف الصاوى ، وأخذ عنه الطريقة الخلوتية ، بقصد التبرك . ثم لما وصل إلى عرفة ، بينما هو واقف بها إذ حاذاه رجل ، وقال له . أتدرى من قبل الله حجته فى هذا الموقف . قال لا . ، قال قبل حجتى وحجتك وبسببنا قبل حجة الجميع . ثم قال له . والقطب الذى تطلبه تركته فى بلدك ، وهو العربى بن أحمد الدرقاوى ، قال فحصل لى من الفرح مالا يعلمه إلا الله ، ولولا خزى من قول الناس حج ما زار لرجعت من مكة .

ثم لما رجع إلى وطنه لم يمكث مع أهله إلا ثلاثة أيام ، ثم توجه لمقابلة الشيخ المذكور ، ولما كان بالطريق مر على عين ماء ، وكان برفقته أخوه ، ورجل آخر ، فتوضئوا وصلى بهم الظهر ، ثم قام إلى تلك العين وجعل يغتسل ؛ فقال ذلك الرفيق فى نفسه لعل الشيخ كان جنباً وتذكر ذلك بعد الصلاة فلما فرغ سأله عن سبب اغتساله . قال إنى اغتسلت من علمى ومن عملى . إلا ما يأتينى على يد هذا الرجل . ثم توجه إلى الشيخ مولاى العربى الدرقاوى رضى الله عنه ، ففرح به كثيرا ولقنه الاسم المفرد بالكيفية التى أخذها عن شيخه القطب الجمل رضى الله عنه ، وهى تشخيص حروفه مجردة فى غير لوح ولا جدار . ثم لم تمض عليه إلا أيام يسيرة حتى لاح له الفتح وطويت له الطريق فى العلم الباطن كما طويت له فى العلم الظاهر وصار يترقى فى المعارف إلى أن حل مقام القطبية ، وورث مقام شيخه كما أخبر شيخه بذلك قبل وفاته وبعد موته لبعض أصحابه ، وأذن له شيخه فى التربية والتسليك ، فتصدر لذلك فى حياة شيخه ، واشتهرو بعد صيته ، وأقبل الخلق عليه وقصدوه للانتفاع فى علم الظاهر والباطن فانه كان مفتياً فى النوازل موثقاً من الطبقة العليا ، كما وقفت على كثير من الوثائق من إملائه وبخطه المتقن الذى كتب به عدة من الكتب ، وكان فصيح اللسان ، طويل الباع فى العلوم والمعارف ، شديد الاستحضار ، آية من آيات الله . إذا تكلم بهر العقول حتى كان يعبر عنه بعض العارفين بأعجوبة الزمان .

وقال بعض بنى سودة لولده سيدى الصديق . لقد طفت بالمشرق والمغرب للبحث عن الشيخ ، ورأيت عدداً كبيراً من المشايخ ، فما رأيت أفضل من والدك ولا أعتقد أن يوجد من هو أكمل منه وأفضل إلا النبى صلى الله عليه وسلم .

وقال له العلامة الصالح سيدى الحسن كنبور . لما اجتمع به ان العادة جارية

بأن من صرف عنايته لعمارة الباطن لا يتهيأ له ضبط الظاهر ، وأنت جمعت بين الظاهر والباطن .

ولما اجتمع بشيخ القراء فى عصره العلامة سيدى إدريس البكراوى ، وبات يذاكره ليلة إلى الصباح فى علم القراءات . قال له . ماكنت أظن أنه بقى من يذاكرنى فى هذا الفن ، وإذا مت أنا وأنت انقطع من يتقنه فقال له الشيخ لا تقل هذا . فان فضل الله لا ينقطع .

ولما قصده الشريف العلامة السيد محمد التهامى العلوى لأخذ الطريق عنه باشارة من الشيخ مولاى العربى رضى الله عنه وجده فى بعض المداشر ببنى زروال يقرأ الحزب من القرآن مع الفقراء عقب صلاة الصبح ، فكان أول ما وقع سمعه عليه قول الله تعالى والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، قال فلما انتهى من قراءة الحزب شرع يتكلم على هذه الآية فأتى بما بهر العقول واستمر يتكلم عليها إلى وقت صلاة الضحى .

وكان ذا جد واجتهاد فى العبادة وعمارة الوقت حضراً وسفراً .

وكان ورده من القرآن ختمة كل ليلة وكان له ورد من صحيح البخارى يقرأه كل يوم بعد صلاة الصبح .

وله كتاب نفيس فى آداب المريد ورسائل عديدة مجموعة فى مجلدة لطيفة هى غاية فى الارشاد والدلالة على الله تعالى وله تقاييد كثيرة منها تقييد على الأبيات المنسوبة للجنيد التى أولها توضأ بماء الغيب إن كنت ذا سر وصدرت على يديه كرامات كثيرة جداً .

منها أنه أتى مرة إلى تطوان ، وكان قائدها أشعاش سجن رجلا فجاءت والدته إلى الشيخ وطلبت منه أن يستشفع لولدها عند القائد فأجاب طلبها وتوجه إليه ، فلما رآه القائد من بعيد عرف أنه يقصده فى أمر ، فقال لحاجبه اصرفه عنى بما تراه ، فخرج إلى الشيخ ولقيه من بعيد قبل أن يصل إلى

باب المحكمة سائلا إياه عن مراده ، فقال له جئت مستشفعاً فى ولد هذه المرأة ثم غرز عكازه بالأرض، وقال الله مادا بها صوته فصار القائد يشير إلى الحاجب نحو السجن أى اذهب وأخرجه فذهب وأخرجه وانصرف الشيخ فتكلم القائد، وقال لأصحابه لو لا أنكم بادرتم باخراج الرجل من السجن لخرجت روحى ، فانه لما غرز عكازه فى الأرض أحسست بها كأنها مغروزة فى صدرى حتى كدت أموت ولم يبق لى لسان أنطق به .

ومنها أن تلميذه سيدى على حلحول كان معه بتجكان مدة طويلة ، قال فبينما أنا ذات يوم جالس إذا بالشيخ أتانى بكتاب مختوم ، وقال : اذهب على بركة الله فأخذت الكتاب وانصرفت ، ولم أدر لمن الكتاب ، ولا إلى أين أذهب فقصدت دارى ، فلما كنت بنصف الطريق قابلتنى امرأة من مدشرنا فقالت عظم الله أجرك ، فقلت لها فيمن ، قالت قد وقعت دارك على المرأة والأولاد ومات الجميع وقد دفنوا ، قال فعند ذلك فكرت فى كتاب الشيخ وعلمت أنه لى ففتحته فاذا فيه ، وبعد فما دمت تركن إلى أهل وولد ووطن واخلاء ومسكن ، فلست بقائل لا إله إلا الله على الاطلاق والسلام ، قال فرجعت إليه ، فلما رآنى قال قبل أن أكلمه عظم الله أجرك وفى سبيل الله ما نزل .

ومنها أن جماعة من تلامذته بفاس دعوه فى بعض قدماته إليها لتناول طعام الغداء واتفقت دعوتهم فى يوم واحد ، فأجاب الكل وحضر عند الجميع فى وقت واحد .

ومنها أنه دخل يوماً إلى المسجد لصلاة الجمعة وقد بقى لخروج الخطيب نحو ربع ساعة ، فافتتح يصلى ركعتين فختم فيهما القرآن بتمامه ورجل إلى جنبه يستمع ، ثم خرج الخطيب .

وله كرامات غريبة ذكرتها فى الأصل وفى ترجمته المفردة مات ضحوة يوم

الأربعاء سابع عشر جمادى الأولى من سنة اثنتين وستين ومائتين وألف ودفن بتجكان ، وقبره مزارة عظيمة وعليه قبة حافلة ، ويقام له مولد كل سنة .

فصل

وأما والد الشيخ رضى الله عنه ، وهو ولد المترجم قبله فهو العارف بالله الهائم فى محبته العائم فى بحر مشاهدته صاحب الأذواق والأحوال والكرامات أحد الأبدال سيدى الصديق رضى الله عنه ولد سنة ست وأربعين ومائتين وألف ، وحفظ القرآن فى حياة والده ثم قبل التوجه لطلب العلم توفى والده ولم يترك ولداً غيره ، فعزم أصحاب أبيه على توجيهه إلى فاس لطلب العلم فامتنعت والدته إذ لم يكن لها ولد غيره ، وليس عندها من يقوم بالزاوية العامرة بالفقراء والمقصودة للزوار والضيوف فزوجته وبقى معها يعمر الزاوية ، ثم أخذ الطريق عن تلميذ والده العارف بالله سيدى الهاشمى بوزيد الذى كان يسمع ذكره للاسم المفرد من قبره بعد موته إلى أن أتى إليه بعض إخوانه من تلامذة الشيخ ، وقال له تأدب مع الحضرة فانك انتقلت إلى عالم البرزخ فسكت وسلك على يديه إلى أن فتح له فى أقرب وقت فساد واشتهر وأقبل عليه الخاص والعام ، وكان ذا جاه عظيم بين القبائل الجبلية الغمارية يدخل فى الشفاعات فى الأمور العظام ويتوسط فى الخصومات والجرائم الجسام لا ترد له كلمة ولا تسقط له شفاعة سواء بين العائلات والأفراد وبين عموم القبائل ، وكان مغرماً بشراء العبيد والإماء والبغال فاقتنى من ذلك الكثير ، وكان لا يبقى فى يديه من الدنيا شيئا ولو دخلت الآلاف المؤلفة وأضاع كل ما تركه والده من كتب وغيرها ولم يلتفت إلى شىء من ذلك .

وكان عظيم الشوكة فى الباطن لا يسوء أحد الأدب معه إلا عوقب فى

الحال وكان والده رضى الله عنه أخبر عنه بذلك فكان يقول لأصحابه إذا شاب رأسه وطار نعاسه فكونوا منه على بال فكان لاينـام الليل إلا قليلا وكانت عادته أن يقوم ويتوضأ ويؤذن ويصلى مدة ثم يرقد قليلا ثم يقوم ويتوضأ ويؤذن ويصلى ماشـاء الله ، ثم يرقد ، وهكذا مراراً إلى أن يطلع الفجر .

وكان رقيق القلب إذا سمع موعظة بكى ، كما أنه كان إذا سمع آلة الطرب يكثر من البكاء ويحصل له شوق عظيم إلى الحضرة العلية

وكان محبوباً للخاصة والعامة منور الشيبة بهى الطلعة متواضعاً فيه دعابة لايمله جليـه يمازح العامة ويباسطهم إذا جلسوا اليه ، ويكون واحداً منهم لايتميز عنهم وربما حادثهم فى أمور النكاح والنساء ، وكان يحب التزوج فتزوج كثيراً ولم يمت حتى رأى نحو مائة من الاولاد والأحفاد والأسباط وكان بين بكره أول أولاده وآخرهم مايزيد على ستين سنة .

ذكر مولانا الشيـخ الوالد قدس سره أن بعض أهل الله قال له : إن والدك تحت نظر سبعة من أكابر الأوليـاء فو الله لو توجه إلى جبل لخرقه بنظرته لسلامة صـدره وحسن نيته ، وكان هو يقول فى حقـه أنه من الأبدال وجرت على يديه كرامات عديدة منها أن صاحبه أحمد عريط وكان يمازحه كثيراً سأله يوماً فقال له متى أموت ياسيدى فقال له فى اليوم الذى تذهب إلى السوق وترجع بالـكيل على رأسك لاتكيل به لأحد وكانت حرفته كيل الحب بالسوق فبعد وفاة المترجم بمدة ذهب يوم الثـلاثاء إلى السوق واستمر طول اليوم فلم يدخل السوق حب فرجع ولم يكتل شيئاً فلما وصل إلى بيتـه . قال لأهله إنى غـداً أموت فلابد ان أعمـل الجنازة فى حياتى فصـار أهله يردونه عن ذلك وهو يقول لايمـكن أن يتخلف خبر سيدى الحاج الصديق فذبح جدياً وأولم للطلبة الذين يقرأون القرآن فى

الجنايزوقرأوا القرآن على العادة فلما نام بالليـل وأصبح تأخر فى النوم فحركه اهله فاذا هو ميت .

ومنها أنه كان جالساً مع أعيـان القبيلة المنصورية فقال لهم على سبيل المباسطة كما كانت عادته معهم ليس من المليح لفلان لواحـد منهم إلا أن يموت يوم الاثنين وهو حاضر صحيح ، فلما كان يوم الاثنين أصبح الرجل المذكور ميتاً ، فلما وصله الخبر قال نحن إنمـا كنا نمزح معه وهو ظن أن الأمر جد .

ومنها أن أولاد الصديق الطويل من بنى سلمان كانوا يخدمونه وكانوا هم أعيان قبيلتهم وسراتها فصـدر منهم ما أوجب عداوة أهل القبيلة بأسرها لهم وهم أزيد من ألفى نفس وعزموا على القـدوم إلى دارهم لحرقها وتخريبها عقوبة لهم على ما اقترفوه فجاءو إلى المترجم وأخبروه بعزم أهل القبيلة وقالوا لا طاقة لنا بأهل القبيلة فقال لهم لاتخافوا أنتم البارود ونحن الرصاص فلما رجعوا إلى بيتهم جاءت إليهم القبيلة فنشبوا معهم الحرب وصمدوا لهم نحو ساعة ثم شتتوا شملهم شذر مذر وهم سبعة والقبيلة نحو الفين ولم يمت من الأخوة أحد فـكانت وقعة عجيبة لم يسمع بمثلها إلى غير ذلك مما يطول مات يوم الجمعة ثالث وعشرى ذى القعدة سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة الف .

فصـــــل

وأما والدة الشيخ فهى الشريفـة الجليـلة الولية الصالحـة الذاكرة القانتة فاطمة بنت الشيخ العارف العلامة أبى العباس احمد ابن عجيبة الصغير كانت عديمة النظير فى الصلاح والتقوى والنسك والعبادة أخذت الطريق عن عمها العارف الشهير سيدى عبد القادر ابن عجيبة تلميذ الجد سيدى احمـد ابن عبد المؤمن السابق وصحبته وتأدبت بأدب أهل الطريق وتخلقت بأخلاق أهل الصـدق والتصديق لسانها لايفتر عن الاستغفار فان كلمها أحد أجابته

ثم رجعت إلى الاستغفار وكانت تهيء لزوجها أمر الزواج وتصلح من شأنة وتدخله على العرايس التي أتى بهن ضراتها ثم تقبل على العبادة ولا يأخذها مايأخذ النساء عند ذلك من الغيرة ، وكانت لشهرتها بالصلاح والتقوى عظيمة الجاه مقبولة الشفاعة يقصدها الناس لذلك وكانت عند كبرها تكثر السفر لزيارة شيخها وأحياناً تصحب معها نجلها مولانا الشيخ الوالد ليتبرك بالصالحين وأزارته ضريح القطب مولانا عبد السلام بن مشيش ، وكانت حريصة على تربيته على الاعتقاد والمحبة وتعظيم أهل الله والمحافظة على أداء الفرائض والتأدب بآداب الشريعة ، وكانت تقوم بالليل ، فاذا صلت الصبح جلست لذكر الهيللة جهراً مع جماعة النسوة الى أن تطلع الشمس وتصلى الضحى .

ماتت سنة اربع وعشرين وثلاثمائة وألف

فصـــــل

وأما والدها فهو الشيخ العلامة الفقيه الصوفي العارف أبو العباس احمد بن احمد ابن عجيبة الحسنى .

ولد رابع جمادى الثانية من سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف بقرية الزميج من القبيلة الأنجرية ، ومات والده وله من العمر سنتان ، فنشأ في حجر بعض تلامذة أبيه ، ولما حفظ القرآن توجه إلى فاس لطلب العلم ، فأخذ بها عن جهابذة شيوخها ، كبدر الدين الحمومى ، وعلى بن عبد السلام التسولى شارح التحفة والقاضى عبد الهادى بن عبد الله العلوى وأضرابهم وأقام مدة اجتهد فيها وحصل ثم رجع إلى بلده سنة سبع وأربعين ، واجتمع بجدنا سيدى احمد بن عبد المؤمن فأخذ عنه وسلك على يديه وكان علامة محققاً فصيحاً بليغاً حافظاً له باع فى العلوم لاسيما المعقولات ، فكان لانظير له فيها بتلك النواحى

واتفق أن قدم إلى طنجة بعض علماء شنقيط ، فاستطالوا على أهلهـا

بحفظهم ومعرفتهم وصاروا يناظرون طلبتها ويجهلونهم فى المحافل .

فلما اشتهر أمر المترجم طلبه أهل طنجة فى القدوم إليها لمناظرة الشناقطة فأجاب طلبهم وقدم إلى طنجة و ناظر المذكورين وقهرهم و أظهر قصورهم فرحلوا عنها وأحبه لذلك أهلها وطلبوا منه الاقامة بها للافادة والتدريس ، وزوجه بعض سراتها بابنته وصار ينفق عليه وأكرمه غاية فأقام بها إلى أن مات ، وكانت دروسه ممتعة للغاية ، يلقيها بفصاحة واستحضار وحفظ يتعجب منه الحاضرون .

وكان يعتريه جذب فى بعض الاحيان . توجه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، فلما ركب البابور ووصل وقت الصلاة قام لأدائها فاما مر بين يديه بعض الخدمة بالبابور أو منعه من الصلاة فى مكان معين منه .

فقال لايمكن السفر تحت سيطرة الكفار المؤدى لضياع الفرائض . فلما رست الباخرة بمرسى جبل طارق نزل ورجع الى طنجة ألف مؤلفات إلا أن يد الاهمال والضياع سطت عليها فأتلفتها وأخفت معالمها ، فلم نر منها إلا أوراقاً من فهرسته . وبلغنى أن له رسالة فى الخواص وكتابا فى العبادات ورسائل فى التصوف .

وكان يتمنى حضور الجهاد لما بدت بوادر الخلاف بين المسلمين والاسبان ولكن عاجلته المنية قبل بلوغ الأمنية ، فمات قبل ذلك بسنة ، فان الحرب وقعت سنة ست وسبعين ومائتين وألف ، ومات هو سنة خمس وسبعين لم يبلغ الستين ، ودفن ببيته الذى كان يسكنه وفتح له باب إلى الطريق وجعل ضريحا له .

فصـل

وأما والده فهو الشيخ الامام الصوفى المفسر العارف الكبير أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدى بن عجيبة .

ولد سنة ستين أو إحدى وستين ومائة وألف وحفظ القرآن و بعض المتون كالآجرومية والخلاصة والمرشد المعين والقرطبية ومورد الظمآن وحرز الأمانى وغيرها . ونشأ فى صغره نشأة عجيبة فى المروءة والتقوى ومجانبة اللعب والصبيان مع حب العبادة والانقطاع لها وقيام الليل وهو دون البلوغ . ولما بلغ من العمر تسع عشرة سنة توجه إلى القصر الكبير لطلب العلم به فأخذ عن الفقيه محمد السملالى السوسى ، ولازمه سنتين بانقطاع واجتهاد ، فكان يحضر عليه سبعة دروس فى اليوم والليلة مع استدامة التهجد بالثلث الأخير من الليل ، ثم رحل إلى تطوان فأخذ بها عن أحمد الرشتى وعبد الكريم بن قريش ولازمهما فى النحو والصرف والمنطق والكلام والفقه والحديث والتفسير والعروض والاصول والبلاغة والسير ، وسمع من الاخير صحيح البخارى أزيد من سبع مرات وصحيح مسلم مرة واحدة وعن محمد الورزيزى فى الاصول والبلاغة والفقه ، وأجاز له اجازة عامة . وعن محمد العباس النحوى فى النحو ، وعن عبد السلام بن قريش فى التفسير والحديث وعن الفقيه الشهير أبى عبد الله الجنوى فى الفقه والبلاغة والاصول والتصوف والتفسير ، وسمع عليه صحيح البخارى مرتين ، وجزءاً من صحيح مسلم ، ثم رحل إلى فاس فسمع بها الصحيح على العلامة محمد التاودى بن سودة ، وأجاز له أجازة عامة ، وأخذ عن الفقيه محمد بنيس علم الفرائض وجزءاً من التسهيل لابن مالك وأجاز له أجازة عامة . وعن أحمد الزعرى بعضا من التفسير . وعن العلامة الطيب بن كيران فى البلاغة ، وحصل وبرع فى العلوم ، ثم رجع إلى تطوان فأقام مدة يشتغل بالعلم ثم تركه وانقطع للعبادة بسبب قراءته لشرح ابن عباد على الحكم فان نفسه عزفت عن الدنيا وأبغضها وأهلها وصار

يفر من الناس ويخرج إلى الاماكن الخالية فيصلى خمسة عشر حزباً من القرآن وفى الليل كذلك ولا يفتر عن ذكر الله ليلا ونهاراً ، ثم رجع إلى العلم بسبب رؤيا رآها أمره فيها بعض الصالحين بذلك ، لكنه رجع إليه بظاهره لا بقلبه إذ تمكن منه حب العبادة ، ثم صار يشتغل بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم حتى حفظ دلائل الخيرات ، ثم رأى أن الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم فى السبحة أقرب للحضور وأجمع للقلب فأقبل عليها واستغرق وقته فيها فكانت تشرق عليه أنوار وتظهر له زخارف وقصور وخوارق فيعرض عنها . ثم حبب اليه القرآن العظيم فأقبل على تلاوته فكان يختمه فى الصلاة أربع عشرة مرة فى الشهر فدام على هذه الحالة من التدريس مع العبادة نحو ست عشرة سنة ، نفع الله خلقاً كثيراً تخرجوا على يديه فى العلم والصلاح والتقوى . ثم سافر إلى فاس لزيارة شيوخه . ولما كان راجعاً مر على قبيلة بنى زروال لزيارة الشيخ الأكبر مولاى العربى الدرقاوى ، فوجد عنده تلميذه العارف الكبير سيدى محمد البوزيدى رضى الله عنهما فلقيه أولا قبل الشيخ ، فكان أول ما خاطبه به جعلك الله كالجنيد يتبعك اربع عشرة مائة مرقعة ثم دخل به على الشيخ مولاى العربى ، فقال له جعلك الله كالجيلانى ، فقال له البوزيدى أنا قلت له كالجنيد فقال يجمع بينهما إن شاء الله فبقى معهما ثلاثة أيام حصلت له فيها جذبة إلاهية ثم رجع إلى تطوان وهو على غير حالته الأولى ثم صار البوزيدى يكاتبه ويراسله ، فكتب إليه مرة . إن أردت العلوم ومخازن الفهوم فعليك بالقدوم . وكان يقول للفقراء تطوان . والله إن حاجة سيدى أحمد بن عجيبة لعندى فليقدم على ثم بعد مدة قدم هو إلى تطوان ، فأخذ المترجم عنه وتلقن منه . ثم قال له : أنا بين يديك مرنى بما شئت وافعل بى ما شئت ، فقال تبارك الله عليك ثم التفت الى بعض أصحابه ، وقال لهم ان سيدى أحمد متصف بالزهد والورع والتوكل والصبر والحلم والرضا والتسليم والشفقة والرحمة والسخاء والكرم حتى

عد نحو اثنى عشر مقاما . فقال له المترجم يا سيدى أهذا هو التصوف ، فقال له هذا تصوف الظاهر وبقى تصوف الباطن ستعرفه إن شاء الله ، ثم صحبه وصار يتردد اليه فى غمارة ، ويخدمه بنفسه وماله ، وأقبل على المجاهدة فى النفس والهوى بخرق العوائد وارتكاب مايثقل على النفس فلبس جلابة من الصوف قصيرة غليظة ، وخرج يمشى فى الأسواق مع الفقراء وهم يذكرون وفى عنقه سبحة غليظة ، فرغب اليه أهله أن يترك ذلك ويرجع لحالته ، فأبى . فبكوا عليه ، وعزى بعضهم بعضا فيه كما يعزى فى الميت ، وصارت الوفود من الناس تأتى لتعزية أهله . فلما رأى ذلك استأذن شيخه فى لبس المرقعة فلبسها ففرعنه الناس . ثم أمره شيخه باخراج كل مايفضل عن قوته آخر كل يوم ، ولا يدخر لغده شيئا . ثم أمره بخدمة الفقراء وغسل ثيابهم بنفسه ، والسؤال فى الأسواق والدكاكين . وعلى أبواب المساجد عند خروج الناس من الصلاة ، فثقل ذلك عليه غاية . حتى كان يتمنى الموت ويستحليه .

ثم لما رأى من نفسه امتناعا حلف يمينا مغلظة ليفعلن ذلك ، فذهب الى باب مسجد ، وجلس مع العجايز والعميان ومد يده للسؤال . فكان الناس يغطون وجوههم حياء منه . ففعل ذلك مرارا عند جميع أبواب مساجد تطوان العامرة ، ثم أمره بعد ذلك بكنس الأسواق وحمل ما فيها من الزبالة على عنقه . ورمى ذلك خارج البلد . ففعل ذلك مرارا وأمره بحمل الجراب على ظهره ، فصار يحمله وهو امام ببعض المساجد . فكان اذا دخل المحراب وضعه ، فاذا أتم الصلاة أعاده ، وخرج يسأل الناس فى الأسواق الى غير ذلك من أمثال هذا وأشباهه إلى أن فتح الله تعالى عليه الفتح الكامل وصار من أهل الشهود والعيان وبلغ رتبة الكمال والتكميل ، فأذن له بالتصدر للارشاد والتذكير والتربية . فخرج سائحا فى القبائل والمدن ، فأقبل عليه الخلق وانتفعوا به انتفاعاً ظاهرا . وتاب على يديه الجم الغفير ، ودخلوا فى طريق أهل الله أفواجاً . وحصل له فى ذلك نوادر وأخبار يطول ذكرها .

وأدخلوه السجن بسبب لبس المرقعة والاعراض عن التدريس فبقى به مدة الى أن أشهدوا عليه بالتوبة والرجوع فشهد بذلك عملا بقوله تعالى (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان) ، وقصته فى ذلك طويلة مشهورة .

وألف مؤلفات نفيسة أكثرها فى التصوف .

منها تفسيره البحر المديد الذى جمع فيه بين عبارة أهل الظاهر وإشارة أهل الباطن ، وهو فى أربعة مجلدات وايقاظ الهمم فى شرح الحكم وشرح المباحث الأصلية ، وهما مطبوعان معا ، وثلاثة تفاسير على الفاتحة ، وشرح الهمزية ، وشرح البردة ، وشرح الوظيفة الزروقية ، وشرح الحزب الكبير للشاذلى ، وشرح أسماء الله الحسنى ، وشرح المنفرجة لابن النحوى ، وشرح تائية الجعيدى ، وتأليف فى النية وأحكامها . وآخر فى ذم الغيبة . وآخر فى الأذكار النبوية . وتأليف فى القراءات العشر فى مجلد وأزهار البستان فى طبقات الأعيان ، وشرح صلاة ابن مشيش . وشرح خمرية ابن الفارض . وشرح قصيدة الرفاعى التى أولها : يا من تعاظم حتى رق معناه ، وشرح بعض مقطعات الششترى . وشرح النونية له . وشرح رائية شيخه البوزيدى فى السلوك . وشرح تائيته أيضا . وسلك الدرر فى القضاء والقدر . وشرح أبيات : توضأ بماء الغيب والتشوف فى حقائق التصوف . وكتاب الخمرة الأزلية . وكتاب الطلاسم التى حجبت عن التوحيد الخاص . وشرح صلاة ابن العربى الحاتمى . وحاشية على الجامع الصغير للسيوطى . وشرح الآجرومية بالنحو والتصوف ، وهو الذى جرد بعضهم منه قسم التصوف المطبوع . وله مؤلفات أخرى لم تتم . وجرى على يديه كرامات يطول ذكرها .

مات بقبيلة بنى سلمان الغمارية عند شيخه البوزيدى فى حياته ، ثم بعد مدة نقله أصحابه ليلا من غير علم أهل القبيلة المذكورة ، فكانوا يسيرون

به ليلا ويكمنون نهارا إلى أن أوصلوه إلى الزميج من القبيلة الأنجرية حيث ضريحه الآن .

وكانت وفاته سنة أربع وعشرين ومائتين وألف .

الباب الثالث

فى ولادته ونشأته وطلبه للعلم وسلوكه الطريق ومجمل تاريخ حياته

ولد رضى الله عنه ليلة الجمعة ، خامس رجب سنة خمس وتسعين ومائتين وألف بتجكان ، من قبيلة بنى منصور الغمارية .

وحفظ القرآن وهو صغير برواية ورش ؛ ثم شرع فى حفظه بالروايات السبع ، فقرأ ختمة برواية المكى على شقيقه سيدى احمد ، ثم شرع فى طلب العلم ببلده على اخيه العلامة البارع ، صاحب الأخلاق الحسنة سيدى محمد القاضى وعلى ابن عمه العلامة المحقق زين العابدين بن محمد المؤذن ، فأخذ عنهما بعض المبادىء ، ثم رحل به والده إلى فاس سنة اثنتى عشرة وثلاثمائة وألف .

وانزله بمدرسة الشراطين ، ولم يذهب به إلى زاوية اصحاب ابيه لينقطع للعلم ولا يشغله الفقراء عن طلبه ، فابتدأ يقرأ الآجرومية بشرح السودانى على أبى عبد الله محمد بن التهامى كنون وبعض الكتب الصغيرة على غيره فصعب عليه الأمر وصار لايدرى مايقوله الأساتذة فقابله يوماً رجل لايعرفه فقال له اعطنى سبعة ريال ولم تكن عنده فذهب فى الحال ورهن شرح عبد الباقى الزرقانى على مختصر خليل وأتاه بها وانصرف ثم بعد ذلك رأى فى ليلة كأن رجلا أتاه وقال له هات الكتاب الفلانى لكتاب سماه فأتاه به فصار يقرأه معه إلى أن أكمله أوقارب فلما انتبه وذهب للدرس وجد نفسه كأنه كان يقرأ منذ سنين وصار لايقرر الأستاذ معنى إلا أدركه فى الحال وكذلك إذا طالع هو وحده يفهم بسرعة من غير معين ولا مذاكر ، ثم حصل له مرض ألزمه الفراش ، فبينما هو

ذات يوم فى بيته من المدرسة إذ دخل عليه الشيخ الامام العارف القدوة بقية السلف الصالح القطب الربانى سيدى محمد بن ابراهيم رضى الله عنه فقال له أنا بفاس وأنت وحدك بالمدرسة هذا لايمكن قم معى ، فأخذه الى الزاوية وبر به وأكرمه غاية ، وأتاه بكل مايحتاجه من كتب وملابس ، وصار يخدمه بنفسه ، وكلف الفقراء أصحابه بخدمته أيضاً ومراعاته ، ثم صار يكتب له المتون فى لوح ويقول له إن حفظته أعطيتك ربع ريال فكان كلما حفظ لوحاً اعطاه إياه تحريضاً له على حفظ المتون فكتب له الخلاصة ومختصر خليل . وكان يقرأ معه ذلك فى الزاوية ويفهمه معنى المتن بطريق الاختصار ثم لقنه الورد وجرده لسلوك الطريق مع طلب العلم ، فكان يرتضع لبان الثديين فى آن واحد وقرأ معه ايضاً الحكم لابن عطاء الله والعهود المحمدية والمنن الكبرى للشعرانى ورسائل جده سيدى الحاج أحمد بن عبد المؤمن والتنوير لابن عطاء الله وكان إذا مر بشىء صعب شديد سلوكه يقول له مر على هذا فقد انقضى زمانه يريد بذلك التيسير عليه والاشارة الى أن فتحه سيكون من باب الفضل والمنة لا من باب السلوك والمجاهدة وكان يرفق به غاية فلا يكلفه بما يكلف به غيره من الفقراء فكان يوقظ جميعهم قبل الفجر بنحو ساعتين ويتركه نائماً قبيل الفجر بقليل حتى كان بعض الفقراء يغار منه . فكان الشيخ يقول لهم ابن الصديق من المحبوبين عند الله ، وأمره بالحضور على علماء القرويين وعين له من يقرأ عليهم لصلاحهم وبركة علمهم ثم لما كانت الزاوية بعيدة عن القرويين صار يصوم أيام القراءة حتى لا يرجع وسط النهار إلى الزاوية لتناول الطعام وأمره الشيخ أن يذكر الله جهراً فى شوارع فاس إذا نزل للدروس بعد أن وضع السبحة فى عنقه فثقل عليه ذلك الأمر غاية حتى كان يتمنى الموت وكان يخيل إليه أن حيطان فاس تنظر إليه وتسخر منه ومن صوته ولم يأمره شيخه بشىء أثقل على نفسه ولا أشد عليها من الذكر جهراً بالطريق ، لا سيما مع صغر سنه وطلبه للعلم فاستمر على ذلك نحو ثلاث سنين جمع الله له فيها بين الحصول على علم الظاهر والفتح

فى العلم الباطن ، ولم يحتج بعدها الى شيء ، وصار أعلم أهل عصره ومصره .

أما تفصيل قراءته فحضر على الشيخ الامام العلامة المحدث الصوفى أبى عبد الله سيدى محمد بن جعفر الكتانى فى مختصر خليل قراءة بحث وتحقيق بشرحى الخرشى والزرقانى معا وسمع عليه موطأ مالك وبعض صحيح مسلم وقرأ عليه أيضاً جل الخلاصة بشرح المكودى ، ومقدمة جمع الجوامع لابن السبكى وكان لا يفهم مايقرره الشيخ فيها كما ينبغى ، فسأله يوما شيخه سيدى محمد بن ابراهيم رضى الله عنه هل تفهم الأصول فأجابه بالواقع فرأى تلك الليلة أو بعدها كأن العارف سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه أتى اليه ولقنه ورد الطريق وأتى معه بشرح جمع الجوامع للمحلى ، وشرع يقرأه معه من أوله حتى ختمه

فلما استيقظ وجد نفسه يفهم الكتاب ولم يقرأ بعد ذلك الأصول وصار إماماً فيه يتقن أصوله وفروعه ويدرى جليه وخفيه ويناظر فيه كما أنه صار إماماً فى الفقه منقطع النظير فيه لا سيما الفقه المالكى فكان يحفظه كما يحفظ غيره متناً من متونه ويدريه كما يدرى غيره مسألة واحدة منه وذلك بسبب رؤيا رآها أيام طلبه وهى أنه رأى الامام مالكا رضى الله عنه فى قبة كبيرة عامرة بالكتب فلما دخل عليه ، قال له : ائتنى بكتاب من ركن القبة أقرأه معك فأتاه بكتاب ، فلما فتحه إذا هو العتبية فقرأه معه فحصلت له بركة تلك القراءة وكانت اشارة إلى أنه سيصل رتبة الامامة فيه حيث تلقاه عن إمام المذهب .

وحضر أيضاً على شيخ الجماعة الامام الصوفى أبى العباس سيدى أحمد ابن الخياط فى الخلاصة بشرح المكودى وصحيح البخارى بشرح القسطلانى والشمائل بشرح جسوس والهمزية والمرشد المعين .

وعلى العلامة الصالح سيدى الفاطمى الشرادى فى المختصر والخلاصة بتوضيح ابن هشام والمكودى معاً وفى مختصر السعد على التلخيص وتحفة

الحكام لابن عاصم إلا أنه لم يحضر من هذه إلا القليل .

وعلى العلامة محمد بنانى إمام جامع الديوان فى المختصر والخلاصة .

وعلى العلامة محمد جنيون بالتصغير فى المختصر بشرح الدردير وفى المطول بحواشيه وفى صحيح البخارى وشفاء القاضى عياض .

وعلى ولى الله تعالى صاحب الأحوال أبى العلاء إدريس عمور أوائل الخلاصة والسلم فى المنطق .

وعلى الشريف أحمد العلمى الاربعين النووية وأوائل رسالة العضد ورجز ابن كيران فى الاستعارة .

وعلى العلامة النحوى خليل الحشمى المعروف بسيبويه الخلاصة لابن مالك قراءة بحث وتحقيق .

وعلى العلامة الجليل الصوفى الوجيه السيد الكامل الامرانى مختصر خليل مجرداً عن الشروح ، بل كان يقرر المتن ويحله مع بعض أبحاث رائقة .

وعلى العلامة محمد بن التهامى كنون شرح الاجرومية للسودانى وكتاب الجمل للمجراد وقطعة كبيرة من الخلاصة وأوائل الشمائل بشرحه هو أعنى كنون وقطعة من الهمزية وجملة كبيرة من المختصر بشرح الخرشى .

وعلى الولى الصالح سيدى عبد الملك العلوى الضرير مختصر خليل بالخرشى من أوله إلى الوقت المختار وقطعة من شرح السنوسية ومبحث الفصاحة والبلاغة من شرح التلخيص .

وعلى فقيه المغرب ومفتيه سيدى المهدى الوزانى أبوابا من الخلاصة .

وعلى الفقيه أحمد بن الجيلانى لامية الافعال ، وقليلا من التصريح الازهرى .

وعلى العالم الجليل أحمد بن الطيب الفيلالى لامية الافعال أيضاً .

وعلى العلامة الشريف سيدى المأمون العراقى الخلاصة .

ثم رجع إلى وطنه فى ربيع الثانى من سنة خمس عشرة ثم عاد إلى فاس فلزم شيخه بالزاوية إلى سنة ثمان عشرة ثم نزل بسلام وعزم والده على تزويجه ببلده ، فاختار هو أن يأخذ بنت خاله الشريف البركة الصالح الذاكر الناسك سيدى عبدالحفيظ ابن عجيبة باشارة من شيخه ، وكان خاله يسكن مدينة طنجة فقصده لذلك الغرض فأجابه وشرط عليه السكنى بطنجة فكان ذلك هو السبب فى سكناها فتزوج بها واستوطنها ، وشرع فى تدريس العلم بها فقرأ الشمائل الترمذية ، ثم الآجرومية ، ثم ألفية ابن مالك بشرح المكودى ، ثم بعد ختمها افتتحها مرة أخرى بشرحى ابن هشام والمكودى معا . وقرأ لامية الافعال والسلم اللاخضرى بشرح بنانى وهمزية البوصيرى والمرشد المعين ومختصر خليل بشرح الخرشى .

قال العبادى: كان القارى يسرد الخرشى بعد ما كان الشيخ يأتى بكلامه وتقرير جميع ما عند الاجاهرة وبنانى والرهونى تقريراً لو كان أصحاب تلك الكتب أحياء لاستفادوا من كلامهم ما لم يقصدوه من الفوائد زيادة على ما قصدوه وقرأ فرائض المختصر على حدة وصحيح البخارى ، وشرع فى التفسير فقرأ نصف الفاتحة فى شهر رمضان ، ثم لم يتيسر له العود اليه بسبب انقطاعه فى البيت وقرأ التفسير بعد ذلك على طريق إشارة الصوفية مع الفقراء بتفسير جده للام سيدى أحمد بن عجيبة .

قال فى نبذة التحقيق : وكان إذا أنعم بدرس أو تهيأ لموعظة أو خطبة ازدحم الناس على محلات القرب منه وغصت المحافل بهم وأول خطبة ذاع فيها صيته خطبة خطبها بعيد شوال صدر العشرة الثالثة استنابه فيها على حين غفلة قاضى الوقت لغرض عرض فأملاها من حفظه فى نحو ساعتين وهى من خطب العلامة الرهونى ، إلا أنه أضاف اليها ما يناسب الوقت والحال وأطال فى

المجال مع أدعية بالغة ، وغير ذلك . فانبهر الحاضرون من سعة حفظه وعذوبة لفظه وتأثير وعظه .

ثم اشتهر أمره وصار الطلبة يلجأون إليه ويلحون عليه فساعدهم وفتح مرة صحيح البخارى فشاهدنا كغيرنا من أماليه ما بهر العامة والخاصة إلى آخر ماقال.

وانتفع بقراءته النـاس وتخرج عليه جماعة من أهل الحواضر والبوادى وكان فى تدريسه البركة الظاهرة يحضره الطالب زماناً يسيراً فيحصل له الفتح وينال الحظ الأكبر والنصيب الأوفر من ذلك العلم بل ومن غيره .

وكان الطالب إذا حضر عليه مرة لايستطيع أن ينتفع بغـيره ولا تقبل نفسه الجلوس على أحد بعده لكونه لايرى فى قراءتهم مارآه فى قراءة الشيخ من الفصاحة والحفظ وكثرة الاطلاع وشدة الاستحضار حتى أن بعضهم شد الرحلة إلى فاس ثم رجع وقال ان قراءة الشيخ أفسدتنا ولم تترك أحداً غيره يكبر فى عيننا وكذا قال غيره لما شاهد قراءة العلماء بالحرمين الشريفين .

أضف إلى هـذا رونقا يكسو مجلسه وأبهة تعلو منظره ودرسه لا توجد فى مجالس غيره ثم فى أوائل اشتهاره بالتدريس بطنجة تعرف إليه جمع من الأفاضل فـكانوا يجالسونه كثيراً ويسمعون من فوايده ومـذكراته فى العلم والطريق وأخبار الأوليـاء والشيوخ ، فاشتاقت نفوسهم للأخذ عنه فلقنهم ورد الطريقة الشاذلية . ثم صاروا يجتمعون عليه وهم نفر قليل . وكان أكثر اجتماعهم بدكان الرجل الصالح سيدى محمد الجزيرى رحمه الله وكان يصنع فيه الأحذية . ثم لما كثروا صار يقعد معهم مجالس الذكر صباحاً ومساء بزاوية العارف بالله سـيدى محمد الحراق من طنجة ، وذلك أواخر سـنة اثنتين وعشرين .

قال فى النسمات وعند دخول سنة ثلاث وعشرين فاضت أسراره وظهرت

أنواره وأشرقت على الحواضر والبوادي شموسه وأقاره وكسيت البلد بظهوره حلة الأنس والفرح كما لبست عند موته ثوب البؤس والحزن والترح فتوارد الناس لأخذ الطريق عنه رجالا ونساء وانجذبت القلوب إلى الله بهمته وارتفعت همم من سبقت لهم العناية عن حضيض السكون وخسته . صار جل من في البلد يلهج بذكر الله وانقلب حاله من الغفلة الى اليقظة وتعلق قلبه بالله ، ذلك كله غيبا بنفوذ همته وقوة حاله من غير أن يدعو أحداً لأخذ الطريق عنه والانتساب إليه وفي هذه السنة أضاف إلى مجلس الذكر المذاكرة مع الفقراء في مقامات الطريق وآداب السلوك . وكانت على غاية ما يكون من الأبهة والأدب والسكينة والوقار والخشوع وفيضان الأنوار حتى كأن الفقراء الحاضرين على رؤوسهم الطير من قوة حاله ، وعظيم هيبته ، وطيب أنفاسه .

وكانت أنواره تسبق كلامه ، وترتاح الأرواح لسماعه من غير ملل ولا سآمة ، وأخذ بمجامع القلوب . وكان كله في الحض على اتباع الشريعة والعمل بالسنة ، والتعلق بالأخلاق النبوية ، والتحقق بها حالا ومقالا وعلما وعملا .

وكان شديد الغيرة ، والتستر على الحقائق والاسرار فلا يفشيها ولا يذكر منها إلا القدر المباح كما كان عليه أستاذه .

وكان يقول : لاينبغي للمريد في بدايته أن يشتغل بمطالعة كتب الحقائق والأسرار ، ككتب الحاتمي والجيلي وأمثالها من كتب الوحدة ، فان ذلك مما يوقف المريد ويمنعه الوصول إلى المقصود ، لأن الحقائق والاسرار لا يتوصل اليها من الكتب ومطالعة الدفاتر ، وانما تدرك بالعمل والمجاهدة وصحبة الأشياخ .

فمن عمر أوقاته بالطاعات والاذكار مع امتثال أوامر الشيخ وإرشاده في ذلك نبعت منه الحقائق ، وتفجرت من قلبه عيون الاسرار من غير مطالعة كتاب .

وقرأ مع الفقراء رسائل جده القطب سيدى الحاج أحمد بن عبد المؤمن ثم رسائل شيخه القطب الاكبر مولاى العربى الدرقاوى مرتين بمذكراته النافعة ، وإشاراته الجامعة ، ثم العهود للعارف الشعرانى ، ثم المباحث الاصلية لابن البنا بشرح ابن عجيبة ، ثم الحكم العطائية بشرحه أيضاً . وأعادها بشرح ابن عباد ، ثم جملة من تفسير ابن عجيبة ، ثم بعد إقامته بالزاوية الحراقية نحو أربعة أعوام بنى زاويته الكبيرة التى دفن بها وانتقل اليها .

وكان السبب فى ذلك بكرامة من كراماته .

وكان فى أول قدومه إلى طنجة وشروعه فى التدريس ، ابتدأ يخطب بالزاوية الناصرية . فوقع الاقبال على خطبه كما وقع على دروسه .

قال فى النسمات . وكانت خطبه بليغة كثيرة النفع ، شديدة التأثير ، يحض فيها على اتباع الكتاب والسنة ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر لا تأخذه فى الله لومة لائم ، ولا يرهب بطش جبار ولا سطوة حاكم . بل كان يقول الحق وان كان مرا ، ويدور معه دوران من هو معتمد على الله سراً وجهراً فوقعت له بسبب ذلك وقائع هائلة وقضايا هامة .

منها : أن الفرنسيين قبل احتلالهم المغرب كانوا أرسلوا بعض الشياطين من أذنابهم إلى طنجة ، ففتحوا بها مدرسة لتعليم الاولاد اللغة الفرنسية توصلا بذلك إلى ما بعده . فسارع بعض المغرورين الراغبين فى الدنيا إلى إدخال أولادهم فيها ، فلما علم الشيخ بذلك خطب خطبة بليغة حذر فيها المسلمين من إدخال أولادهم مدارس النصارى ، وبين ضرر ذلك فى الدين ، وما يترتب عليه من المفاسد فى الاعتقاد والاخلاق ومصالح البلاد وبالغ فى ذلك ، وأطنب وأطال ، فأثرت خطبته فى الناس . وسارع جل من أدخل أولادهم المدرسة إلى إخراجهم منها ، فاغتاظ لذلك سفير فرنسا ، واحتد غضبا ، لانها أول بذرة بذروها فى المغرب لحصد الشر والفساد منه ،

فأفسدها عليهم الشيخ بخطبته ، فأرسل إلى الباشا وهو حاكم المدينة يأمره بعزل الشيخ من الخطبة ، ويتوعده بما لا تحمد عقباه ان لم يفعل ، فداخله رعب شديد ، وكانت فرنسا اذ ذاك متحفزة للوثوب على المغرب ، فأرسل الباشا بعض أعوانه الى الشيخ يطلب منه القدوم ليكلمه فى ذلك ، فلم يصل الى الشيخ حتى شاع الخبر فى الناس بأسرع من لمح البصر . فاجتمعوا و توجهوا الى الباشا والشيخ معهم . فلما وصلوا الى المحكمة شرعوا فى قراءة سورة الفتح بلسان واحد . رافعين بها أصواتهم . فارتجت المحكمة ودهش الباشا ، وبقى فى انتظارهم الى أن ختموا السورة ، فقال ما مرادكم . فقالوا ان يبقى الشيخ على حاله ولا يعزل من الخطابة وطلب فرنسا لذلك تدخل منها فيما ليس هو من شأنها ، بل من شأن ديننا ونحن أحرار فيه فأجابهم بالموافقة ثم أقبل على الشيخ وأخبره بما ألزمه به السفير المذكور وما توعده به مع ما عنده من أوامر السلطان بمراعاة سفراء الدول ، وبالغ فى الاعتذار فقبل الشيخ عذره ، وانصرف مكرماً معززاً مستمرا على خطابته الى ان تركها بعد ذلك باختياره . فكانت هذه القضية أول حجر فى أساس الخلاف بين الشيخ وفرنسا .

ثم بعد ذلك حصلت قضية أشد من هذه فى شأن أمة للشيخ ، تعلقت بعلم فرنسا للتوصل الى بعض اغراضها الفاسدة . وارسل سفير فرنسا الى نائب السلطان يأمره باجبار الشيخ على عتقها لتعلقها بعلم فرنسا فامتنع من ذلك فى قصة طويلة كانت من اعظم الاسباب فى ازدياد حقد فرنسا على الشيخ رضى الله عنه ، وكانت قضية الامة عجيبة لا تخلو من حكمة مقصودة للشيخ رضى الله عنه فانه كان لا يلتفت الى مثل هذه الاشياء ، ولا يشدد فى ملك جارية ولا غيرها . بل لو كانت الدنيا كلها ما وقف لأجلها ذلك الموقف ولا أمر بالقبض عليها إلا انه اراد تبكيت فرنسا وتعريفها انه لا يعتبرها ولا ما كان من جهتها .

ثم بعد هـذه القصة المشروحة فى الأصـل تتابعت قضايا الخـلاف بين الشيخ وفرنسا إلى أن بلغ الأمر منتهاه بعد احتلالها المغرب .

واشتهر الشيخ بين جميـع رجالها بالمغرب وحكامها فيه انه العـدو اللدود لفرنسا . فسلـكوا معـه كل المسالك وأطمعوه بالأموال والمرتبات وتنفيذ الـكلمة . والمساعدة على نشر طريقه فى سائر أنحاء المغرب ، وغـير ذلك ، كما فعلوا بغيره . فلم يزده ذلك إلا عداوة لهم وتباعدا منهم إلى أن لقى الله تعالى وهو على ذلك .

ثم لمـا أيسوا من ميـله شرعوا يحاربونه فى أصحابه وأتباعـه بالمغرب ، ويعاكسونه فى كل مآربه ، ويقفون فى وجه مقاصـده لاخوانه وأصحابه ، لا لنفسه ، فانه لم يكن له مقصد من الدنيا أصـلا كل ذلك والحق سـبحانه وتعالى يناقض مقصودهم ، ويهيء للشيخ كل ما يريد ، ويقضى حوائج كل من يتعلق به على يدهم أيضا فى حال عـداوتهم الشديدة إياه ، والله غالب على أمره .

فصـــــل

وفى سنة تسع وعشرين توجه الشيخ بأهله وجماعة من أصحابه ، وهم تسعة وعشرون نفسا إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، ومر بطريقه على الجزائر فزار بها ضريح ولى الله تعالى سيدى عبد الرحمن الثعالبى . ثم لمـا وصل الى بور سعيد امتنع المصريون من انزاله الى قطرهم كما هى عادتهم مع الحجاج ، فاضطر الى الذهاب فى البابور الذى كان فيه الى اليمن ، فنزل بمرسى عـدن ، وأقام بهـا تسعة أيام ، ثم توجه منها الى مصوع من بلاد الحبشة ، فأقام بهـا ثمـانية عشر يوما أكرمه فيها أعيان البلد ووجهاؤها غاية الاكرام . وكانوا يترددون اليه للزيارة والتبرك والانتفاع بالمجالسة والمذاكرة ، وقضى بها عيد

الفطر ثم بعــده بأيام توجــه الى جدة . ومنها الى مكة المكرمة ، وكان وصوله اليها بعــد منتصف شوال بقليل . فأقام بها نحــو شهرين كانت كلها مواسم وأعيادا عامرة بأنواع الطاعات والمسرات . يجتمع اليه فضلاء الحرم وعلماؤه وشيوخه فتمضى مجالسه معهم كأنها رياض مونقة يقتطف منها أزهار العلوم والمعارف وأنوار الفوائد واللطائف .

وكان فى تلك الأيام يتظاهر بمزيد العبودية ، والتواضع ، والقناعــة والتقشف ، والاقتصاد فى المأكل والملبس ، ويحث الفقراء على ذلك ويحذرهم من التوسع ، وتناول الشهوات ، ويقول لهم : هــذه الأماكن الشريفة لا يليق فيها الا الذل والتواضع لله تعالى . ومن تمـام ذلك التقليل من الشهوات والزهد فى الملذوذات ان كان المرء يريد قبول الحج والحصول على ثمرته والا فهو مجرد فسحة وسياحة ونزهة . بل ينبغى لطالب الآخرة والراغب فى رضى الله تعالى أن ينفق ما معه على فقراء الحرمين وأشرافهما وعلمائهما عوضا عما سينفقه فى شهواته وأغراضه . وكذلك كان هو رضى الله عنه لا هم له الا التصدق والمواساة وصلة العلماء والاشراف وأهل الخير والصلاح .

وكان لا يتظاهر بعلم ولا مشيخة ولا مافيه رائحــة تقدم وظهور . ولمـا طلب منه اهل مكة أن يلقى دروسا فى المسجد الحرام وأهل المدينة أن يلقى دروسا فى الحرم النبوى امتنع من ذلك ، وقال : كل ما ينسب الينا من العلم والصلاح تركناه فى بلدنا ، وخرجنا منها متبرئين من علمنا وعملنا ، مفتقرين الى الله ، راجين فضله وعطفة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وكانت وقفة عرفة تلك السنة يوم الجمعــة التى ورد فضل الوقوف بها على سائر الأيام . ولمـا كان بعرفة وقف فى موضع مخصوص وأخبر الفقراء من باب الكشف : انه الموضع الذى وقف به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا الموضع الذى يقف به الامام ويظن النـاس أنه موضع وقوف رسول الله

صلى الله عليه وسلم . وفى يوم الأضحى اجتمع الشيخ وأصحابه بشيخه ، وشيخنا الامام العلامة الصوفى سيدى محمد بن جعفر الكتانى إذ قدم من المدينة المنورة للوقوف بعرفة . وكان الجمع حافلا ، مشتملا على جماعة من العلماء والفضلاء والفقراء الصوفية والمنشدين . فشرعوا فى الانشاد ، فطاب الوقت ورقت القلوب . وقام الشيخ سيدى محمد بن جعفر الكتانى متواجدا وقام الشيخ رضى الله عنه ، فقام الحاضرون كلهم وتواجدوا بذكر الله تعالى والفرح به ، فكانت ساعة من أبرك الساعات .

ثم فى أواخر الحجة توجه إلى المدينة المنورة ، فهل عليه هلال المحرم ، فاتح سنة ثلاثين قبل وصوله إلى المدينة بمرحلتين . ولما بلغ المكان الذى تظهر منه قبة النبى صلى الله عليه وسلم لم يملك حاله . فرفع صوته بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ، وصار يستشفع به الى الله تعالى أن يمنحه كمال الأدب معه صلى الله عليه وسلم ومع جواره وسكان مدينته المنورة . وكان ذلك منه رضى الله عنه بحال قوى ، فسرى فى الحاضرين كلهم . فرقت قلوبهم وذرفت عيونهم .

ثم لما دخل إلى المدينة بادر إلى زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم . ثم خرج إلى البقيع . فلما وصل اليه خلع نعله . فخلع الناس نعالهم . فزار من به من آل البيت الأطهار والصحابة والفضلاء الأخيار . ثم رجع وأقام بالمدينة المنورة ثلاثة أشهر كانت من أبرك الأوقات وأطيبها عامرة بأنواع الطاعات والاجتماع بأفاضل الوقت وعلمائه فى المذاكرة بأنواع العلوم . وكان أكثر ذلك بحضور شيخنا سيدى محمد بن جعفر الكتانى ، وغالبها بمنزله . وأقبل عليه علماء المدينة ، ومن كان بها من علماء الأقطار وفرحوا به ، وأجلوه وأعظموا منزلته السامية . فى العلم ، والحفظ ، والاطلاع ، والتبحر فى سائر الفنون . فكانوا يجتمعون به فى أغلب الأوقات ، وبكل المناسبات ، وعملوا له ولائم

وعزومات . ثم فى أواخر ربيع الأول غادر المدينة ، متوجها إلى الشام . وفى اليوم الثانى لقدومه . شاع خبره بين العلماء والأفاضل . فسارعوا إلى زيارته والاجتماع به ، وأكثروا من استدعائه إلى منازلهم مع أصحابه وأتباعه . وانتفعوا بمذاكراته وأحبوه ومالوا اليه . وكان كثير منهم لا يفارقونه .

ثم بعد مدة توجه إلى بيروت ، وفى اليوم الثانى من دخوله شاع خبره بين أهلها أيضا ، فجاؤا لزيارته وفى مقدمتهم العلامة الشهير. صاحب المؤلفات الكثيرة فى جناب الرسول صلى الله عليه وسلم الشيخ يوسف النبهانى . فزاره وتبرك به ثم توجه منها إلى القاهرة وأقام بها نحو أربعين يوماً اشترى بها كثيرا من الكتب ، وزار ضواريح آل البيت والأولياء المشاهير وشد الرحلة إلى طنطا لزيارة القطب سيدى أحمد البدوى . وتعرف اليه شيوخ الأزهر وعلماؤه ، وفى مقدمتهم عالم الديار المصرية الشيخ محمد بخيت رحمه الله فأحبه كثيرا وأجله . واعتقد فضله ، وصار بعد ذلك يحبه ويذكره فى المجالس والمحافل .

ووقع للشيخ مع بعضهم مناظرات فى مسائل علمية وأحوال خالفوا فيها السنة والشريعة كحلق اللحى وشرب الدخان والملابس الافرنجية .

وكان يقول فى حق أهل مصر : ان هؤلاء القوم كادوا يرجعون الى قبطيتهم الأولى ولم يبق لهم من الاسلام إلا الأسماء واللغة العربية . ثم توجه راجعا إلى المغرب من طريق بورسعيد ، فلم يتهيأ له الركوب ، فأقام به نحو شهر فى انتظار ورود البابور ولد له فيه مولود ، سماه محمد الزمزمى ، وذلك يوم الأربعاء ، خامس عشر جمادى الأولى سنة ثلاثين . وفى الشهر الذى بعده وصل إلى طنجة .

فصـــــل

ووافق عنـد رجوعه من الحجاز أن تمت المعاهـدة بين السلطان عبد الحفيظ ودولة فرنسا على احتلال المغرب بعـد أن سبق احتـلال بعض مدنه قبل ذلك ، فلما أمضى معهم الاتفاق على ذلك تنازل عن الملك لأخيـه يوسف ، ثم توجه الى الحجاز . فلما وصل الى المدينـة المنورة أظهر التـوبة والانابة ، وأكثر من الصدقات والبر بأهل المدينة . وكان يتظاهر قبل ذلك بمحبة شيخنا سيدى محمد بن جعفر الكتانى وتعظيمه ، فأتى اليـه وأظهر له من الآدب والتواضع ما غره به ، لسلامة نيته وحسن طويتـه . فأقبل عليه وأكرمه ، وجعله من خاصة أصحابه .

ثم لما عزم عبدالحفيظ على الرجوع الى المغرب طلب من الشيخ المذكور أن يرشده إلى عالم يقتـدى به ويهتدى بهـديه ، ويعول فى أمور دينه عليه ، فأرشده الى الشيخ رضى الله عنه ، وقال له ليس بالمغرب اليوم مثله . لا سيما وهو بطنجة التى اختار عبـد الحفيظ الاقامة بها . ثم كتب سيدى محمد بن جعفر رضى الله عنه الى الشيخ كتاباً قال فيه .

أما بعد : فموجبه تجديد العهد بكم والسؤال عن أحوالكم أدامها المولى سبحانه على وفق مرادكم واعلامكم بأن سلطان مغربنا الشريف العلامة . مولاى عبد الحفيظ بعد مازار جده المصطفى صلى الله عليه وسلم واستسلم اليه وانقاد بين يديه متضرعا خاضعا وجمعنا الله سبحانه وتعالى به جرى ذكركم بما نعلمه منكم فاشتاق اليكم ، وأحب أن يكون له اجتماع بكم واخوة مع جنابكم ، وارشاد منكم إلى مافيه الصلاح لدينه والنجح فى أخراه ، وعليه فنحب منكم ، بارك الله فيكم أن تعملوا على ذلك ، وتقبلوا اخوته ، وتعاملوه معاملة أخص إخوانكم اليكم محبة وارشادا ونصحا، ولا تقصروا فى ذلك ، والله

تجازيكم ، وقد أعلن فى هـذه الحجة بما اعلن به الأوابون . ثبتنا الله وإياه على ذلك وقوانا على العمل به وعلى محبتكم الخ . وهو مؤرخ بيوم الأربعاء تاسع عشر المحرم سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وألف .

فلما وصل الكتاب الى الشيخ قدس سره . قال غره عبد الحفيظ بظاهر حاله . ثم كتب جوابا له وعرفه بشرح حاله وحقيقة أمره . وأن ما تظاهر به من التوبة والانابة . هو مجرد صورة لا حقيقة لها . ثم لما قدم الى طنجة أرسل الى الشيخ مع الشريف الصالح سيدى المأمون البلغيثى . وكان مجاورا بالمدينة المنورة . فأنزله عبد الحفيظ معه الى المغرب . ولكنه رجع بعد ذلك اليها . فلما أتى الى الشيخ وأخبره بأن السلطان يريد الاجتماع به امتنع من ذلك كل الامتناع . فلما رجع اليه وأخبره بامتناع الشيخ أراد أن يغريه بالمال . فأرسل اليه أربعة آلاف ريال مع الشريف المذكور ، فردها اليه . وصمم على عدم الاجتماع . فرجع اليه بالمال فرده ثالثا ، ووعد بالزيادة وأمره أن يسلك معه كل مسلك ويتوسل اليه بكل وسيلة . فصار الشريف يتردد الى الشيخ فى شأن هذه المقابلة كل يوم ، ويتوسل اليه بشرفه وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويستعطفه بكل ما فى وسعه والشيخ مصر على الامتناع . ثم سأل عبد الحفيظ بعض الواردين عليه من أهل البلد عمن يحترمه الشيخ ويستحيى منه . فأرشده الى بعض الفقهاء . وكان الشيخ يحبه ويجله . فأرسل اليه وأعطاه أربعة آلاف ريال وطلب منه أن يتوسط له عند الشيخ فى الاجتماع به . فجاء اليه . ومكث معه من الضحى الى الظهر . وهو يحاول من الشيخ المساعدة فلم يجبه اليها ، وقال له لا أجتمع بمن سلم المغرب الى فرنسا ، وقتل سيدى محمد بن عبد الكبير الكتانى ظلما ولو فعل مافعل ثم تعلق بغيرهما أيضا فلم يفلح . فلما أيس من الوسائط أرسل اليه يوما مع الشريف البلغيثى يقول : إننى سأقدم غدا الى منزلك ، فاذا وصلت الى باب دارك ، وظهر لك أن تطردنى فافعل . فأرسل الشيخ فى الحال الى بعض

تلامذته ممن كان متصدرا عنده للاستشارة وأخبره الخبر ، وأمره أن يصرفه عنه وعرفه بأنه لا يقابله أصلا ، فأمر أربعة من أصحاب الشيخ أن يلزموا باب الدار بعصيهم ليردوه اذا جاء بالقوة . ثم ذهب إلى بعض من كان متصلا بعبد الحفيظ ، وقال له اذهب اليه ، وقل له : ان الفقراء مجتمعون بباب دار الشيخ ليمنعوه من الوصول اليـه . وعليه فالواجب أن يتأخر عن التوجه اليه خوفا من وقوع مالا يحمد . فلما بلغه الرسول ذلك أيس مرة واحدة وأرسل الى الشيخ يقول له : انك لست أفضل من عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وأنا لست شرا من الحجاج بن يوسف الثقفى . وقد كان عبد الله بن عمر يجتمع به . فقال الشيـخ للرسول ان عبدالله بن عمر رضى الله عنهما كان عنده من الفضل وقوة الحال برؤية رسول‌الله صلى‌الله عليه وسلم وصحبته مايحمى دينه من التأثر بالاجـتماع بالحجاج وأنا ضعيف الحـال ، أخاف على دينى أن يتأثر ويضعف بسبب الاجتماع به وهكذاصرفه الله عنـه ، فلم يجتمع به . ثم بعد هذا بنحو سنة وقعت الحرب العظمى وحصل لعبد الحفيظ ما أوجب سفره الى أسبانيا . فلما وصل اليها اتصل به سفير دولة ألمـانيا التى كانت فى حاجة الى من يثير الحرب على فرنسا فى المغرب وطلب منه بصفته كان ملك المغرب وقد انتزع الملك من يده أن يحارب‌فرنسا ليعود الى ملـكه ، وأن دولته مستعدة للمساعدة على‌ذلك بالمال والسلاح ، فأظهر رغبته فى ذلك ، ولم يكن قصده فى الواقع الا أن يبتز منهم الأموال ليصرفها فى شهواته ويبذرها فى ملذاته ، لـكنه رأى أن ذلك لا يتم الا بالشروع فى العمل ، ولم يرمن يصلح لذلك ويقوم به الا الشيخ رضى الله عنه . فأرسل الى وكيله بطنجة ، وهو عبد الهادى السلاوى وأمره أن يذهب الى الشيخ ويصحب معه الجزء الأخير من صحيح البخارى . ويتوسل اليـه بالنبى صلى الله عليـه وسلم وبرجال ذلك الجزء فى أن يرضى عنـه ، ويقبل معاملته فى شأن القيـام على فرنسا ومحاربتها ، وعرفه بأن دولة ألمـانيا هى التى ستتولى المساعدة بالمال والسلاح

على ذلك ، فأجابه الشيخ لما علم أن الامر متعلق بالدين ، وأنها دعوة واجب تلبيتها والخوض فيها إلا أنه لعدم تحققه من الأمر والنتيجة كلف بذلك ابن أخيه الشريف سيدى الغالى بن أحمد بن الصديق . وكان الألمان قد اتصلوا أيضا بعبد الملك بن الأمير عبد القادر محي الدين وطلبوا منه القيام أيضا ، وأمدوه بالمال وواعدوه بالسلاح . فاتصل بالشيخ رضي الله عنه وطلب منه المعونة والمساعدة . فأجابه الى ذلك ، وأمر ابن أخيه أن يذهب اليه ويتفقا معا على الأمر . فاستمرا على ذلك مدة الى أن هيئا شئون الخروج ، وخرجا معا . ووقعت لهما قضايا غريبة وألقى القبض عليهما بقبيلة أنجره . وصارت فرنسا ترسل إلى بعض زعماء القبائل الجبلية وتعده بأموال تطيرلها الباب أمثاله ان هو سلم اليها المذكورين ، وكتب له الشيخ يأمره باطلاق سراحهما . وأرسل الى بعض أهل القبائل الغمارية فنزلوا وتدخلوا فى القضية ، وسلم الله أمر الرجلين بعد أن كانا بين مخالب الموت .

ووصلا إلى بعض قبائل الحدود الفرنسية المغربية . وقاما بالدعوة إلى الجهاد وشرعا فيه مدة الحرب بتمامها الى أن وقعت الهدنة . واستشهد ابن أخى الشيخ المذكور .

ولما شرعا فى القتال عزم الشيخ على السفر من طنجة الى غمارة . وكان والده قد توفى قبل ذلك بنحو سنتين أو ثلاث . وبقى أمر الميراث بين العائلة الكبيرة موقوفا على حضوره . فأراد إنهاء مسألته مع النظر فى بعض مصالح تلك القبائل وامكان اتصالها بمساعدة المحاربين .

فلما علم الفرنسيون بذلك أرسلوا يطلبون منه التأخر عن السفر لمناسبة الحال الحاضرة خوفا ان يلتحق بالمحاربين ويقع الاجتماع المظيم لاقبال الخلق عليه . فامتنع من التأخر ، وأصر على السفر . فالتجأوا الى القوة وفرقوا البوليس فى ضواحى المدينة وأحدثوا لهم مواضع خاصة لم تكن من قبل

جعلوها على جميع الطرق المؤدية الى جهة تطوان لـكونها طريق غمارة وعرفوا الشيخ بأنهم سيستعملون القوة ان خرج بغـير إذنهم ، فأصر على المخالفـة لأمرهم وتنفيذ ما أراد . فصار الفقراء يشترون السلاح ويعدون العدة ليوم خروج الشيخ حتى يقابلوا البوليس بالقوة ان تعرضوا للشيخ .

فلما رأى الفرنسيون تفاحش الأمر أرسلوا من الرباط الوزير عبد القادر ابن غبريط . وكان له معرفة بالشيخ أيام إقامته بطنجة ليـكلمه فى التأخر عن السفر ويستميله الى فرنسا والرضوخ لهـا ويعـده ويمنيه بكل ما يريده ، فلم ينجح فيـه شيء من ذلك ، والحالة كل يوم تزداد خطورة ، وصارت تحصل قضايا وحوادث يصطدم فيها الفقراء مع البوليس والشرط وأعوان الحـكومة بمـا يطول شرحه .

ثم لمـا لم يجدوا بدا من مساعدته أرسلوا اليه يقولون : ان أمرك قد رفع إلى السلطان . ولم يبق لحـكام طنجة فيه تدخل سوى تنفيذ أمر السلطان ، وأثناء ذلك ورد عليه مكتوب من الوزير محمد الجباص . قال فيه :

وبعد : فقد بلغ لجناب المخزن أعزه الله أنـكم تريدون السفر من هنا كم لقضاء بعض أغراضكم الشخصية بهاتيكم القبائل الجبلية . وهذا أمر لا بأس به . لو كان فى غير هذه الظروف الوقتية حيث إن الانسان لا يخلو من أعداء كما أنه لا يخلو من أصدقاء . فكما أن أصدقاءه يلاحظون حركاته بعين الصفاء والاحترام فـكذلك أعـداؤه يراقبون أعماله وينسبون اليه ما لم يكن له به إلمام ، على أن المخزن والحمد لله يعتقد فيكم الخير والصلاح ويبرى جانبكم من الخوض فى هـذه الأعراض الدنيوية الخائدة عن مهيع الفلاح لمـا يبلغه عنـكم دائمـا من إرشـاد الخليقة والاعراض عما سوى الاشتغال بوحدة الحقيقة ، ولذلك لم يرتض المخزن الشريف تحركـكم فى هذه الظروف الحاضرة ، ويختار سكونكم بمحلـكم لمـا فيه من مصالحـكم الظاهرة والباطنة ريثما تنقشع هـذه

السحابة الصيفية التى لا تمكث طويلا ، ولا تستلزم من الصبر الا قليلا .
وحينئذ تتمكنون من السفر معززين بالأوامر المخزنية ، معتمدين على الله سبحانه وعليها فى قضاء أغراضكم حاضرة وبادية .

وأما الآن فلا يخفاكم ما يترتب على ذلك من القيل والقال ، وما يمكن أن ينسب لكم مما يعلم جانب المخزن انكم برآء منه . بل لا يخطر لكم ببال كما لا يخفاكم ما هو وارد شرعاً فى الحث على السكينة ، والمحافظة على تعميم الراحة بكل ما أمكن . نعم إن كانت لكم أسباب أوجبت عليكم السفر من ذلك الثغر المحوط فبينوها لجناب المخزن بمزيد ثقة وجميل اعتقاد ، إما رأساً . وإما بواسطة النائب المخزنى لينظر فيها وتجابون عنها بما يرضيكم ويسركم بحول الله .

هذا وقد أبلغنا لجنابكم المحترم أوامر مولانا الشريفة . راجين ورود جوابكم بما يحقق لمولانا أيده الله ما أديناه فى جنابكم من الشهادة بما نعلمه من صلاح أحوالكم وصفاء طويتكم وحسن مساعيكم الخيرية ، محتسبين على الله ثوابها الجسيم فى دار النعيم ، وعلى ما تعهدونه من المحبة الأكيدة ، والسلام . فى عشرى رجب الحرام عام ثلاثة وثلاثين وثلاثمائة وألف . فأجابه الشيخ وذكر له أسباب سفره التى أشرنا اليها . فورد عليه كتاب الاذن بالسفر ، وهم إنما فعلوا ذلك سترا للحالة ، لئلا يخرج الشيخ قهرا عنهم وتسقط منزلتهم بين الناس . ونص الكتاب : محبنا الأعز الأرضى الشريف الأجل الفقيه المرشد البركة « سيدى محمد بن الصديق » رعاكم الله ، وسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته . عن خير مولانا نصره الله .

وبعد : وصلنا جوابكم عما كتبناه لكم عن الأمر الشريف ، أسماه الله فى شأن تأخركم عن السفر من طنجة . مراعاة لهذه الظروف الحاضرة . وعلمنا ما أبديتموه من الأسباب الموجبة لسفركم . وأنهيناها لمولانا أيده الله . واستعطفنا جنابه الشريف فى إجابتكم لمطلبكم لما نعلمه فيكم من الصدق

فى القول والعمل ، وكون مثلكم يتحاشى عن التلبس بما توهم فى جنابكم

وقد قبل مولانا أيده الله أعذارك وساعدك أعزه الله على السفر لقضاء وطركم ، فتوجهوا على بركة الله مصحوبين بالسلامة والعافية . ولا نحتاج الى تنبيه جنابكم على استعمال ما يمكنكم فى تسكين الروع بهاتيك الجهة الجبلية ، وحض الناس على لزوم الطاعة والطمأنينة ، ووعظهم بما ورد فى السنة فيمن يوقظ نار الفتن عسى الله أن يهديهم على يدكم المباركة لما فيه من صلاحهم وصلاح بلادهم ، ولأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس وعلى المحبة والسلام فى تاسع شعبان سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وألف .

فسافر الشيخ إلى غمارة ، ومكث بها ثمانية أشهر ، عالج فيها القضية بعد أن اجتمعت اليه تلك القبائل . وكان زعماؤها يردون عليه كل يوم ، فعرف أن الخرق قد اتسع على الراقع ، وأنه لا مرد لقضاء الله . فرجع ونزل معه نحو الف وستمائة رجل الى ناحية تطوان لينهى لهم القضية مع حكام الأسبان فقابل المندوب السامى وكلمه فى شأن مصالح تلك البلاد ، ثم خرج راجعا الى طنجة عن طريق القبيلة الانجرية .

ولما كان بها واجتمع اليه أهلها خاف من ذلك بعض من كان متصدرا للزعامة ، طامعا فى نيل المملكة ، فدس اليه من يقتله ، وهما رجلان من أهل القبيلة العروسية ، فافتضحا وألقى الفقراء القبض على أحدهما . وهرب الآخر . وأمر الشيخ بالعفو عن المقبوض فأطلق سراحه . ثم دخل الشيخ الى طنجة ، وبعد الاستراحة شرع فى قراءة صحيح البخارى ، وصار يتعرض للجهاد والحث عليه ويذكر فرنسا فيسبها ويدعو عليها بالهلاك والدمار ، والحكام حاضرون فى درسه ، وكل ما يقوله يصل الى الفرنسيين بواسطة جواسيسهم فيحاولون منعه من ذلك ، فلا يجدون اليه سبيلا ، ثم كثر الخلاف والنزاع

والمناوشات بين الفقراء اصحاب الشيخ وبين الحكومة وأعوانها ، وحصلت قضايا متعددة عارض فيها الفقراء إرادة فرنسا وحكامها . فانتصروا عليها . وكانوا دائما يحصلون مقصودهم بفوات مقصود الحكومة وإرادتها وكان ينتصر لفرنسا ، ويبالغ فى إرضائها حاكم طنجة إذ ذاك عبد السلام بن عبد الصادق . فلما طال الأمر وكثر الخلاف أراد أن يظهر النصح التام ، ويقدم الخدمة الجليلة ليتوصل فى نظره الى مرتبة أعلا مما هو فيه . وكان يطمع فى ترقيته إلى نائب السلطان ، فصادف أن وقعت قضية لبعض الاشراف الكتانيين المنتمين الى الشيخ رضى الله عنه مع قاضى طنجة وقتئذ الفقيه علال الهرابلى الفاسى . ولطمه فى محكمته ، فألقى الحاكم المذكور القبض على الشريف الكتانى ، وتوهم أن الفقراء سيتعرضون له فى شأنه فأوحى اليه ظلمه وبغضه للشيخ والفقراء أن يعاجلهم بمكيدة ظن أنها ستنفعه فى تشتيت شملهم وتمكن فرنسا من نفيهم وتشريدهم . فأرسل الى جميع أعيان البلد ، ولم يغادر منهم أحداً . فلما اجتمعوا بمسجد القصبة القريب من المحكمة أخرج لهم عريضة ، يريد تقديمها للسلطان ، ضمنها شكاية أهل البلد بالشيخ والفقراء ، ونسبوا اليهم عدة مضرات واعتداءآت وتشويشات للأمن والراحة ، وطلب من الجميع أن يوافقوا عليها بانزال خطوطهم فى العريضة ، ووافق ذلك هوى فى نفوسهم ، فكانوا أطوع له من بنانه .

ثم وجه الكتاب المذكور إلى السلطان وبقى فى انتظار ورود النتيجة فلم يظهر ما يمس جانب الشيخ والفقراء بكلمة واحدة ولكن ظهرت النتيجة فى القائد وأهل طنجة . فعاجلهم الله بعقوبته وسلبهم ما كانوا فيه من العز والجاه ، وسلط عليهم الذل والمهانة والفقر والاضطرار والحاجة ، وسقطوا من عين الناس ومن عين فرنسا التى أرادوا إرضاءها بفعلتهم الشنيعة .

وأما القائد المذكور فأوقعه الله فى نفس الحفرة التى حفرها لينفى الشيخ

والفقراء . فأخرج من بلده ووطنه عقب ذلك بقليل وصار متغربا فى نواحى الدار البيضاء ، وخربت أملاكه بطنجة ، وانقرض منها ذكره وشتت شمله . وجمع الله شمل الشيخ والفقراء ، ولم يصب أحـد منهم بسوء ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

ولما صدرت هـذه الفعلة الشنيعة من أهل طنجة دخل الشيخ رضى الله عنه داره ولزم بيته ، وقطع التدريس والخروج الى الزاوية ، وقال كانت على ظهرنا أحمال وأثقال لأهل طنجة ، والآن قد أنزلناها واسترحنا من ثقلها .

وقال أيضاً : كنا نريد لأهل طنجة العز والرفعة بين الناس فأبوا الا الذل والمهانة فليفعلوا ماشاءوا . وبقى فى بيته من سنة سبع وثلاثين إلى أن توفاه الله تعالى سنة أربع وخمسين لم يخرج فيها إلا مرات معدودة .

منها : سـفره الى القاهرة سنة خمس وأربعين لحضور مؤتمر الخـلافة إذ استدعاه المصريون ، وألحوا عليـه فى الحضور بمكاتب متعددة . فرأى أن إجابة دعوتهم واجبـة لوجوب نصب الخليفة . وكان يرجو حصـول فائدة للاسلام من ذلك الاجتماع .

فلما حضر المؤتمر وجـد القوم يلعبون ويمزحون ووجد المؤتمر عبارة عن إلقـاء الخطب ، والتشدق بمـا يظهر لـكل واحـد مزيته فى الخطابة ، والتفصح مع ضعف الرأى ، وعـدم التمسك بالشريعة فى الأقوال والأعمال ، فترك الحضور معهم قبل أن ينتهى المؤتمر ، وأقبل على شأنه من زيارة ضرائح أهل الله وشراء الـكتب .

ثم توجه إلى الشام لزيارة بيت المقدس ، وإبراهيم الخليـل عليه الصلاة والسلام . ثم منه إلى زيارة شيخه سيدى محمد بن جعفر الـكتانى الذى كان وقتئذ مقيما ببيروت عقب خروجـه من دمشق لوجـود فتنة الدروز مع فرنسا فزاره .

ثم رجع من طريق البحر على الأسكندرية ، لزيارة ضريح أبى العباس المرسى رضى الله عنه .

ثم رجع إلى القاهرة وشد منها الرحلة الى دسوق لزيارة سيدى إبراهيم الدسوقى . وإلى طنطا لزيارة سيدى أحمد البدوى رضى الله عنهما .

ثم رجع إلى طنجة بعد أن غاب فى هذه السفرة ثلاثة أشهر ، ولزم بيته أيضا ، فكانت وفود الزوار تتوارد عليه من كل ناحية كما هى العادة ، بل زاد الأمر وعظم بانقطاعه عن الخروج . فكان يعمر معهم أوقاته بالمذاكرة بأنواع العلوم والمعارف مع القيام بحقوق المسلمين وقضاء حوائجهم .

بالتوسط والشفاعات عند حكام الدولتين الفرنسية والأسبانية فى المنطقتين السلطانية والخليفية . وذلك بالمراسلة تارة مع بعض أصحابه وأحيانا بالمكاتبة فتقضى المآرب وتقبل الشفاعة مع شدة العداوة له من الجهتين ، والله تعالى غالب على أمره .

البـــــاب الرابع

فى وصف حالته العلمية ومواهبه الفتحية وما يتعلق بذلك

كان الشيخ رضى الله عنه إماماً فى سائر العـلوم محققاً للمنطوق منها والمفهوم حافظا متقنا . واسع الاطلاع . مديد الباع . قوى الحجة والمعارضة فصيحاً فطنا ذكياً غاية فى الاستحضار ، بل آية وأعجوبة من عجائب الدهر فيه ما رأيت من علماء عصره بالمغرب والحجاز ، ومصر والشام من يدانيه فى ذلك ، إلا شيخنا الامام سـيدى محمد بن جعفر الـكتانى فى التراجم فى تراجم الأولياء ومناقبهم خاصة . وشيخنا الامام أبا عبد الله محمد بخيت فى مسائل الفقه والمعقول خاصة .

وأما الشيخ رضى الله عنه فـكان شأنه فى الاستحضار عجبا يبهر العقول بحيث كانت مجالسه العادية على الدوام كأنهـا دروس كبار العلماء الحفاظ ، الذين يتعبون فى جمع ما يلقون فيها فى الساعات المتعددة . بل ما رأيت درساً جامعاً لغرائب العلوم ونوادر الأخبار ونفائس الفوائد كمجالسه الدائمة مع ضيوفه وزواره وأصحابه حضراً وسفراً فى داره ودار غـيره اذا دعى لهـا أوخرج لبستان فىفسحة ونزهة ، فانمجالسه معطولها لم يكن يذكرفيها الدنيا وأخبارها ، ولايتعرض لزيد ولاعمرو . بل كانت مذاكرة علمية والحاضرون كلهم سكوت كأنما على رؤوسهم الطيريستمعون إلاإذاسأل سائل عن مسألة أو استفهم عنها . وما كان يتعرض لذلك إلا القليل من جلاسه الذين لهم جرأة على الـكلام معه . وكانت مجالسه تطول علىهذه الحالة الساعات الطويلة وربما استمر مجلسه من بعد العصر إلى مابعد العشاء بساعة وساعتين لايقوم فيها إلا للصلاة ثم يعود للمذاكرة وربما جلس من بعد الفطور إلى صلاة الظهر ، لا سيما مع الضيوف من أهل فاس وسلا وأضرابهم الراغبين فى سماع

العلوم والمعارف . وكان المرء يسمع منه فى المجلس الواحد من غرائب العلوم ونوادر الأخبار والنقول مالا يهتدى اليه بعد البحث الطويل . والاطلاع الشديد إلا فى الأزمنة المتطاولة .

وقد وصف مجلسه بعض أهل العلم ، فقال :

ومن أكبر شيوخنا وأفضلهم . العارف الأكبر ، والكبريت الأحمر . مرشد السالكين ومربى المريدين . الدال على الله بالأقوال والافعال . الناهج بأحواله منهج الكمال . مأوى الضعفاء ومعينهم ، ومرشد الاقوياء ومقويهم منبع المعارف والاسرار ، وملجأ الذاكرين آناء الليل وأطراف النهار . من اذا تكلم كفى . واذا صاحب صفا . وإذا عاهد وفى . واذاقدر عفا .

الشبيه فى أخلاقه بجده المصطفى صلى الله عليه وسلم . بحر المعارف والعلوم ومبدى الضياء من الظلام فى الفهوم . الجامع بين المعقول والمنقول . الفانى فى محبة الرسول الشريف المنيف شيخنا حساً ومعنى وحبيبنا روحاً وجسما سيدى الحاج محمدا بن العارف الكامل سيدى الحاج الصديق ابن القطب المربى سيدى الحاج أحمد بن عبد المؤمن سمعنا عليه رضى الله عنه وقدس روحه علوماً جمة مذاكرة منه لنا فى جميع الفنون العلمية وأكثرها فى التصوف وحكاية الصالحين وعجائبهم فى سلوكهم الى الله تعالى وافتراق أحوالهم فى مواجيدهم وأذواقهم ، بحيث لو كنا نكتب ما نسمع منه فى جميع العلوم من المسائل مع تحقيقها والقول الفصل فيها وما يتبع ذلك لجمعنا منه مجلدات ، ولكن حالنا حال الكسالى . وآفة العلم عدم التقييد ، فندمنا حيث لاينفعنا الندم اه .

ووصف مجلسه صاحب نبذة التحقيق ولم يكن ممن يجالسه إلا قليلا على انفراد ، فقال :

وكانت مجالسه قدس سره لا تخلو من الفوائد . ولا بد لمجالسه أن ينال من فيضه أبدع الصلات وأنفع العوائد إلى أن قال .

وبالجملة فتبحره في العلوم ظاهراً وباطناً مما علمه الخاص والعام وفضله وكماله مما أقر به القاصي والداني . وقد كانت ترد عليه المسائل حتى من الخارج في مذاهب أخرى فيجيب عنها .

وكتب إلى الشريف الجليل العلامة الأديب الشاعر الأثري سيدي محمد الناصر الكتاني يقول :

اتصلت بالشيخ طيب الله ثراه وأنا فتى يافع . اشرفت على العشرين ، ونزلت ضيفا عليه نحواً من شهرين . كنت أجالسه في خلالها في الصباح والمساء . وكان مجلسنا لا ينتهي حتى تمر عليه ثلاث ساعات كاملة ، وربما تجاوزتها أسائله فيتدفق في الجواب بفصاحة بالغة وأسلوب عربي متين وعلم ينم عن مادة كبيرة يستقي منها أجوبته كنت أسائله في الحديث والفقه والتصوف والتاريخ والادب والفلسفة وعلم الاجتماع والسياسة . فكان يبهرني منه استيعابه بالجواب عن المسألة التي أسأله عنها فلايترك في نفسي مكاناً فارغاً للتعقيب على السؤال اه .

والعلوم التي كانت له فيها اليد الطولى هي :

الفقه . والاصول . والكلام . والتصوف . والتفسير . والحديث . والنحو . والصرف . والمنطق . والتاريخ . والتراجم . والطب . والانساب والسياسة الشرعية . وسر الحرف . وخواص الأسماء مع المشاركة القوية في سائر العلوم .

أما الفقه : فكان يستحضر جميع فروعه الخفية والجلية ، لا سيما الفقه المالكي فانه كان نصب عينه بعجره وبجره ، وقواعد القضاء ، والدعاوى ، والقوانين التي قننها المالكية في هذا الباب ، واختص بها المغاربة من بينهم وتوسع فيها المتأخرون ، وسموها فقهاً مع أن تلك المسائل لا يحفظها ويبرع فيها إلا البزل من الفقهاء . الراغبين في الدنيا ، المخالطين للقضاء والفتوى

والشهادة الممارسين لذلك فى الأعوام الكثيرة والأزمان الطويلة . والشيخ رضى الله عنه كان أبغض شىء اليه خطة القضاء والشهادة والفتوى والتعرض لنيل الدنيا بالعلم ، ومع هذا فكان من أبرع الناس وأحفظهم لهذه الفروع حتى كانت القضاة والحكام والمفتون يفزعون اليه فى الاستفادة منه عند نزول القضايا العويصة والدعاوى المشتبكة . فكان يحرر لهم النازلة ويكتب لهم الحكم والفتوى ويدفع ذلك لبعض تلامذته وأنجاله . فيكتبه بخطه وينسبه الى نفسه فرارا من أن ينسب اليه هو رضى الله عنه شىء من ذلك . وربما أخذ الواسطة فى ذلك أموالا طائلة بغير علمه . وقل أن يوجد كتاب فى مكتبته فى الفقه المالكى والقوانين العملية التى ألحقوها بالفقه . إلا وقد طالعها وصحح أغلاطها بخطه .

وأما الأصول فكان يستحضر جميع مسائله . والخلاف بين أئمته ويرد ويقبل ويرجح ويزيف منها بحسب نظره واجتهاده . حتى ان بعض من كان يدعى أنه لايوجد بالمغرب من يتقن علم الأصول كاتقانه لما قدم الى طنجة . وزاره ذاكره فى مسألة أصولية جر البحث ذكرها . فأراد الرجل أن يغرب ويراوغ بذكر بعض الاقوال ويؤيدها . فرده الشيخ الى الصواب وأبطل دلائله . ورجع الحق بما لم يسعه معه الى الرجوع والاعتراف فكان يقول بعد مفارقة الشيخ لم أر من يفهم الاصول غيره .

وزاره مرة أشهر علماء فاس بعلم الاصول . وهو الفقيه الفضيلى . فذاكره الشيخ فى مسألة فظهر عجزه وقصوره أمام الشيخ واعترف هو بذلك .

فقال له نحن فقهاء الدرس والكراس ، فما دمنا فى الدرس حررنا المسألة واذا قمنا منه تركناها ولم يبق معنا منها شىء .

وأما الكلام فكان اليه المنتهى فى تحقيق دلائله وبراهينه مع الاطلاع التام على جميع المذاهب والنحل والاقوال ، بل كان فى بدايته شغوفا بالمناظرة

فيه انتصارا لمذهب أهل السنة وإبانة للمعتقد الحق . ولما رحل الى الحج جرت له فيه مناظرات بالحجاز ومصر والشام مع علمائها . ولما رحلت إلى القاهرة رحلتى الأولى زارنى بعض من كان يتردد الى الشيخ أيام مروره بالقاهرة فى طريق رجوعه من الحج ، وقال لى إن والدك إمام ما رأينا مثله فانى ناظرته لما كان هنا وتحققت فضله وبراعته فى علم الكلام واستفدت منه مع أن هذا الرجل من المشهورين بالجدال والمناظرات التعسفية فى علم الكلام .

وأما التفسير : فكان آية فيه ، لا يسأل عن آية أو يجرى ذكرها فى مذاكرة إلا ويبدىء فيها ويعيد ، ويذكر من معانيها مالا يستطيع ذكره إلا من كان محررا لها فى تلك الساعة من جميع التفاسير . ولما فتح قراءة التفسير أملى فى الكلام على الفاتحة إلى قوله تعالى «إياك نعبد وإياك نستعين» مجالس طول شهر رمضان من بعد العصر الى قبيل المغرب بقليل . وحدثنى الفقير الصوفى أحمد الحناط قال حضرت مع الشيخ مرة بتطوان فى بعض المجالس الحافلة بالزوار فتكلم على قوله تعالى والذى قدر فهدى فأتى فيها بما بهر عقول الحاضرين من علماء وعوام وأدخل فيها مالم يخطر لأحد ببال

وأما الحديث فكان حافظا لمتونه مديم النظر فيه والاشتغال بفنونه وكتبه لاسيما فتح البارى فانه يستحضر جميع مسائله

وأما التصوف فهو علمه ومن صدره تتفجر منابعه وعيونه سواء تصوف الارشاد والعمل والسلوك وتصوف العلم بالله وأهل الفناء فى وحدة الوجود الا أنه كان إلى القسم الاول أميل لأن عنايته كانت بالعمل والتخلق أكثر وكان لايتكلم فى الثانى إلا نادرا مع أهله لاسيما فى بدايته وأوائل أمره فانه كان غيوراً على نشر الحقائق شديد التكتم لها كما كان أستاذه سيدى محمد بن ابراهيم رضى الله عنه .

وأما النحو والصرف فكان يتقنهما اتقان من لم يعرف غيرهما وكانت دروسه فى الخلاصة بشرحى المكودى وابن هشام من أعجب الدروس

وأمتعها فى هذا الفن بل كان يحبه على الخصوص ويتعشقه ويحث على قراءته والتضلع منه كثيراً ويقول إنه مفتاح فهم العلوم لاسيما البلاغة والأصول

وأما المنطق فكان يتقنه غاية واقتنى كثيراً من كتبه ودرسه بتوسع واطلاع وتحقيق وبحث لم ير الطلبة مثله

وأما التاريخ والتراجم فشأنه فيهما أعجب وأغرب من كل ماسبق فانه لايكاد يذكر دولة من ظهور الاسلام إلى عصره إلا ويحدثك عنها حديث من حضرها وكان واحداً من أعيانها ورجال دولتها لاسيما دول المغرب والأندلس وكذلك تراجم العلماء والشيوخ والأولياء ووقائعهم فى سلوكهم وتربيتهم وأخبارهم مع تلامذتهم وما إلى ذلك مع ضم الأشباه والنظائر فاذا اقتضى الحال فى موعظة أو مذاكرة الاستشهاد بواقعة وحكاية يضم إليها أمثالها مما وقع لشيوخ كثيرين من مشارقة ومغاربة فى عصور متقدمة ومتأخرة كأنه كان يبحث عن ذلك ويجمعه منذ أزمان طويلة فيقول مثلا وقع للجنيد أو الشبلى مع فلان كذا ومثله وقع للرفاعى أوالجيلانى مع فلان وكذلك للمتبولى مع مع الخواص وللبكرى مع ابنه وسيدى يوسف الفاسى مع أخيه أوصاحبه فلان وهكذا يسرد الأشباه والنظائر من الحكايات والوقائع التاريخية فى كل مناسبة حتى أن بعضهم يرد عليه يستشيره فى أمر فيشير عليه بما فيه رشده ويزوده فى ذلك بحكايات ووقائع للمتقدمين فى نفس المسألة

وأما السياسة الشرعية ومعرفة الطرق والوسائل التى تقوم بها مصالح الدولة وينبنى عليها أساس العمران ونماؤه وترقية الأمة إلى مصاف الدول العظام وكيفية استثمار الأموال بالوجه الشرعى المباح الذى لاظلم فيه ولاجور على أحد من الرعية وكيفية حفظ البلاد وحراستها ومعاملة الدول الأجنبية بما لامخالفة للشرع فيه ونحو هذا فكان إذا تكلم فيه تخال أنه لايفكر دائما إلا فيه ولا يشتغل بغيره كأنه أحد كبار الوزراء القائمين باعباء الدولة ومصالح المملكة مع مراعاة الحال الحاضرة وتغير الوقت وتبدل الأطوار حتى كان إذا اجتمع

به أهل السياسة ومكاتبو الجرائد يرون منه مالم يخطر لهم على بال ويتعجبون منه غاية العجب لكونه من علماء الدين وشيوخ التصوف المقبلين على علوم الآخرة والمعرضين عن علوم الدنيا لاسيما وهو لايقرأ الجرائد أصلا بل ويحذر من قراءتها ويستهجن إضاعة الوقت فى الاشتغال بها ولما ظهر بعضهم بالزعامة بفاس وشاع خبره قدم إليه بعض المشتغلين بالسياسة ممن كان مقيما بالبلاد التركية ليكون معيناً له وناصراً ومؤيداً فلما اجتمع به خاب أمله ورأى خلاف ما كان يؤمل ويسمع ثم توجه من فاس إلى طنجة فزار الشيخ وتذاكر معه فى فنه فبهر عقله وقال هذا هو الزعيم على الحقيقة وهكذا يجب أن يكون الزعماء أما الفاسى الذى شددت الرحلة إليه خصوصاً فانى لما جلست أتفاهم معه فى القضية صار ينام ويتركنى فعلمت أنه غير زعيم ولامخلص فى قضية وطنه

وأما الطب فما رأيت عالماً يشاركه فيه بل أعرضوا عنه اتكالا على أطباء الفرنج والمتخرجين على يدهم فيه أما الشيخ فكان شأنه فيه شأن مهرة أطباء العرب الأقدمين بحيث يداوى المريض على الوصف من بعيد بل من مدن أخرى ولا يحصى كم مريض حكم أطباء الافرنج بموته وعدم إمكان علاجه فشفاه الله على يده وبأدويته التى كان يصفها للناس وقد وقفت على بعض مكاتبه لأصحابه فى العلاج أحببت إيراد بعضها ليعرف منها حقيقة الأمر مع الاستفادة .

فمن تلك قوله فى كتاب : والرجل الذى أصابه فى جنبه الأيسر ما أصابه أمره صعب فى الجملة فان الجنب الأيسر علاجه يصعب كثيراً ولكن مره أن يدهن جنبه المذكور بزيت الرند عند النوم ويدلكه دلكا جيداً وعلى رأس كل ثلاثة أيام يدخل الحمام فيمكث فيه نحو ساعة فانه يعافى إن شاء الله تعالى ولاتخبره بصعوبة مرضه لئلا تتغير طبيعته فيزداد مرضه اه .

ومنها أما دواء ابن عمك فليأخذ شيئاً من السمن وليجعله على النار مع مثله من الماء وليتركه حتى يذهب الماء ويبقى السمن ثم يأخذ مثله من

العسل ويزيل رغوته على نار لينة ثم يأخذ مثله من السكر الأحمر ويجعل الثلاثة على نار لينة وتحرك تحريكا جيداً حتى تنعقد وتصير ذاتا واحدة في قوام الحلواء ثم يجعلها في آنية فاذا أراد النوم أكل منها مقداراً جيداً فان نومه يرجع كما كان ويزول يبسه وتكثر رطوبته وتقل عنه تلك الأفكار التي تضره أن شاء الله تعالى .

ومنها وصلنا كتابك الشريف وعرفنا ما أشرت إليه مما يعتريك من البرد والعرق الخ . اعلم سيدى أن ما يعتريك مما أشرت إليه سببه ضعف قلبك لاضعف دمك كما قاله لك الطبيب فانه لم يهتد لما أصابك كما هي حالة أطباء الوقت فانهم قلما يحصلون على عين الداء اللهم الا إذا كان داء بارزاً ظاهراً وكيفما كان الحال فدواؤك قريب إن شاء الله تعالى وذلك بأن تأخذ لبن الضأن وتغليه وتجعل فيه شيئاً من السكر وشيئاً من القرنفل بعد دقه وتترك سواه كائنا ما كان إلى أن يتقوى القلب ويرجع إلى حالته وذلك لا يخفى عليك والماء إذا اضطررت اليه لابأس أن تطبخه لكن أقلل من شربه ولاتبالغ فيه أما اللبن فأكثر منه وعما قريب يظهر الأثر إن شاء الله تعالى .

ومنها اما ما كنت تستعمله من البيض فاستعمله وأما الامهال فلا تتهول منه فانه جيد والقرنفل قلل منه وكثر من اللبن وإن أمكنك أن تستعمل معجون العسل بالحبة السوداء فهو جيد للغاية ولومرة في اليوم والنفخ الذى يبطنك سببه رطوبة الأمعاء مع ريح منحبس فيها واعلى ما تزال به تلك الرطوبة معجون العسل الذى ذكرناه فاستعمله ولابد وأضف إليه شيئاً من الأدوية المعنوية كالتصدق كل يوم ولو برغيف وقراءة حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبعا صباحا ومثلها مساء فلا ترى بأساً إن شاء الله تعالى .

ومنها واعلم أن الدوخة التي تحصل لك سببها انعقاد البخار الذى يصعد من المعدة إلى الرأس ممزوجاً برطوبة وبرد وعجز الرأس عن تحمله لضعفه

وكثرة برده ويظهر أن زوال تلك الدوخة ربما يحصل بشرب ماء الليمون ممزوجاً بشيء من السكر وقليل من الماء بعد شرب اللبن وليكن الشرب قليلا لئلا تنتشر الرطوبة الموجودة فى المعدة انتشاراً لا تقدر ذاتك عليه لرداءة كيموسها الذى هو عبارة عن الدم المستحيل عن الغذاء فاذا اعتادت الذات الليمون المذكور فلا بأس أن تزيد منه شيئاً على القدر الأول فاذا صعب عليك من أول مرة فادهن رأسك دهناً جيداً بالزيت بشرط أن يكون من الزيتون وإن كان عتيقاً فهو أحسن لكن تحفظ وقت الدهن وبعده من الريح جهدك والله هو الشافى أما الأكل فدم على الحليب وإن صعب عليك القرنفل فاتركه أسبوعا أو أسبوعين ثم عد إليه إلى أن تكمل راحتك فان اضطررت الى الأكل فكل الحريرة أو مرق الفراريج الصغار بخبز السميذ وإن وجدت لحماً من خروف صغير فلابأس أن تتناول منه مغرساً أو مغرسين بشرط أن يكون منقى من الجلود والعروق متوسط السمن وبعد أن تستعمل هذا عرفنا بما يحدث لنكون على بال ورمضان ربما لا يمكنك صومه لأن الحليب للطافته ينهضم سريعا والجوع يحدث لك منه ضرر كبير معوى وأنت تعلم أن الصوم يحرم فى هذه الحالة فاياك إياك أن تصوم واللبن أكثر من شربه ولا تمل منه ولا يخفاك أن الصدقة من الأدوية التى يسرع نفعها فبادر إليها ولو رغيفاً أو نصفه كل يوم لتجمع بين الدواءين الحسى والمعنوى

ومنها والذى أشرت إليه من النفخ يظهر لى أنه نوع من الاستسقاء غير أنه خفيف فلتشرب الماء المطفى فيه الحديد بعد احمراره جيداً بالنار وادهن بطنك من خارج بشيء من القطران فان أمكن أن تشرب لبن الابل إن وجد هناك فبادر إليه فان لم تجده فبولها فانه من أنفع الاشياء لنفخ البطن ويكفيك أنه دواء نبوى كما فى صحيح البخارى وقد عملنا نحن بذلك فى حق أقوام من الاخوان فصحوا فى الحال ومنهم من أخبره الأطباء بانه

لا يمكن علاجه الا بعد تناول دواء صعب وصفه له طول سنة كاملة فوصفنا له هذا الدواء فصح بعد ثمانية أيام .

ومنها ومن الوقت الذى جاءنى كتابك وأنا أردد النظر فيه لأستخرج منه حقيقة حالك وقد ظهر لى ظهورا بيناً أن حالك طيب غاية والحمد لله وما يصيبك إنما هو من كثرة الدم ورقته بميله إلى مائية يسيرة بسبب عدم أكلك الادام الخشن كاللحم والزيت وخبز البرو من رقته يصيبك ما يصيبك من البرد الشديد عند شرب المرق وأكل الخبز والحريرة لان ما به من الماء يريد ان ينتشر فى الشرايين العصبية وهذه الأمور تقاومه وترده لمحله فيحصل لك ذلك ودواؤه إن شاءالله تعالى يكون بدوام أكل اللوز والسحتر مع السكر وقليل من السمن الذى مر عليه العام أو أكثر إما وحده وإما بخبز يسير مع المداومة على شرب اللبن بالقرنقل الى أن ترجع الطبيعة لمركزها الأول القابل لجميع المأكولات ونرجو الله أن يكون ذلك سريعاً بحول الله .

ومنها والذى أصابك من الوجع الشديد الذى أقعدك فى الفراش ومنعك من الحركة الخ خفيف للغاية وسببه برودة مختفية فى المعدة جاءتها من صلابة الكلى ووصلت الى الاعصاب فوقف دمها عن سيره الطبيعى وبسبب ذلك قل العرق ودواء ذلك يحصل إن شاء الله تعالى باستعمال ماء الرند الحار والجلوس فيه فى الحمام المرة بعد الاخرى مع شرب ماء البيبنوج حاراً عند النوم وإدخال شيء من بخاره إلى الحلق وبعد حصول الراحة خذ أوقية من المصطكى واجعل عليها مقدار خمس حفنات من الماء واجعلها على نار الفحم الخالصة من الدخان واتركها حتى ينقضى نصف الماء ثم صفه واجعل عليه عسلا منزوع الرغوة واجعله على النار واتركه حتى يصير فى قوام الأشربة ثم أنزله واجعله فى زجاجة وخذ عند كل صباح قدر أوقية واجعل عليها قدر حفنة من الماء واشرب ذلك على الريق فانك تعافى من جميع أمراض المعدة بحول الله تعالى .

ومنها والمصابة بالحمى كلفها أن تخضب أطرافها اليدين والرجلين والرأس بالحناء الممزوجة بشيء من الزعفران مع شرب شيء من الليمون الممزوج بماء الورد وقليل من السكر ولتتبخر صباحاً ومساء بشمع العسل حتى يصل ريحه إلى جوفها فانها تعافى إن شاء الله تعالى فان بقيت بها فعرفنا ولابد لنصف لها دواء آخر حتى يحصل الشفاء بحول الله تعالى

قلت ومن عجيب شأنه فى المداواة أنه كما ترى لايصف فى أدويته عشبا غريباً نادر الوجود كما تجده فى أدوية القانون وكامل الصناعة وشرح الأسباب والعلامات والتذكرة وغيرها بل لايصف إلا ماهو متيسر متناول يسهل الحصول عليه المريض أينما كان وكان يرى سلوك هذه الطريق فى المعالجة من الواجب المتعين على أطباء الوقت ويستقبح الاتكال على الأدوية المركبة المجلوبة من بلاد الفرنج لأنه بانقطاعها ينقطع العلاج والمداواة لعجز الطبيب عن معرفة غيره ولذلك لما توجه إلى القاهرة لحضور مؤتمر الخلافة ذهب لمدرسة الطب الكبرى الموجودة بالقصر العينى لظنه أنه يدرس بها الطب على الطريقة الجامعة بين القديم والجديد وأنه يوجد بالمدرسة بستان فيه النباتات والأعشاب وأن المدرس يعرف الطلبة بكل نبات وخاصيته ومنافعه حسبما فهم من كلام الشريف العلمى صاحب ضياء النبراس فلما دخل إليها لم يجد شيئا من ذلك ووجدهم يدرسون على الطريقة الفرنجية والمدرسون أغلبهم افرنج لايدرسون باللغة العربية فاستنكر ذلك لأنه لايفيد فى معرفة الطبائع والأدواء وأسباب الأمراض ولا مايخص كل طبيعة من العلاج وانما هى أمور ظاهرة غير محققة ولا محررة ولذلك يقل النفع والعلاج بمداواة غالب أطباء الفرنج أضف إلى ذلك أنهم لايعتمدون الا على المركبات والمواد الكيماوية المجلوبة من الخارج ولا يعتمدون على نباتات البلاد ومعادنها ومنتوجاتها فلو فقدت تلك المجلوبات أو كان الطبيب بأرض لاتوجد فيها لعدم النفع به ولكان هو كآحاد الناس إلا فى الشيء التافه الذى لايذكر

فصـــــل

وأما الانساب فكان إليه المرجع فيها بتلك الأقطار حتى كان يخبر أناساً بنسبهم وكونهم من أهل البيت من غير أن يكون عندهم علم بذلك

وكانت له المشاركة القوية فى غير هـذه العلوم بل كان لفرط ذكائه وقوة جنانه وسرعة إدراكه لايكاد يتوجه إلى فن من الفنون الا ويطلع على حقيقته وقد طلب من الفقيه السيد احمدبو زيد الانجرى وهو من تلامذته فى الطريق أن يأخذ عنه علم الفلك فاعتذر الرجل وامتنع أدبا مع الشيخ فقـال لابد أن نسلك سنةالله المتبعة فى التعليم وذكر له أن جده العارف الـكبيرسيدى احمد ابن عبد المؤمن أخذ هذا العلم على كـبر عن تلميذه فى الطريق الفقيه مفرج فلما لم يجد بداً من إجابة طلبه عين له الـكتاب وضرب الميعـاد للرجوع إلى قراءته فلما حضر وشرع فى القراءة مع الشيخ وافتتح الـكلام فى الموضوع فاجأه الشيخ بمسـائل وقواعد غريبة فى الفن فطوى الفقيه الـكتاب وقبـل يد الشيخ وقال له والله ياسيدى إنك لأعلم منى بهذا الفن ودخلت اليـه يوما بطوالع الملوك وفيها أسماء بعض زعماء مصر وبجانبها أرقام فأول مانظر فيها قال لى ان الشيخ محمودا الفلـكى يقول فى حق سعد زغلول إنهسيموت فى هذا العام حتما فلم تمض إلا شهران أو ثلاثة حتى ورد الخبر بوفاته ،وقضاياه فى علم الجـدول والتصرف بالأوفاق وسر الحرف كثيرة أضربنا عنها صفحا وقـد ذكرنا جملة منها فى الأصل

وأما دروسه فكانت روضة من رياض الجنة آية فى الابهة والرونق والجمال فما شئت من إملاء وحفظ وترتيل وفصاحة وسرعة إلقـاء لايسكت لحظة ولا يفـكر فيما يقول كأنه يقرأ فاتحة الـكتاب ولا ينطق إلا باللغة العربية الفصحى لاينطق بكلمة واحدة عامية أصلاسواء فى ذلك درس الفقه والحديث والتفسير والنحو والمنطق إلا أن درس الحـديث والتفسير يمتـاز عن غـيره

بتؤدة وأبهة وهيبة زائدة مع صيغة جميلة ونغمة مطربة يتمنى المرء لو دام
درسه اليوم بأجمعه كان يورد الحديث من الصحيح باسناده ثم يتكلم على تراجم
رجاله وأحوالهم ومقالاتهم إن كانوا من أهل الزهد والورع ومواليدهم
ووفياتهم ثم ينتقل إلى متن الحديث فيذكر طرقه ومخرجيه وألفاظه ثم يعرب
ألفاظه المشكل إعرابها ويتكلم على غريبه ومعناه والأحكام المأخوذة منه
وفقه كل مذهب فى المسألة ودليل كل قول ومايرد عليه من الاعتراضات
والأجوبة ويطبق نص مختصر خليل على الحديث إن كان موافقا له ثم يختم
باستخراج الفوائد والمسائل واذا كان فى معنى الحديث أحاديث أخرى فى
الباب أملى جميعها مخرجة معزوة ولو كانت مائة حديث فاذا قرأ حديث
سبعة يظلهم الله فى ظله أملى كل الأحاديث الواردة فى الخصال الموجبة لظل الله
يوم لاظل إلا ظله واذا قرأ حديثا فيه من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له
ماتقدم من ذنبه أملى كل الأحاديث الواردة فى غفران ماتقدم من الذنوب
وإذا قرأ حديثا فيمن يموت شهيداً أملى كل الأحاديث الواردة بذلك
وهكذا لايكاد يخلو درس من الاملاء مع فصاحة وطلاوة ونور وحلاوة
أما فى مجلس الفقه فكان يذكر النصوص الكثيرة بألفاظها فيقبل
المقبول ويرد المردود ويزيف ويرجح مع ايضاح المعنى بدون تكرار
ولا إعادة كلمة ولا توقف ولا سكوت لحظة واحدة وربما صاح
فى درس الفقه والنحو أثناء التقرير بقوله رد بالك إذا رأى من السارد نوماً
أو غفلة وربما صفق بيديه أثناء التقرير أى وضع يده على الأخرى شبه المصفق
فيسمع لها صوت خفيف لما كان يعتريه من شبه غيبة عن حسه لفرط نشوة
وطرب بلذة العلم وتقريره ولم يكن يطالع إلا قدراً قليلا مع أنه كان أواخر
تدريسه يجمع ثلاثة دروس فى مجلس واحد يمكث فيه ثلاث ساعات تقريباً
فكان يخرج للدرس قبل الظهر بساعة ونصف فيشرع فى قراءة الخلاصة بشرحى
المكودى وابن هشام ثم بعد مدة يشرع فى قراءة المختصر فاذا أذن الظهر

وفات قليلا قام وصعد الكرسى وشرع فى قراءةالصحيح لأن درس الخلاصة والمختصر كان لا يحضره إلا الطلبة ونجباء العوام ممن له رغبة فى الفقه وأما الصحيح فكان بعد الظهر تجتمع الخلائق من سائر الطبقات لسماعه فكان يصعد على الكرسى وقتئذ ليسمع الناس وكان قبل ذلك يخرج صباحاً لتدريس لامية الأفعال والمنطق معا فى درس واحد كل ذلك من حفظه وبالقائه السريع بحيث ما يلقيه فى ساعة يلقيه غيره فى عدة ساعات ويعمر به عدة مجالس .

قال فى النسمات كانت دروسه رضى الله عنه عجيبة وقراءته قراءة بحث وتحقيق وتحرير وتدقيق وتلخيص للمسائل وتحريرها مع ما ينضم إلى ذلك من الايرادات والأجوبة هذا مع ما كان عليه رضى الله عنه من عذوبة المنطق وحلاوته وبلاغة اللسان وفصاحته وحسن التأدية والتبليغ وورنق الترتيب والافهام البليغ حتى إن البليد من الطلبة كان يحوز من الفهم والادراك حظه أما حفظه وإملاؤه فكان لا يجارى فيهما ولا يبارى ويكفى برهاناً على ذلك ما كان يجمعه من الدروس المختلفة متصلا بعضها ببعض فى مجلس واحد فكان يقرأ أولا ألفية ابن مالك بشرح المكودى ولا يقتصر عليه بل يأتى بالكثير من المسائل النحوية ثم يتبعه بقراءة مختصر خليل متصلا به وهو فى مجلسه كان يقرأه بشرح الخرشى ولا يقتصر عليه بل يأتى بكلام الزرقانى وحواشيه للشيخ بنانى والرهونى وينوه بحاشيته كثيرا وربما أنشد أحياناً عقب نقله وقوله .

إذا قالت حذام فصدقوها فان القول ما قالت حذام

ثم بمجرد الفراغ منه يتبعه بقراءة صحيح البخارى لكن كان يقوم من مجلسه الأول فيصعد على الكرسى تعظيماً لحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان يحضر درسه فى الصحيح الجم الغفير من العلماء والطلبة وأعيان البلد وغيرهم حتى إن أعلا صوته لا يبلغ منتهى مجلسه لكثرة الحاضرين وكانت قراءة مدهشة للعقول آخذة بمجامع القلوب لما كان عليه رضى الله

عنه من عجيب الحفظ وغريب الاملاء والتحقيق وحسن الترتيب وبديع التنسيق وكان يملى فى الزمن القليل من الأحاديث مالا يملى غيره فى الزمن الكثير وكان عند قراءته للحديث يكسى حلة البهاء ويعلوه نور وبهجة وسناء حتى يفيض على قلوب الحاضرين ولا يمل أحد من مجلس قراءته ومذاكرته وإن طال ماطال وبالجملة فمن حضر مجالس قراءته لم يقنع بقراءة غيره وان بلغ فى العلوم والتحقيق ماعسى أن يبلغ لان علمه كان علم فتح ووهب لاعلم كسب وقراءته كانت قراءة مجتهد لا قراءة مقلد اه .

وقال صاحب النبذة وأما غيرته فى الدين فهو لا شك الفرد الأول بين المسلمين ممن لا يبارى فى ميدانه ولا يجارى قل فيه حقا هو ممن لا تأخذه فى الله لومة لائم ولا يلتفت فيه لذى سطوة لا سيما فى مجلس وعظه ودروسه إلى أن قال واذا أنعم بدرس ازدحم الناس على محلات القرب منه وغصت المحافل بهم وفتح مرة صحيح البخارى فشاهدنا كغيرنا من أماليه مايبهر العامة والخاصة وتجد الاعناق حال القراءة مشرئبة لسماع نغمات مثانيه ومثالثه بما لو قدرت على كتب ما يمليه لكان شرحا حافلا مع كون إلقائه من غير تلعثم ولا نحنحة مما تستلذه الاسماع وتصغى اليه القلوب ويغص المسجد بالحاضرين لا سيما من أهل الفضل والدين لما يسمعونه كل يوم من رقائق المواعظ وحقائق العلوم والعرفان مما يزيد الكل تحقيقا بمكانة الرجل فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر اه

فصــــــل

وكان الشيخ رضى الله عنه عاملا بالسنة وما صح لديه من الدليل من غير نظر إلى مخالفة المذهب ولا ماجرى عليه العمل امتثالا لأمر الله تعالى وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم كما هو واجب على كل مسلم موحد لاسيما فى النصف الأخير من عمره ، فانه كان يعلق بذلك ويدعو إليه ، وأمر بكثير من السنن

المهجورة فى مذهب مالك كالتعوذ والبسملة والجهر بالتأمين ورفع اليدين فى الانتقال ووضع اليمين منهما على الشمال والسلام من الصلاة مرتين مع زيادة ورحمة الله والأذان بين يدى الخطيب يوم الجمعة وغير ذلك وكان يعطر مجالسه الخاصة بذكر الاجتهاد والعمل بالسنة ، ويبدى تعجبه من المقلدة الجامدين الجهلة المعرضين عن كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ويناظر فى ذلك ويبالغ فى تقريره ، لاسيما مع كبار الفقهاء وشيوخ المقلدة وقد ناظر مرة بفاس فقيه المغرب سيدى المهدى الوزانى صاحب المعيار والحواشى المتداولة وألزمه الحجة ، لكنه عاند وأصر على الباطل وإنكار الاجتهاد ، وتحريم العمل بالكتاب والسنة ، ووقعت له مناظرة بالمدينة المنورة مع حمدان الونيسى الجزائرى فى محفل عظيم من العلماء فيهم شيخنا الامام سيدى محمد ابن جعفر الكتانى والشيخ توفيق الأيوبى الشامى والشيخ أمين سويد الدمشقى أيضا والشيخ عمر حمدان المحرسى والسيد أبوالقاسم الدباغ ومايقرب من عشرين عالما كانوا مجتمعين بضريح سيدنا حمزة رضى الله عنه وبعضهم يسرد تفسير ابن عجيبة ، فمرت مسألة انجر البحث فيها بينهم إلى مخالفة المذهب فتكلم الونيسى بكلام أراد به التنكيت على سيدى أبى القاسم الدباغ لأنه كان من المعلنين بنبذ التقليد والعمل بالسنة وظن الونيسى أنه منفرد بذلك من بين الحاضرين ، فانبرى له الشيخ رضى الله عنه وناظره مناظرة بهرت عقول الحاضرين ، ومكثوا يتحدثون بها طول عمرهم كلما جرى ذكر الشيخ رضى الله عنه حتى ذكره كل من السيد أبى القاسم الدباغ والشيخ عمر حمدان على الانفراد فى أوقات مختلفة ، قالوا : ما كنا نمثل الونيسى أمام الشيخ إلا كهر صغير بين يدى أسد عظيم ، فلما ألزمه الحجة ولم يجد من يد الشيخ مفرا . قال فى حمية وغضب للتقليد والشيطان : ماقاله الله ورسوله أضعه تحت قدمى وما قاله خليل أجعله فوق رأسى ، فقال له الشيخ الآن سقط الكلام معك ولو أخبرتنا بهذا من أول وهلة ما ناظرناك لأننا كنا نظن أنك تناظر عن جهل

بالمسألة وخطأ فى النظر والاعتقاد وحيث وصلت إلى حد الكفر والردة والعناد فلا كلام لنا مع من هذا حاله .

وحضر الشيخ مرة فى وليمة ومعه بعض الفقراء وكانوا صائمين تطوعا فلما حضر الطعام أمرهم بالافطار عملا بقوله صلى الله عليه وسلم «الصائم المتطوع أمير نفسه إن شاء صام وإن شاء أفطر» فأقام جهلة المقلدة لذلك ضجيجا على عادتهم عند رؤية العمل بالسنة وأكثروا القيل والقال انتصارا للباطل الذى يسمونه المذهب فاجتمع بهم الشيخ وألزمهم الحجة وأبان جهلهم بمذهبهم ، وهكذا كانت طريقته رضى الله عنه يعمل بالسنة ويعتمد فى مناظرته مع المقلدة على المذهب لوجود قول فيه أو قاعدة تقتضى ذلك لعلمه بأن أهل الباطل لا يرضخون إلا لباطلهم ولا يدينون إلا بشركائهم نعوذ بالله من الخذلان وكان يأمرنى إذا كتبت فى مسائل من السنة أن أنصرها بقول المقلدة حتى يمكن نشرها والعمل بها لا بالدليل من الكتاب والسنة اللذين لا يقيم لهما المقلدة وزنا ويعتقدون أن العمل بهما ضلال وبدعة نعوذ بالله من الضلال .

وسافر الشيخ مرة من طنجة إلى غمارة مسيرة ثلاثة أيام ، ولما قرب من بلده وكان يوم جمعة مر على قرية فدخلها ليحضر الجمعة ، فلما رآه الخطيب دهش وتأخر واختفى فقدم أهل القرية الشيخ للخطبة والصلاة فخطب ارتجالا وصلى بهم ثم توجه إلى بلده فشاع الخبر بين فقهاء غمارة فانقسموا قسمين قسم قال لا نعترض على الشيخ لأنه أعلم منا بالمذهب وأعرف بالسنة وقسم حكم ببطلان الصلاة ، فلما بلغه الخبر كتب يستقدمهم اليه ، فلما حضروا ناظرهم فى المسألة وعرفهم مالم يكن عندهم به علم من مذهبهم ، فاعترفوا إلا جاهلا دأبه العناد والجدال ممن طرد من القضاء وسجن على الزور وأكل أموال الناس بالباطل فانه أصر على العناد لفرط جهله إلى أن توجه إلى فاس ووقف على رسالة مؤلفة فى المسألة لشيخ الجماعة بالمغرب أبى العباس ابن الخياط ، فعند ذلك انقبع تحت جهله .

ومع هذا فان الشيخ رضى الله عنه كان يحب موافقة الفقهاء فيما يراه ويعمل به ولو خارج مذهب مالك كراهة منه للتفرد والاستقلال بالرأى لا للتوقف فى الدليل أو شبهة فى العمل به بل فرارا من دعوى الاجتهاد والظهور بما فيه فخر وتبجح وأنانية ، فكان يستتر فى جميع ما يختاره باتباع مذهب من المذاهب أو قول فقيه من الفقهاء حتى لا يجيب سائله أو يحتج على معارضه بأن هذا رأيى ومذهبى بل يقول اعتمدنا فى هذه المسألة على مذهب الشافعى أو ابن حنبل أو أبى حنيفة أو على قول فى المذهب حكاه فلان عن فلان أو نص عليه فلان فى كتاب كذا ليقطع ألسنة الجامدين فى التقليد الجاحدين لفضل الله على خلقه ، ولذلك درج أكثر الناس بل كلهم حتى أقرب الناس إليه وأشدهم ملازمة له يعتقد فيه التقليد والتمذهب بمذهب مالك وصاروا يحتجون علينا إذا دعوناهم إلى العمل بالسنة ونبذ الأقوال المخالفة لها من مذهبهم بأن الشيخ الوالد لم يكن على ذلك وأنه كان طول عمره مقلدا ناصرا للمذهب وحاشاه من ذلك ومعاذ الله أن يكون كذلك ونحن والحمد لله ما اهتدينا إلى العمل بالسنة إلا بأمره وتعليمه ولا نبذنا التقليد وراءنا ظهريا إلا باشارته وإرشاده ، ولا هدانا الله وانقذنا من بدعة التقليد إلا باتباعه والاقتداء به والاهتداء بهديه ، ولولاه لكنا من جملة المبتدعة المقلدين ، والحمد لله على فضل الله ومنته ، وإنما أوقعهم فى اعتقادهم ما ذكرناه مع كونه كان فى بداية أمره وعنفوان شبابه وأيام قوته فى تدريس المختصر ينتصر لمذهب مالك ، والراجح المشهور منه على غيره ، حتى أنه لما بلغ إلى موضع سدل اليدين فى الصلاة نصره غاية وايده اتباعا لما عند الشروح لكنه لما اتسع فى العلم وتبحر فى السنة واطلع على الحقيقة رجع عن ذلك وأمر أصحابه بوضع اليمين على الشمال وأمرنا بالتأليف فيه والانتصار له وكان هو ينتصر له فى مجالسه حتى صار بعض من كان يقرأ عليه من الطلبة قديما يعترض عليه بنفس كلامه السابق فى درس المختصر وانتصاره للسدل وما درى الجاهل أن ذلك هو أكبر دليل

على فضل الشيخ رضى الله عنه وكماله وبلوغه رتبة الاجتهاد لأنه لايتغير رأيه وتختلف أقواله إلا المجتهد الباحث عن الحق العامل بالدليل كما يوجد عن أئمة المذهب الأقوال المتعددة فى المسألة الواحدة ولا يوجد لمقلد فى مسألة قولان أبدا ولو بلغ فى العلم أعلى ما بلغ مالم يصل رتبة الاجتهاد لأن النظر فى الدليل هو الذى يوجب التغير وتبدل الرأى كلما استبان له دليل أقوى مما عنده تبعه بخلاف المقلد فانه يعمل بقول إمامه ولا يعرف حق ذلك من باطله بل هو لاعتقاده حقيته يلتزم العمل به ولا يخرج عنه والشيخ رضى الله عنه لم يكن كذلك فلذلك كانت أقواله تختلف وآراؤه تتبدل .

وكان محبا لسائر المذاهب معظما لها مصوبا لجميع الأئمة رضى الله عنهم من جهة اجتهادهم وجلالة منصبهم وعظيم مكانتهم فى العلم والدين فكان يمدح مذهب الشافعى للعمل بالحديث ويمدح كتب أهله لاعتنائهم بالدليل ويمدح مذهب مالك لكونه مذهب عالم أهل المدينة إلا أنه يذم صنيع المتأخرين من المالكية فى الاعراض عن الدليل وكثرة الاختصار المجحف وعدم بسط القول والتعليل ، ويشهد للحنفية بالبراعة فى الفقه وكثرة الفروع ودقة النظر فى استخراجها ويقول هم الفقهاء على الحقيقة إلا أنه يشهد عليهم بالتعصب المفرط الذى اختصوا به من بين أهل المذاهب ويتعجب من إفراطهم فيه غاية ويحكى عنهم نوادر فى ذلك ويمدح مذهب أحمد بن حنبل للوقوف على الوارد غالبا ، ويحب مذهب الزيدية ويعترف بفضلهم وبراعتهم فى الفقه واستنباط المسائل وذكر الدليل فى كتبهم وكان يحبها ويرغب فى الحصول عليها ويسأل عنها بتلهف . لاسيما البحر للامام المهدى والسيل الجرار ونحوهما من الكتب التى يكثر الشوكانى من النقل عنها والاحالة عليها من مؤلفاته ومؤلفات غيره .

وكان يطالع كتب سائر المذاهب كبيرها وصغيرها لاسيما الأم للشافعى وشرح المهذب للنووى وشروح المنهاج للرملى وابن حجر والخطيب والمحلى

وفتح القدير لابن الهمام وحاشية ابن عابدين على الدر المختار ، ويقول إنها بمنزلة حاشية الرهونى فى مذهب مالك بحثا وتحريرا وجمعا ، والفتاوى العالمكرية ويحبها كثيرا لجمعها للاقوال ، أما فتح القدير لابن الهمام فكان يبدى عجبه من صنيع الشارح واتقانه للدليل وايراده طرق الحديث مع الكلام عليه وكان يتمنى أن لو أطال الله عمره فأكمله على ذلك المنهاج لأنه كان لايرى لتكملته قيمة أمام أصله ، وكان يعتنى من كتب الحنابلة بكشف القناع قبل أن يطبع المغنى والفروع لابن مفلح ، فلما طبعا كان مغرما بهما على أنه إذا دعته الحاجة الى تحرير مسألة لا يدع فى مكتبته كتابا فى مذهب من المذاهب إلا ويراجعه ويعلم ما يقوله صاحبه فى المسألة إلا كتب الشيعة الامامية فانه لم يكن بمكتبته منها كتاب أصلا ولتبحره فى المذاهب ومعرفته بجميعها كان لايرى بالانتقال اليها بأسا لمن أراد ذلك وكنت فى بداية طلبى اخترت الانتقال الى مذهب الشافعى لما رأيت كتبهم تتعرض لدليل كل مسألة بخلاف كتب المالكية فانها خالية عن الدليل ، ونشأت من صغرى لاأقبل قولا إلابعد معرفة دليله فحسن لى الانتقال إليه وصار يحثنى على التضلع منه ويرشدنى إلى الكتب النفيسة فيه ويعين لى ما أقدم قراءته وما أؤخره منها ، ولما رحل إخوانى إلى القاهرة لطلب العلم اختار بعضهم الانتقال إلى مذهب أحمد بن حنبل فكتب إليه يحسن له ذلك أيضا ويحثه على إتقانه مع معرفة مذهب مالك الذى هو مذهب البلاد والمشاركة فى غيره .

ولما توجه إلى الشام لزيارة شيخنا سيدى محمد بن جعفر الكتانى رحمه الله وكنت معه . قال له يوما ان مولاى أحمد ترك مذهب مالك وانتقل الى مذهب الشافعى كأنه يريد من الشيخ أن يمنعنى من ذلك ، فقال له هو حر فى نفسه يختار من المذاهب مايشاء فسكت ، وكان عند شيخنا الكتانى رحمه الله نوع من العصبية وميل الى المذهب بل والجنسية مع أنه كان يعمل بالسنة فى كثير من المسائل لكن بشرط موافقة المذهب ولو فى بعض الاحوال

وبشرط أن تكون المسألة فى الآداب والرقائق لافى الحلال والحرام كما شافهنا به مرارا وذكره فى كتابه سلوك السبيل الواضح فى أن القبض فى الصلوات كلها مشهور وراجح مع أن الواجب سلوكه تقديم قول الله تعالى ورسوله فى ما كل ورد عنهما لا فرق بين سنن وآداب ولا بين حلال وحرام وهو فى هذه الطريقة أيضا مقلد لغيره فان المواق نقل فى سنن المهتدين عن بعض شيوخه أنه كان يقول نحن صوفيون محدثون فى الرقائق والآداب فقهاء فى الأحكام والحلال والحرام أو نحو هذه العبارة فان عهدى بها قديم ، وذلك من الغلط البين والخطأ الواضح والسلام .

وكان الشيخ رضى الله عنه محبا للكتب شديد الرغبة فى اقتنائها وتحصيلها ولو بالأثمان العالية التى يستغرب من دفعها فى مثل ما دفعت فيه ولو لم يكن ذلك الثمن متيسرا لديه ، بل كان يستدين أو يبيع شيئا من اللوازم الضرورية ليشترى ما احتاجه من الكتب ، بل قلما يعرض عليه كتاب فيوجد عنده ثمنه الا اشتراه خصوصا فى أواخر عمره حيث كان لا يمسك عنده شيئا من الدنيا أصلا ومع ذلك فكان لا يفوت كتابا يمكنه الحصول عليه ووقع له فى الحصول على الكتب وشرائها نوادر وحكايات يطول شرحها ، وقد ذكرنا جملة منها فى الأصل وكان إذا اشترى كتابا لا يكاد يضعه فى خزانته حتى يستوعبه جميعه أو أهم مقاصده على الأقل وكان لا يقتنى كتب العصريين المتفرنجين المتشبهين بعلوم الفرنج ولا يقرأها وكذلك الجرائد بل كان ينهى عن قراءتها وإضاعة الوقت فيها ويقول ما ضل العالم وانتشرت الأخلاق الفاسدة ومعتقدات المبتدعة والمتفرنجة فيه إلا بواسطة الجرائد فهى والمدارس الافرنجية العامل الوحيد فى إفساد المسلمين وحدثنى بعض أصحابه أنه سمعه بأخرة يقول

لو كنت أكتب لألفت كتابا فى ذم الجرائد والتحذير من قراءتها تأليفاً جيداً أسميه الضرب بالحدائد لقراء الجرائد .

قلت ولعل الله يوفقنى للنيابة عنه فيه كما نبت عنه فى غيره والحمد لله فان الشيخ رضى الله عنه لشدة نفوره من الظهور وما فيه رائحة فخر وتبجح لم يؤلف كتاباً مع أنه لو تصدى للتأليف لكان أسهل عليه من جميع اهل عصره لكثرة حفظه وسعة اطلاعه وشدة استحضاره بحيث يمكنه املاء الكراسة والكراستين فى المسألة الواحدة ومتعلقاتها بدون مراجعة كتاب كما كان على ذلك فى مجالس مذاكراته ويجيب به فى مكاتبه لمن كتب إليه .

وقد قال له مرة بعض أصحابه لم لا تؤلف يا سيدى ، فقال له لم يبق شىء تحتاجه الأمة إلا وقد ألف فيه من قبلنا فما علينا الآن إلا أن نشتغل ونقرأ ونعمل بما كتبوه وحققوه .

وسمعته مرة يقول كنت ألفت كتاباً فى العبادة فى مجلد ثم أحرقته .

وذكر العبادى فيما جمعه من ترجمة الشيخ رضى الله عنه قال تحلى مجلسه الشريف يوما بذكر تآليف نجله مولانا أحمد فقلت له يا سيدى إنه ينوب عنكم فى التأليف ، فقال وهو كذلك إن شاء الله فقد سئل القطب أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه عن عدم كتابته ، فقال كتبى أصحابى ، ثم قال رضى الله عنه : وقد كنت مولعاً بالكتابة قبل هذا ، ثم رأيت الوقت لا يساعد فتركت ذلك وأحرقت بعضها ، وكنت ألفت كتاباً فى السيرة النبوية أيام الشبيبة حينما كنت أدرس الهمزية مع الطلبة بغمارة وأظنه لايزال عند بعضهم إلا أن فيه أحاديث موضوعة كنت قلدت فيها بعض المتأخرين كالصبان ، ثم بعد ذلك اتضح لى أنها موضوعة . قال العبادى وله خطب السنة كلها ورسائل فى الطريق نحن على غاية الجد فى جمعها ، وله رسالة النور اللائح فى تكفير

الذنوب والقبائح ألفها بسبب خطبة خطبها ذكر فيها صلاة التسبيح وأحكامها وفضلها فطلب منه بعض أعيان شرفاء وزان كتابة ما سمعه منه فكتب له تلك الرسالة فى صلاة التسبيح وضم إليها غيرها من المكفرات هـ .

قلت وقد عثرت على بعض المكاتب التى أجاب فيها أصحابها عن أسئلة قدموها له أذكرها لتتميم الفائدة .

منها وأمامسألة الجهة التى ذكرها فى الغنية شيخ العارفين وقطب الكاملين من ليس له فى مقامه ثانى سيدنا ومولانا عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه وأمدنا بمدده الربانى فليعلم سيدنا أنى قبل أن أراجع الغنية المذكورة صرت أبحث عما يمكن أن يكون جواباً عن الشيخ رضى الله عنه فراجعت ما أمكننى الوقوف عليه من كتب موضوع المسألة كاليواقيت للعارف الشعرانى والفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمى والمحاسن الغالية لليافعى المطبوعة بهامش كرامات الأولياء للنبهانى فوجدتهم ثلاثتهم برأوا الشيخ من اعتقاد الجهة وصرحوا برجوعه أو دس ذلك عليه فى كتاب الغنية وذلك فى المبحث السابع من اليواقيت ومسائل الكلام من الفتاوى الحديثية وآخر المحاسن الغالية ، ولما رأيت ذلك فى هذه الكتب الثلاثة كفانى عن تطلب غيرها حيث لم يبق داع للجواب عنه برجوعه عن ذلك المعتقد أو دسه عليه ثم راجعت الغنية فوجدت عبارته رضى الله عنه لا تقتضى ما نسبوه إليه غاية ما فى المقام أنه ينكر تأويل الآيات والأحاديث التى تقتضى بظاهرها إثبات العلو والفوق والجهة من غير أن يعتقد معناها الذى تقتضيه اللغة فاعتقاده رضى الله عنه فيهاأنها صفات أثبتها الله تعالى لنفسه وأوجب على عباده أن يصفوه بها ويكلوا بعد ذلك علم حقيقتها اليه سبحانه من غير أن يؤول الفوق بالعلو والعزة والقهر كما هو رأى الاشعرية ولا بالغلبة والاستيلاء كما هو رأيهم أيضاً مع المعتزلة بل ينبغى أن يترك تفسير ذلك والخوض فيه رأساً مع تنزيه الله تعالى عن ظاهر معناها ، وهذا الذى قاله رضى الله عنه هو

معتقد الصحابة والسلف الصالح قاطبــة . وفى مقدمتهم الأئمة الأربعة وهذا أيضاً معتقد أكابر الأوليـاء الذين جعل الله الشيخ فى مقـدمة صفوفهم فلم يأت الشيخ فى المقـام بما يخدش فى عقيدته ولا بما يشين عرض ديانته وإنما خالف المتأخرين من الأشاعرة والماتريدية فى عدم التأويل تبعاً للامام أحمد ابن حنبل فانه كان شديد الانـكار على المؤولين ويأمر بامرار ما ورد كما ورد من غير اعتقاد معنى يخالف الربوبية وعظمتها والمؤولون كامام الحرمين والغزالى والباقلانى رضى الله عنهم لا ينكرون هذا ، بل يقولون انه الأفضل والأولى ، وإنما أولوا خوفاً على العامة أن يفهموا تلك الآيات والأحاديث على ظاهرها فيقعوا في ورطة التجسيم ، وذلك يؤديهم إلى أن يكون الخـالق كالمخلوق وتعـالى الله عن ذلك علوا كبيرا فان الله كان ولا فوق ولا جهـة ولا عرش ولا سماء ولا أرض ولا زال سبحانه كما كان فـكيف يكون فى جهـة من الجهات وهو الذي خلقها وكيف يحتاج إليها وهو الذى أوجدها فهو سبحانه قبل أن يخلقها وبعد أن خلقها هو الله الأحد الصمد موصوف بجميع الـكمالات منزه عن سمة الحادثات لا يشك فى هـذا مسلم لا من المتقـدمين ولا من المتأخرين ولم يأت الشيخ رضى الله عنـه بما يخالف هذا وحاشاه من ذلك ، وكيف وهو الرجل الذى لم تنتج الأرحام مثله ولم يسمح الزمان بمشابه له فى ولايته ومعرفته بعده رضي الله عنه وعن جميع أولياء هذا الامة فتأمل هذا وأمعن فيه نظرك فان كفاك وإلا فعرفنا لنتذاكر فى المسألة ان شاء الله تعالى .

قلت ومن جواب الشيخ رضى الله عنه يظهر لك موافقته للسلف ومخالفته للخلف الذين تجهموا فضـلوا وأضلوا من قلدهم واعتقد سنيتهم حتى صار يستشكل كلام كبار أهل الله الموافق لما نطق به القرءان وتواتر عن الرسول صلى الله عليه وسلم وأجمع عليه الصحابة والتابعون والسـلف الصالح من الايمان بالصفات وامرارها كما جاءت من غير تكذيب ولا تعطيل باسم التأويل إذ لو اراد الله سبحانه وتعالى تأويله لما أنزله بتلك الألفاظ الموهمة للتشـبيه

والجهة والتجسيم والموقعة فى الضلال والكفر والبدعة على زعم المتأخرين والله تعالى أنزل القرءان هدى للناس وشفاء لما فى الصدور من الريبة والشكوك والوسواس والأوهام لاضلالا وحيرة وشكا وريبة محتاجا الى إصلاح زيد وبيان عمرو وتعقب بكر وشرح خالد فقبح الله العقول التى تتقدم بين يدى الله ورسوله وترى أنها أولى بالهداية والبيان ونصيحة العباد من الله ورسوله.

ومنها فاما مسائل الحيض التى أفادها الشبلى لابى عمران فلم أر من تعرض لها فقد راجعت الديباج لابن فرحون والطبقات للشعرانى فلم أر ذكراً لها فيهما على أن اجتماع أبى عمران بالشبلى فيه ما فيه وذلك أن أبا عمران ولد بعد ما توفى الشبلى بنحو ثلاثين سنة فكيف يجتمع وهو لم يوجد بعد اللهم إلا أن يكون أبو عمران المذكور فى القضية غير أبى عمران الفاسى وكيفما كان الحال فلا غرابة فى إفادة الشبلى أبا عمران بتلك المسائل ولو كان أبو عمران من كان فى العلوم الرسمية لأن اهل الكشف والعيان يعلمون من الأشياء ما لا يعلمه منها أهل الرسوم والأفكار لنظر أهل الكشف للاشياء بعين الحقيقة التى هى عليها فى نفس الأمر حتى أنهم يدركون بنور كشفهم حقائق المحدودات على ما هى عليه بخلاف أهل الرسوم والافكار فانهم لا يدركون الا رسومها وخواصها وحدودهم كلها رسوم فى الحقيقة وعند التأمل حسبما أفصح بذلك رئيس أهل الأفكار المعلم الثالث ابن سينا بعد ما أفنى عمره فى تطلب حقائق الأشياء وادراك ما هى عليه فى نفسها وارتكب لادراك ذلك كل طريق يمكن للبشر ارتكابه فلم يحصل من ذلك على طائل بل فى آخر عمره اعترف بأن العقل والفكر لهما حد لا يتعديانه إلا بقوة مفاضة عليهما من الخارج، وتطلبه لادراك الحق فى الأشياء بنفسه هو الذى تركه متذبذباً فى دينه فانه كان يريد أن يعرف الحق ويصل الى ماينبغى من معرفته بعقله وفكره من غير طريق الأنبياء وسيدهم وامامهم مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ظنا منه أن العقل يفى بذلك وخصوصاً اذا

كاملا فى إدراكه كعقله فخاب ظنه وخرج من الدنيا كما دخل اليها من غير فائدة تنفعه فى معاده كما وقع ذلك لغيره من الفلاسفة المتقدمين عليه والمتأخرين عنه وهذه القوة التى أشار اليها هى القوة المفاضة على الانبياء عليهم الصلاة والسلام وعلى اتباعهم الأولياء لكن من غير مساواة بينهم فيها اذ الأولياء لا يشاركون الانبياء فى شىء من أحوالهم أصلا ولاجل هذه القوة المفاضة عليهم كانت علومهم كلها ضرورية لا نظر فيها ولا تفكر أصلا بخلاف غيرهم فان علومهم كلها نظرية مجلوبة بمقدمات وأفكار لا تخلو فى الغالب عن أغلاط وأوهام لقصور الافكار عن الاحاطة بذاتيات الاشياء ولذلك يقع بين أهلها التنازع والتخاصم فترى هذا يقول الحق معه وهذا يقول الحق معه والمسألة واحدة بخلاف علوم الاولياء فانها لا شىء فيها من ذلك لاستيلاء أرواحهم المقدسة على الانوار التى كان منها بروز الاشياء فتعطيهم الاشياء بسبب ذلك علما من نفسها بما هى عليه فى الواقع فأنى يتطرق لهم الغلط والحالة هذه ولهذا قال الاصوليون لا يقع التخالف بين قاطعين أبداً ولما ذكرناه من استيلاء أرواحهم على الانوار التى كان منها بروز الاشياء كانت الاشياء فى نظرهم كالشىء الواحد لاتحاد منشأها فعندهم الماضى والحال والمستقبل نقطة واحدة ما يعرف من أولها يعرف من آخرها ولا يغيب عنهم من أمرها شىء حتى أن الواحد منهم لو أراد أن يخبر بما هو آت على ما هو عليه وقت ظهوره لفعل ويخرج كما أخبر من غير زيادة ولا نقصان مع أنه لم يوجد بعد وما ذلك إلا أنه ينظر بعين الروح المحيطة بالزمان وما فيه بدأ ونهاية ولولا تحجير الشارع عليهم لأمكن أن يخبر الواحد منهم بما كان وبما يكون وبتعيين أهل الجنة وأهل النار وأهل السعادة وأهل الشقاء وغير ذلك من شئون الأكوان ولكن لم تتعلق مصلحة العالم بذلك فأمروا بكتم ما يعلمون من شئونه الا من أذن له فى افشاء شىء من ذلك وان وقع وافشى أحدهم شيئا مما علموا عوقب بعقاب لو عوقب به جبل لذاب وتفتت اذا علمت هذا تبين لك يقيناً أنه يمكن للشبلى ومن كان على شاكلته أن يفيد أبا عمران وغيره بألف مسألة من الحيض

مثلا من غير أن تخطر على باله ولا مفهوم للحيض بل سائر أبواب الشريعة وفروعها له أن يفيده فيها مما لا يخطر له على بال ولا يهجس له بخاطر لعدم المناسبة بين فكره وبينها وكفى وعلوم هؤلاء علوم الهام وتحديث وإلقاء فى الروع من غير فكر ودراسة ونظر مع إحاطة النور النبوى بعوالمهم الثلاثة المحفوظة من التلبيس بسبب ذلك النور وعلوم الفقهاء وغيرهم علوم فكر وظن وشتان ما بينهما فان علوم الطائفة الأولى لاتردد فيها ولا وهم ولا غلط لأخذها من طريق محفوظ من ذلك وعلوم الطائفة الثانية كلها ظنون وغالبها أغلاط فالطائفة الأولى علومها كالشمس فى رابعة النهار فانها لقوة نورها وكمال اشراقها لا يبقى معها خفاء فى المدركات بوجه من الوجوه ولا يمكن لظلام أن يتسلط عليها وقت سلطانها أبداً والطائفة الثانية علومها كالضوء فى الظلام فانه وان كان فى الاشراق ما كان لا يقع به الظهور الذى يقع بالشمس مع امكان تسلط العوارض التى تزيله عليه كالريح وغيره فافهم وتأمل ولولا ضيق الكتاب لأتينا من هذا بما ترتاح له الافكار وتنشرح به الأسرار ولكن الخير أمام وبالله التوفيق .

وأما أول من أسس الطريقة وهل كان تأسيسها بوحى الخ . فلتعلم أن الطريقة أسسها الوحى السماوى فى جملة ما أسس من الدين المحمدى إذ هى بلا شك مقام الاحسان الذى هو أحد أركان الدين الثلاثة التى جعلها النبى صلى الله عليه وآله وسلم بعد مابينها واحدا واحدا دينا فقال هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم فغاية ماتدعو اليه الطريقة وتشير اليه هو مقام الاحسان بعد تصحيح الاسلام والايمان ليحرز الداخل فيها والمدعو اليها مقامات الدين الثلاثة الضامنة لمحرزها والقائم بها السعادة الأبدية فى الدنيا والآخرة والضامنة أيضا لمحرزها كمال الدين فانه كما فى الحديث عبارة عن الأركان الثلاثة فمن أخل بمقام الاحسان الذى هو الطريقة فدينه ناقص بلا شك لتركه ركناً من أركانه ولهذا نص المحققون على وجوب الدخول فى الطريقة وسلوك

طريق التصوف وجوباً عينيا واستدلوا على ذلك بما هو ظاهر عقلا ونقلا ولسنا الآن بصدد بيان ذلك ، وقد بين القرآن العظيم من أحوال التصوف والطريقة ما فيه الكفاية فتكلم على المراقبة والمحاسبة والتوبة والانابة والذكر والفكر والمحبة والتوكل والرضى والتسليم والزهد والصبر والايثار والصدق والمجاهدة ومخالفة النفس وتكلم على النفس اللوامة والامارة والمطمئنة وعلى الأولياء والصالحين والصديقين والمؤيدين وغير هذا مما تكلم فيه أهل التصوف والطريقة رضى الله عنهم .

وأما قولك هل لما أسست الطريقة الخ فجوابه يعلم مما قبله فانها إذا كانت من الدين بل هي أشرف أركانه وكانت بوحي كما قلناه وكانت الصحابة بالحالة التى بلغتنا عنهم تواترا من المسارعة إلى امتثال أمر الله كانوا بالضرورة أول داخل فيها وعامل بمقتضاها وذائق لاسرارها وثمراتها ولهذا كانوا على غاية ما يكون من الزهد فى الدنيا والمجاهدة لانفسهم ومحبة الله تعالى ورسوله والدار الآخرة والصبر والايثار والرضى والتسليم وغير ذلك من الأخلاق التى يحبها الله ورسوله وتوصل إلى قربهما وهي المعبر عنها بالتصوف والطريقة وكما كانوا رضى الله عنهم على هذه الحالة الشريفة كان أتباعهم أيضاً عليها وإن كانوا دونهم فيها وكذلك كان أتباع الأتباع وهلم جرا إلى أن ظهرت البدع وتأخرت الأعمال وتنافس الناس فى الدنيا وحييت النفوس بعد موتها فتأخرت بذلك أنوار القلوب ووقع ما وقع فى الدين ، وكادت الحقائق تنقلب وكان ابتداء ذلك فى أواخر المائة الأولى من الهجرة ولم يزل ذلك يزيد سنة بعد أخرى إلى أن وصل إلى حالة تخوف منها السلف الصالح على الدين فانتدب عند ذلك العلماء لحفظ هذا الدين الشريف فقامت طائفة منهم بحفظ مقام الاسلام وضبط فروعه وقواعده ، وقامت أخرى بحفظ مقام الايمان وضبط أصوله وقواعده على ما كان عند سلفهم الصالح ، وقامت أخرى بحفظ مقام الاحسان وضبط أعماله وأحواله فكان من الطائفة الأولى

الأئمة الأربعة وأتباعهم رضى الله عنهم وكان من الطائفة الثانية الأشعرى وأشياخه وأصحابه وكان من الثالثة الجنيد وأشياخه وأصحابه فعلى هذا ليس الجنيد هو المؤسس للطريقة لما ذكرناه من أنها بوحى إلهى وإنما نسبت إليه لتصديه لحفظ قواعدها وأصولها ودعائه للعمل بذلك عند ما ظهر التأخر عنها وبهذا السبب نفسه نسبت العقائد إلى الأشعرى والفقه إلى الأئمة الأربعة وغيرهم مع أن الجميع بوحى من الله تعالى .

وأما اذعان ابن عبد السلام للشاذلى فلما ذكرناه سابقا من اتساع علوم الأولياء رضى الله عنهم إلى حد لا يخطر على بال الفقيه ولا يطمع فى شم رائحته وكيف يشم رائحته أو يخطر على باله وهو من وراء ألف ألف حجاب وذلك أن الأولياء رضى الله عنهم يصلون إلى مقام يأخذون فيه العلم عن الله ورسوله بلا واسطة ولا يصلون إلى ذلك المقام حتى يقع لهم المرور على مقامات علية ومراتب سامية كل مقام منها لوحله الفقيه ولوساعة لرمى ما بيده من العلوم الرسمية إلا القرءان والسنة ورآها جهلا وبطالة بالنسبة لما رأى ولو كان أعلم عالم على وجه الأرض بل لو جمع الى علمه علم جميع العلماء وإلى حكمته حكمة جميع الحكماء لرآى ذلك بالنسبة إلى ذلك المقام كلا شيء وهذا بالنسبة لمقامات مطلق الأولياء أما أقطابهم وكبراؤهم كالشاذلى رضى الله عنه فان عندهم ما يقف العقل عن التصديق به لولا تواتر وجود ذلك عندهم وإذا كانوا بهذه المثابة فكيف لا يخضع ابن عبد السلام وغيره للواحد منهم وعندهم من سر الله والمعرفة به ما لو ألقى على جبل لدك وصارهباء بل يصلون من هذه المقامات الى مقام يستخرج أحدهم جميع العلوم الموجودة على وجه الأرض من أى حرف شاء من حروف القرءان حتى أنه لو انقطعت العلوم من الدنيا لوجدت عند الواحد منهم كما ينبغى وفوق ذلك لا فرق فيه بين العلوم النورانية والظلمانية والدينية والدنيوية من غير مراجعة كتاب ولا مدارسته مع أنوار واسرار تطوف على قلوبهم لو ظهر شيء منها

لحيوان لهام ولمقعد لقام ولاعمى لا بصر فى الظلام وتأمل قوله تعالى لو أنزلنا هذا القرءان على جبل الآية يظهر لك ما قلناه فلما عندهم من هذا وأمثاله مما لا يعرفه إلا هم رضى الله عنهم خضع ابن عبد السلام للشاذلى وغيره لغيره .

وأما ما عند ابن الحاج من أقسام الشيوخ الخمسة فان الأربعة بعد الأول كل واحدمنهم يفيدفى التسليك والوصول إلى الله تعالى وان كان بعضهم أعلى من بعض فى ذلك أما الاول فانما يفيدفى التعليم الممزوج بنور تنبسط بسببه أشعة العلم على باطن التلميذ فتنشط جوارحه للعمل بذلك العلم الذى يتعلمه وبذلك يفارق غيره من العلماء المعلمين اما تسليكه للمريد وأخذه بيده ورفعه الحجاب عنه حتى يقول للمريد هاأنت وربك فلا سبيل له اليها لان هذه الحالة لا تكون إلا لمن سلك الطريقة على أيدى الأشياخ العارفين بالله تعالى أما من لم يسلك فلا مطمع له فى التسليك والتربية ولوعلم ما علم وعمل من الاعمال ما عمل سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ثم أكمل الشيوخ المذكورين عند ابن الحاج وهم المربى والمرقى والحرفى والكامل هو المربى إذا كان التلميذ قابلا للتربية لجمعه فى السلوك على يده بين الجذب والسلوك والفناء والبقاء وذلك غاية ما يطلب من كمال السالك أما إذا كان المريد غير قابل للتربية لغلظ حجابه وكثافة حسه ورضاه عن نفسه كما هو الواقع فى هذه الأوقات فلا يبعد أن يقال أن الاكمل هو المرقى لأخذه بيد المريد من غير تعب ولا مشقة ولكن قلما تسلم عاقبة المربى بالترقية وأولى وأحرى بالحرفية والكامل مندرج فى المربى فلا يقال كيف وقع تركه وبالجملة هذا مقام يحتاج إلى بسط وطول كلام والمقصود الاقتصار على ما يتعلق بجواب ما سألت عنه على سبيل الاختصار .

ومنها فاما الأوراد والوظائف من الزروقية وحزب البحر وحزب النووى فاذكرها وواظب عليها باذن تام منا وإن وقع وحصل لك منها ملل فى بعض

الأوقات فاتركها حتى يعود اليك نشاطك لتـذكرها باستحضار تام وتوجه عام لتجد بركتها وثمرة ذكرها فان الذكر من حيث هو لا ينتفع به صاحبه إلا إذا أقبل عليه بكايته وتوجه اليه بخالص قلبه وما يعتريك من الكسل عن العبادة فى بعض الأوقات سببه برودة حرارة الروح وانقباضـها عن الانتشار فى أعضاء التعبد وموجب ذلك اما خوض فيما لا يعنى واما تناول ما فيه حرام أو شبهة واما تطلع إلى الدنيا وشهواتها وحب البقاء فيها فتدخل بسبب هذا ظلمة وبرودة على القلب فتنقبض حرارة الروح من أجلهما فيحصل الكسل والملل من العبادة وتميل الذات بطبعها الى البطالة ودواء ذلك أولا أن تلتجيء الى الله تعالى فى الاسحار وتطلب منه أن ينقذك من وحشة الغفلة والاعراض والادبار مع ملازمة الاستغفار ، وثانياً أن تستحضر وقت ما يقع لك ذلك ما أنعم الله به عليك من النعم الجليلة التى لا سبب لك فى تحصيلهـا كالايمان بالله تعـالى الذى أتحفك به وحفظك لكتابه العزيز ومعرفتك بأحكام شريعة دينه مع ما أعطاك من السمع والبصر والعافية وغير ذلك من النعم التى لا تحصى وتشكره عليها فى باطنك وترجوه أن يتحفك بجميع ما تحبـه كما أتحفك بما ذكرناه وتدوم على هذا الاستحضار وعلى هذا الرجاء حتى يمتلىء قلبك من الفرح به سبحانه فاذا امتلأ من الفرح به امتلأ بأثر ذلك بمحبته فاذا أحست الروح بمحبة الله فى باطنك حييت باذن الله تعالى وانتشرت حرارتها فى الذات كلها فترتحل بسبب ذلك تلك البرودة وتتعشق الذات بطبعها عبادة الله تعالى فلا تشبع ولا تمل منها حتى أنه ربما تمر عليها الأوقات الكثيرة ولا يقع لها شعور بمقتضياتها من طلب الأكل والشرب والنوم والكلام وغير ذلك من أوصاف البشرية القاطعة للعبد عن وصول الأمداد إلا لاهية لقلبه ولا تزال الذات تترقى فى هذا الحال من عبادة إلى عبادة ومن مفضول إلى فاضل ومن فاضل إلى أفضل حتى يستولى عليها النور ويحيط بها ظاهرا وباطنا فتتخلص العبودية بعـد ذلك ولا يبقى للذات ميـل إلى شىء من الأكوان الظلمانية

والنورانية فاذا تمكنت فى هذا المقام رفع الله عنها الحجاب فى الحال وأشهدها من جلاله وجماله ما تقربه عينها وتثبت به سعادتها إلى أبد الأبد ثم يفاض عليها من مقامات الولاية والمعرفة به سبحانه ما يناسب قدرها وصدقها إلى آخر ما يقع للسائرين إلى الله جعلنا الله وإياك منهم بفضله وكرمه آمين فدم على هذا ثم إياك والالتفات الى غير الله على أى حالة كنت .

وأما الشرط فاياك ثم اياك أن تتأخر عنه فانه من أرفع العبادات وأشرف الحالات ويكفيك فيه أنك تظل يومك وليلك تعلم كتاب الله لأولاد المسلمين وتدعوهم بسببه الى توحيد الله تعالى وعبادة رب العالمين مع ما ينضم الى ذلك من ملازمة بيت الله الذى قال الله تعالى فيمن يلازمه انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر الآية وإقام الصلوات الخمس فى أوقاتها والأذان لها خمس مرات فى اليوم الى غير هذا من العبادات التى لو ظفر الانسان بواحدة منها لكفته يوم القيامة فكيف بها اذا اجتمعت.

وأما ما يقع للفقهاء الذين يقرئون الصبيان من عدم الالتفات الى العبادة والتخلق بالأخلاق النبوية المحمدية فليس الشرط هو الذى أوجب لهم ذلك وانما أوجبه لهم عدم تطلعهم الى العبادة وعدم تشوقهم الى معرفة الله ومعرفة أخلاق حبيبه صلى الله عليه وسلم اذ المعرفة بالله وبرسوله لا ينالها الا من تشوق اليها وتطلبها وارتكب أسبابها التى أشرنا اليها سابقا والتى ألف فيها القوم العارفون بالله كتبهم ورسائلهم ، وأما من يعبد الله تعالى ويتلو القرآن ولا همة له فى معرفة الله ولا عنده ميل اليها كغالب أحوال المدررين فهو لا ينالها ولو بقى على عبادته الدهر كله فاعرف هذا واعمل عليه والسلام .

ومنها وحديث البخارى لا إشكال فيه اذ لا يأتى الأشكال الا لو أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالآية الشريفة على سبيل التلاوة وهو انما أتى بها على سبيل الاستشهاد لما ذكره من حكم تلك المسألة والقرآن إذا استشهد به المستشهد لحكم من الأحكام أو أتى به تمثيلا لوعظ أو تذكرة لا يلزم أن

يؤتى به على وجهه من غير زيادة ولا نقصان لاتفاق السلف والخلف على جواز ذلك بالحذف والزيادة عند استعماله ويسمونه ضرب مثل وتمثيلا وربما سموه اقتباسا بحسب اختلاف المورد ، وقد كثر ذلك فى كلام النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين واتباعهم وهلم جرا ، ولم ينكر احد منهم نقص حرف او زيادته اذا لم يقصد التلاوة وجيء بالآية لما ذكرناه فمما ورد من ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم مع نقص حرف من التلاوة قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث للترمذى اذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته وخلقه فزوجوه الاتفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير بحذف الهاء من تفعلوا مع أن التلاوة باثباتها ومما جاء عنه مع ابدال حرف من كلمة قوله صلى الله عليه وسلم من تكلم والامام يخطب فهو كالحمار يحمل أسفارا مع أن التلاوة كمثل الى غير هذا مما يطول جلبه من الاحاديث أما ما ورد عن الصحابة من هذا فشيء يفوق الحصر وكذا ما ورد عن التابعين وأتباعهم الى وقتنا هذا . وقد بسط هذه المسألة الحافظ السيوطى فى كشف الالتباس عن جواز ضرب المثل من القرآن والاقتباس أو كما هو اسمها فانه غاب عنى اسمها وأشار الى شيء منها فى آخر عقود الجمان نظما وشرحا وسبقه الى ذلك مع ايراد نصوص الائمة العارف ابن باخلا فى شرح حزب البحر فانظر ذلك فيه اذا عرفت هذا ظهر لك انه لا اشكال فى الحديث وانه يقرأ كما قلته من غير تبديل ولا زيادة واو لأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يقصد التلاوة وانما قصد تقرير ذلك الحكم السابق بالآية الشريفة .

ومنها واما رؤيا الشيخ أحمد خادم الحجرة وأمره بابلاغ تلك الوصية فلا يخفاك أن رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم حق لا شك فيها وما يأمر به كذلك فان أمر بما هو متعلق بالدنيا من غير دخل فى الدين فلا شك فى قبول ذلك وتعين العمل به على الرائى ولابد أن يجد ما امره به صلى الله عليه وسلم وان أمر بما هو متعلق بالدين فان امر بواجب او مندوب او ما يندرج تحتهما

تعين قبوله والعمل به ودل امره بذلك على مصلحة تامة تعلقت بذلك المأمور به في الحال للرائي ولمن صدقه واراد ان يعمل بعمله لأن امره صلى الله عليه وسلم بمثل هذا لا يهدر وان امر بما هو محظور في شرعه الشريف وجب تأويله وصرف الرؤيا عن ظاهرها لانه صلى الله عليه وسلم لا يأمر بغير الحق وبما يخالف الشرع الشريف اصلا هذا حكم ما يأمر به صلى الله عليه وسلم في الرؤيا لكل احد كائنا من كان اما رؤيا الشيخ احمد بالخصوص فأنت تعلم أنه لا يقبل رواية احد في الدين الا اذا عرفت عينه وتحققت عدالته ، اما اذا جهلت عينه وعدالته كحال الشيخ احمد هذا فانه مجهول العين والعدالة فروايته مردودة اجماعا كما في كتب الأصول ووصيته ما وافق منها الشرع الشريف قبلناه لا لرؤياه بل لموافقته لما هو معروف من الشرع وما خالفه منها رددناه عليه وعلى غيره لان الدين قد تم وكمل فلا يحتاج إلى رؤيا احد ولا وصيته هذا ما يتعلق بتلك الرؤيا في الحال على سبيل الاجمال والاختصار وان اردت بسط العبارة عليها وتتبعها كلمة كلمة فعرفنا يصلك ذلك حالا ان شاء الله تعالى .

ومنها : اما الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فاختلفوا فيها اختلافا طويلا فقال ابن اسحاق في جماعة من اهل العلم ان الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم كانت بغير امام ولا دعاء من الدعوات المعروفة في صلاة الجنايز وانما كان الصحابة رضي الله عنهم يدخلون افواجا افواجا فيقفون ويدعون ويصدقونه في رسالته ثم يخرجون وتدخل طائفة اخرى ثم تفعل كذلك وهكذا واستدل من قال هذا بأمرين اولهما ان الصلاة المشروعة في الجنائز إنما شرعت شفاعة للميت وهو صلى الله عليه وسلم غنى عن شفاعة غيره له ثانيها ان الله تعالى أخبر انه يصلي عليه وملائكته وطلب من المؤمنين ذلك ، قال السهيلي وهذا الطلب يشمله صلى الله عليه وسلم حياً وميتاً فالصلاة عليه إذاً انما كانت بان يقول كل واحد اللهم صل على سيدنا محمد الخ الصلاة

الابراهيمية ، ثم يدعو لنفسه ويصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رسالته ثم ينصرف الى حال سبيله . وذهب الجمهور إلى أن الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم كانت كالصلاة المعهودة فى الجنائز . قال القاضى عياض والنووى وهو الصحيح الذى لا يلتفت إلى غيره ، لكن اتفقوا على أنها لم تكن بامام لقول سيدنا على كرم الله وجهه كما رواه ابن سعد والبيهقى هو إمامكم حياً وميتاً ، فلا يقدم عليه واحد ، وكذلك اتفقوا على أنهم لم يدعوا حال صلاتهم بدعاء الجنائز ، وإنما كانوا يقولون كما رواه ابن سعد والبيهقى أيضاً « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله ، اللهم إنا نشهدك أن سيدنا محمداً قد بلغ ما أنزل عليه ونصح لأمته وجاهد فى سبيلك حتى أعز الله كلمته ، فاجعلنا نتبع ما أنزل إليه وثبتنا بعده ، واجمع بيننا وبينه » ثم يقولون « آمين » يفعل هذا كل واحد منفرداً بعد كل تكبيرة من التكبيرات الأربع ، والحال أنهم صفوف صفوف كما قدمنا ، هذا هو الصحيح فى الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم .

واما الخرطال فالذى يظهر من مذهبنا ومذهب الشافعية أنه لا زكاة فيه لأنهم وان عللوا ما فيه الزكاة بالاقتيات والادخار ، فقد اشترطوا فيه أن يكون اقتياته معروفاً عند الخاصة والعامة ولو فى بلد المقتات . أما ما كان مختلفاً فيه هل هو مقتات أم لا كهذا فالذى ينبغى الجزم به عدم الزكاة فيه ، ولهذا اتفق شراح المختصر ومحشوه على تخصيص الزكاة بالأنواع العشرين المعروفة للاتفاق على وجود الاقتيات بها وأخرجوا كرسنة من الأنواع العشرين ، وقالوا انها الى العلف أقرب . واختلفوا فى النين . والمشهور عدم الزكاة فيه مع أن الاقتيات فيه محقق بلا شك ، حتى قال الشيخ الرهونى فى حواشيه على كبير ميارة . ان القول بالزكاة فيه هو الذى ينبغى التعويل عليه ، بل قال لو كان عنده

منه نصاب لزكاه ، ومع هذا لم يلتفتوا إلى قوله لأجل ما وقع فيه من الخلاف وهل هو مما يقتات أو لا ، واذا كان هذا فى التين المشاهد اقتياته عند القبائل الجبلية ، فما ذا يقال فى الخرطال الذى لم يصل اقتياته إلى درجة الشك فضلا عن الظن فضلا عن التحقيق والقطع . وبالجملة فالذى تحصل لنا من مراجعة كتب المذهب هو عدم الزكاة فى الخرطال فتيقن هذا وكن منه على بال . نعم على مذهب الحنفية الذين لا يشترطون اقتياتاً ولا ادخاراً ، بل ولا نصابا ففيه الزكاة ولا إشكال . ولولا خشية الطول لذكرنا دليلهم ودليلنا ومع من الحق فى ذلك .

ومنها وما يذبح على ضرائح الأولياء حسبما جرت به عادة المسلمين فى هذه الأعصار وقبلها لا يخلو حال ذابحه إما أن يعتقد أن الولى المذبوح عليه يضر وينفع بذاته ، وهذا حكمه حرمة أكل ذبيحته لكونه كافرا باعتقاده ان لله شريكا يضر وينفع ، وإما أن يعتقد أن الولى لا ينفع ولا يضر بذاته ، ولكن جعل الله فيه قوة بها يضر وينفع ، وحكم هذا كراهة أكل ذبيحته وهو فاسق باعتقاده التأثير بالقوة المودعة فى المؤثر . وإما أن يعتقد أن الولى لا يضر ولا ينفع لا بذاته ولا بقوة مودعة فيه ، ولكن جرت عادة الله بقضاء الحوائج عند الذبح والتعلق بالأولياء ، وهذا حكمه جواز أكل ذبيحته من غير كراهة ، فان جهل حال الذابح ولم يعرف من أى قسم هو حمل على القسم الجائز ان كان الغالب على أهل البلد معرفة التوحيد ومخالطة أهله ، أو كان فيهم الموحد وغيره فالورع ترك أكل الذبيحة ، هذا هو الذى يؤخذ من شراح المختصر ، وشرح الزياتى على ذكاة خاله ، ونصوص كل قسم من هذه الاقسام موجودة فتأمل هذا ، وانظر ما هو واقع الآن بهذه البلدة من أى قسم من هذه الاقسام هو يظهر لك حكمه والسلام .

ومنها وحديث « لا يبطل حق امرىء مسلم وان قدم » معناه أن حق المسلم لا يضيع بقدمه . فمن كان له مثلا حق على شخص بحجة ثابتة

شرعا وسكت عن طلبه المدة الطويلة كالثلاثين والأربعين سنة ثم قام يطلبه فانه يستحقه ولا يهدر حقه بسكوته عن طلبه المدة المذكورة وأما رتبته من الصحة والحسن والضعف ومن خرجه من المحدثين فانى أعرف أن الحطاب ذكره آخر الشهادات من شرحه على المختصر ناقلا له عن ابن رشد ولم يعزه لأحد ولا تكلم على رتبته وكذلك فعل من نقله عنه كالزرقانى بالمحل المذكور والشيخ الرهونى فى حواشيه عليه والشيخ التاودى صدر البيوع من شرحه على التحفة والشيخ التسولى وجميعهم يسلم الاستدلال به على المعنى الذى قررناه أما فى كتب الحديث فلم يوجد له أثر ولا ذكر فيما رأيناه منها

ومنها وحديث ليس منامن لم يتعاظم بالعلم ذكره ابن الحاج فى حواشيه على المكودى حديثا وتبعه على ذلك سيدى المهدى الوزانى فى حواشيه على الاستعارة وغيرها من حواشيه وأولا ظاهره المقتضى لطلب التعاظم بالعلم وهما تبعا فى ذلك الطرنباطى فى حواشيه على الخلاصة وثلاثتهم لم يعزوه لكتاب من الكتب الحديثية على عادتهم فى ذكر مايستدلون به من الأحاديث أما كتب السنة المسندة التى هى عمدة كتب السنة فلا يوجد فى شىء منها .

ومنها وقد تعجبت من بيع من باع شرح اللقانى الكبير والأجهورى على المختصر مع ماهو مكتوب عليهما من الوقف فى غالب الأوراق وإن كان ذلك لا يضر شرعاً لما نص عليه البرزلى من أن كتابة لفظ الوقف على كتاب من غير اشهاد لا يمنع من بيعه وتملكه ونقله عنه جماعة من المتأخرين وسلموه كابن هلال والسجلماسى فى عمله المطلق وشرحه والحمد لله على خلاف العلماء فانه رحمة ومثل ما قاله البرزلى للحنفية فان الوقف عندهم لا يثبت حتى يحكم به الحاكم .

ومنها أما الحديث الذى أخبركم به ذلك المخبر فهو بلا شك مختلق موضوع ومخترع مصنوع ليس عليه أثر من طلاوة النبوة ولا هيمنة من حلاوة الرسالة

لفظه فى غاية الركاكة ومعناه بلغ الغاية فى السماجة وقد عد علماء الحديث من علامة وضعه ركاكة لفظه وبرودة معناه بحيث إذا سمعه السامع لا يخضع له سره ولا يقبله عقله ولهذا قال ابن الجوزى إن الحديث المنكر إذا سمعه الطالب يقشعر منه جلده وينفر منه قلبه وقال الربيع بن خثيم إن للحديث ضوء كضوء النهار ولغيره ظلمة كظلمة الليل نعم معناه صحيح بلا إشكال فقد ورد فى هذه العجائب العصرية من الأحاديث مالا يدخل تحت حصر منها ماهو صحيح وحسن . ومنها ما هو ضعيف إلا أنه منجبر بكثرة شواهده ومتابعته فصار من المقبول المستحسن فما من شيء من هذه المخترعات العصرية الا ويوجد حديث يشير اليها إما بصراحته واما بتضمنه والتزامه فصلى الله على هذا الرسول العظيم الذى أخبره الله بما كان وما يكون وأطلعه على مالم يطلع عليه غيره من السر المكنون .

قلت والحديث المذكور سألت عنه من أرسل اليه الشيخ هذا الجواب فكتب إلى بأنه كان بوجدة فاجتمع بها ببعض علماء الجزائر وتذاكرا فى المخترعات الوقتية فأورد ذلك العالم حديثاً مرفوعاً إلى النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا نطق الحديد وقرب البعيد فالأمر قريب غير بعيد وهو حديث موضوع كما قال الشيخ رضى الله عنه ومثله حديث افتراه بعض علماء الأزهر وادعى أنه فى صحيح البخارى وهو ما نسبه إلى النبى صلى الله عليه وسلم من أنه قال إنكم ستجيئون أو ستفدون إلى المدينة على صفائح من حديد وفولاذ .

أما ما أشار اليه الشيخ من ورود الأحاديث بالاشارة إلى المخترعات العصرية فقد يستغرب القارىء ذلك ويتشوف إلى الوقوف عليها فليعلم أن الأحاديث بذلك على قسمين قسم اجمالى وقسم تفصيلى ووردت الاشارة اليها فى القرآن العظيم .

أما الاجمالى فروى الطبرانى من حديث سمرة قال قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تزول الجبال عن أما كنها وترون الأمور العظام التى لم تكونوا ترونها ففى هـذا الحديث اشارة إلى سكة الحديد التى تزال الجبال من أما كنها فى سائر البلاد الجبلية التى تمدفيها شرائطها وأشار بقوله وترون الأمور العظام التى لم تـكونوا ترونها إلى سائر المخترعات الغريبـة من أوطمبلات ووابورات وطيارات وغواصـات وتليفون وتلغراف وراديو وكهرباء وغير ذلك مما حدث أو سيحدث بعد .

ومن أعجب العجب أن كثيراً من الناس بالمشرق والمغرب سألنى مراراً هل ورد فى الحديث النبوى ما يشير إلى هذه المخترعات العجيبة المدهشـة فأجيبهم بما ورد فى ذلك وشرعت فى كتابة تأليف فيه لم يبيض بعد ثم وجدت فى الحديث إخباره صلى الله عليه وسلم بتساؤلهم هذا أيضاً عن هذه العجائب وهو قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البزار والطبرانى فى حـديث سمرة المذكور سترون قبل أن تقوم الساعة أشياء ستنـكرونها عظاما تقولون هل كنا حدثنا بهذا فاذا رأيتم ذلك فاذكروا الله تعالى واعلموا أنها أوائل الساعة حتى قال سـوف ترون جبالا تزول قبل حق الصيحة الحديث فصلى الله على هـذا الرسول العظيم والنبى الـكريم المؤيد بالمعجزات الظاهرة والخوارق الباهرة .

وأما التفصـيل فالطائرات اليوم على نوعين نوع خاص للتجارة والبريد وركوب التجار والسواح ونوع خاص للحرب ورمى القنابل .

أما طائرات النقل والتجارة فقد روى ابن مسعود قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم لا تقوم السـاعة حتى لا تنطح ذات قرن جماء وحتى يبعث الغلام الشيـخ بريداً بين الافقين وحتى يبلغ التاجر بين الافقين فلا يجد ربحاً .

وفى رواية لا تقوم الساعة حتى يكون السلام على المعرفة وحتى تتخذ المساجد طرقا فلا يسجد لله فيها وحتى يبعث الغلام الشيـخ بريداً بين الأفقين

وحتى يبلغ التاجر بين الأفقين فلا يجد ربحا رواها الطبرانى وأصل الحديث فى مسند أحمد فارسال الغلام الشيخ بريداً بين الأفقين وبلوغ التاجر بين الأفقين إنما هو بالطائرة وهو واقع بكثرة فان غالب التجار اليوم ينتقلون فى حركات التجارة بالطيارات ومنهم من لا يربح شيئاً كما قال النبى صلى الله عليه وسلم

وأما الطائرات الحربية ففى قوله تعالى قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم الآية إشارة إلى الطائرات الحربية والغواصات بل هى ظاهرة فى ذلك لا سيما وقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى تفسيرها أنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد رواه أحمد من حديث سعد بن أبى وقاص بل مع هذا الحديث يجزم بأن الآية واردة فى هذا لا فى غيره مما ذكره المفسرون وهى أيضاً شاملة للالغام التى تزرع فى الأرض وتنفجر من تحت الأرجل .

وكذلك قول الله تعالى (والمرسلات عرفا فالعاصفات عصفا والناشرات نشرا فالفارقات فرقا فالملقيات ذكرا عذراً أو نذراً إنما توعدون لواقع) فانه وصف للطائرات الحربية بجميع حركاتها وأفعالها تعصف بقنابلها وهى تحتمل معنيين فى اللغة تترك الناس كعصف مأكول وتميل أحياناً عن هدفها وهذا معنى العصف فى اللغة وتنشر المنشورات فى ميادين القتال على الجنود وفى المدن على الأهالى والسكان بالدعاية والأخبار عن الحقائق التى تسترها عنهم حكومتهم كما هو الواقع اليوم وتفرق بين الجموع والكتائب فرقاً لأن الرعب بها والهزيمة أشد من غيرها بحيث لايثبت تحتها فرد ولا جمع بل بمجرد رؤيتها يقع الفرار والتخفى تحت الكهوف والملاجىء وتلقى ذكراً فى المنشورات عذراً أو نذراً تنذر وتخوف وتهدد وتوعد وربما اعتذرت عن بعض ضربها للاماكن البريئة كما هو واقع ومشاهد وربما أرسلتها بين يدى هجومها وضربها انذاراً وطلباً للخضوع .

وأما السيارات على اختلاف أنواعها فوردت فيها أحاديث كثيرة مصرحة

وملوحة فمن الأحاديث المصرحة ما رواه أبو يعلى بسند صحيح من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى يقترب الزمان وتكون السنة كالشهر والشهر كالجمعة والجمعة كاليوم واليوم كاحتراق الحزمة فهذا حال السيارات وقدر طيها للمسافات .

وورد فى بعض الاحاديث الأخبار بتقارب الأسواق وذلك بسبب السيارات أيضاً وان فهم العلماء أن ذلك بكثرتها وقرب بعضها من بعض والواقع خلاف ذلك لأنهم لم يكن فى زمانهم سيارات حتى يحملوا الأحاديث عليها كما هو الواجب لان الأسواق لم تكثر عما كانت عليه كثرة يقرب بعضها من بعض بل لم تكثر أصلا ولا تزال كما كانت وإنما قربت بسبب السيارات

ففى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة أيضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل ابن مريم حكما عدلا فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها والقلاص الجمال وإنما يترك السعى عليها استغناء عنها بالسيارات وقد ظهر أثر ذلك فى الحجاز فانه مع عدم تعبيد الطريق لسير السيارات وكون السفر فيها لا يزال متعباً ومعرضاً للخطر بانكسارها فى الرمال والاحجار لم يبق أحد يركب القلاص إلا القليل ممن لا يستطيع دفع ثمن السفر فيها فاذا ما عبدت الطرق وسهل السفر فيها ورخص ثمنه فان السعى على القلاص يترك تماماً فى الحجاز كما ترك فى غيره طبقاً لما أخبر به الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم .

ويشير الى هذا أيضاً قول الله تعالى وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون فان مثل الفلك المشحون الذى يركب هو السيارات وبابور السكة الحديد لا الجمال كما يقوله المفسرون المعذورون لعدم وجود ذلك فى زمانهم .

ومن الاحاديث المشيرة إلى ذلك حديث ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه

وسلم قال إن بين يدى الساعة تسليم الخاصة وفى لفظ الحاجة وفشو التجارة حتى تعين المرأة زوجها على التجارة وحتى يخرج الرجل بماله إلى طرف الأرض فيرجع فيقول لم أربح شيئاً رواه أحمد والحاكم واللفظ له . وعند أحمد وابى نعيم فى التاريخ من حديث عمرو بن تغلب نحوه فما فشت التجارة حتى دخل فيها النساء بكثرة وصرن يعن أزواجهن فيها إلا بظهور الوابور والسيارات كما هو مشاهد الآن فى تنقل النسوة بالبضائع من مأكولات وملبوسات من مدن إلى أخرى لسهولة ذلك عليهن معركوب السيارات والوابور الحديدى ولم نكن نرى ذلك منهن أيام كان التنقل على البهايم ولا كان يخطر ببال امرأة أن تسافر فى تجارة مسافة نصف يوم فضلا عن يومين وثلاثة وهكذا صار يخرج الرجل إلى أطراف الأرض فلا يربح شيئاً لكثرة انتشار البضائع ووجودها فى كل الأماكن بواسطة السيارات بخلاف ما قبل ذلك .

وقال الديلمى فى مسند الفردوس أخبرنا أبى أخبرنا أبو الحسين بن النقور أخبرنا الكنانى حدثنا يعقوب بن ابراهيم البزار حدثنا على بن مسلم ثنا ابن ابى فديك عن عبد الله بن أبى يحيى عن سعيد بن أبى هند عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى يخرج الناس من المدينة إلى الشام يبتغون فيها الصحة ، فهذا لم يقع الا فى زمن وصول وابور السكة الحديد من الشام إلى المدينة المنورة فانه كان كثير من أهلها ينزلون إلى الشام ابتغاء الفسحة والصحة وهكذا يعود ذلك ان عاد وصولها أما بدونها فلا يتصور الخروج من المدينة إلى الشام ابتغاء الصحة مع وجود التعب العظيم ومقاساة أنواع العذاب من حر وبرد وعطش وجوع وألم بسبب ركوب ظهور الجمال ما يقرب من شهر ذهاباً ومثله إياباً لأجل ابتغاء الصحة بل ما كان يتوجه إليه فى الحاجة اللازمة إلا أصحاب الضرورة الأقوياء فى ابدانهم الذين هم غير محتاجين إلى صحة كالتجار الضاربين فى الأرض من البدو الذين اعتادوا ذلك .

وأما الراديو والتليفون فيشير اليهما قول الله تعالى ويقذفون بالغيب من من مكان بعيد بل هى ظاهرة فيهما ويشير إلى إذاعة المقالات العلمية فى الراديو الخبر الآتى فى المطابع .

فقد قال الدارمى فى سننه أخبرنا مخلد بن مالك عن حجاج بن محمد عن ليث بن سعد عن معاوية بن صالح عن أبى الزاهرية يرفع الحديث ان الله قال أبث العلم فى آخر الزمان حتى يعلمه الرجل والمرأة والعبد والحر والصغير والكبير فاذا فعلت ذلك بهم أخذتهم بحقى عليهم .

ورواه أبو نعيم فى الحلية فى ترجمة أبى الزاهرية من رواية ابن وهب عن معاوية بن صالح عن أبى الزاهرية به إلا أنه قال بلغنى فى بعض الكتب فذكر مثله وانتشار العلم قد حصل بسبب ظهور المطابع التى كثرت الكتب بطبعها وصارت تدخل فى يد الناس كافة إلا أن الحديث يفيد أن الراديو سيزيد انتشاراً فى العالم حتى يمتلكه كل غنى وفقير ويوجد فى أغلب البيوت وانها ستكثر المحاضرات العلمية فيه حتى يعلم ذلك من طريقه النساء فى البيوت والخدم والعبيد وغيرهم فيقع ما أخبر الله تعالى به نسأل الله اللطف والسلامة والمغفرة بمنه .

« فائدة » ستخترع فى المستقبل أمور أخرى لم تظهر بعد منها أحذية ونعال فيها آلات فوتوغرافية أو نحوها يرتسم فيها كل ما يقابلها أو فونوغرافية ينحبس فيها كل صوت قريب منها وكذلك سياط بهذه المثابة تستعمل فى الجاسوسية وتوضع أمام من لم يشعر بها ينطق ويتكلم أو يفعل ما يريد وكل ذلك يرتسم وينحبس فى ذلك الحذاء أو السوط فيكون مخبراً به وشاهداً عليه ويتركه الرجل فى بيته بين أهله فاذا رجع أخبره بجميع ما فعلوه هكذا وردت به السنة وهو وإن لم يظهر بعد فقد ظهرت بعض انواعه .

فصـــــل

ومن رسائله الى الفقراء رسالة الى أهل طنجة أرسلها اليهم فى سـفرة سافرها ونصها : اخواننا فى الله وأحباؤنا فيه السادات الاجلة البدور الأهلة الذاكرون الله بالزاوية الدرقاوية من الحضرة الطنجاوية صغيراً وكبيراً السلام عليكم ورحمة الله ما قامت الأشياء بالله أما بعد فموجبه السؤال عنكم وعن كافة احوالكم أجراها المولى على وفق آمالكم وإن تفضلتم بالسؤال عن عبدكم ومحبكم فانه لا بأس عليه الا ما يجده من ألم فراقكم والبعد عنكم نطلب الله أن يجمعنا معكم قريباً غير بعيد هذا واعلموا رحمكم الله أن الانسان إذا كان ممتثلا لأمر الله مجتنباً لنهيه بظاهره وباطنه متحققاً مع ذلك فى الظاهر بالعبودية التى هى الذل والفقر والضعف والمسكنة وعدم الانتصار للنفس ومتحققاً فى الباطن بالحرية التى هى الحلم والكرم والصدق والمحبة والثقة بالله وحسن الظن به والرضى والايثار والزهد والاكتفاء بالله وغير ذلك من أخلاق مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان الانسان لا محالة عارفاً بالله مستغرقاً فى شهود عظمة الله لا يعرف غير الله ولا يميل لسواه رفض فى الله كل شىء وخلصه الله من كل شىء فهو أبدا يهيم فى الله ويتلذذ بمشاهدة قدسه وسناه ليس له عن نفسه إخبار ولا مع غير الله قرار لا يفرح بشىء سوى الله ولا يحزن على شىء أزال الحق سبحانه عنه الحجب والاستار وأكرمه بالمعارف والأسرار فانيا عن وجوده باقيا بشهوده ذاته مع الخلق وقلبه مع الحق يأخذ من كل شىء ولا يأخـذ منه شىء يتقرب الى الله بكل شىء ولا يحجبه عن الله شىء حركاته وسكناته كلها لله وبالله ، ليس للشيطان عليه من سبيل لأنه عبد الله ، ومن كان عبد الله تولاه الله ، ومن تولاه كفاه إن عبادى ليس لك عليهم سلطان . ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فما حجب القلوب عن علام الغيوب إلا عـدم العبودية ، فلو وجدت لوجد الخـير كله ،

وحيث فقدت فقد الخير كله ، فما اتصف أحد بما ذكرنا إلا وكان من الأولياء الكاملين لأنه تخلق بسنة سيد المرسلين ، ولا اتصف بأضدادها إلاوكان من الشياطين ، ولو كان عند الناس من الصالحين وأنتم يا إخواننا لكم إن شاء الله المعرفة الكبيرة والولاية العظيمة بحسب مالكم من الصدق فى العبودية التى هى سبب للعلوم الالهيـة ، فأنتم فى الزيادة بفضل الله شعرتم بذلك أم لا . وستعرفون ذلك ، ولا بد لكل واحد منكم أن يكون منه ما يكون إن ثبت فى باب الله وفى صحبتنا ، إذ بالثبات مع بعضنا يكون لنا ولكم ما كان لمن قبلنا من أوليـاء الله تعلموا اليقـين بمجالسة أهل اليقين . المرء على دين خليله فاثبتوا ولابد ولا بد فى اخـلاص العبودية لله ، ولا تلتفتوا لشىء من الأشياء ، ففى الله كفاية ، وارتكبوا شرائع الطريق لتلوح عليكم أنوار المعارف والتحقيق ، وتأدبوا بآداب الأوليـاء لتكونوا من المخصوصين الاصفياء ، فبالآداب تفتح الابواب ، وبارتكاب الشروط يذاق المشروط واسمعوا ما أقوله لكم وافهموه واعملوا به فانكم فى الحين تعرفون ربكم وتصلون إلى مناكم ، وهو أنى أحبكم ان يكون لكم القصـد الصحيح والصدق الصريح والآداب المرضية والاحوال الزكية وحفظ الحرمة وحسن الخدمة ورفع الهمة ونفوذ العزيمة وخلع العذار والذل والانكسار والبذل والايثار وصحبة العارفين الاخيار وبذل المجهود فى الطاعـة والاذكار . أما القصد الصحيح فالمراد به ان تكون نيتكم فى صحبتنا تحقيق العبودية ومعرفة الحق سبحانه لا طلب كرامات ، ولا إدراك درجات ، إذ ذاك حاصل على كل حال . وأما الصدق فالمراد به ان تصدقوا بسر الخصوصية والولاية وتجزموا بما لاهلها من المعارف الالهية وتعتقدوا ذلك فى شيخكم والصدق بهذه الكيفية هو أساس الوصول ، فكل من صدق وصل وذاق ومن لا فلا ولو بقى مع الشيخ سنين لان الشيوخ لا ينظرون فيمن لا يعتقدهم سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وبهذا الصدق يغترف المريد من بحر المعارف ولو

كان ضعيفاً عن المجاهدة ، ولولا ضيق القرطاس لذكرنا لكم من فضل هذا المقام ما تحير فيه الألباب . وأما الآداب المرضية فالمراد بها حفظ الجوارح من المخالفة والبواطن من الاعتراض والتدبير والاختيار والمحافظة على السنن النبوية ومحبة الاخوان وتعظيم الشيوخ .

وأما الأحوال الزكية فالمراد بها خرق عوائد النفس وتخريب ظاهرها أكلا وشرباً وملبساً والسعى فيما يزيل جاهها ورياستها ، فكل من خالفها وخرق عوائدها بهذه الكيفية خرقت له العوائد وأكرمه الله بالعلوم والفوائد كيف تخرق لك العوائد وأنت لم تخرق من نفسك العوائد مع كف الأذى عن الناس وحمل الأذى منهم .

وأما حفظ الحرمة فالمراد بها حرمة الشيخ حاضراً وغائباً حياً وميتاً فلا يجلس الفقير فى موضع يهان فيه شيخه ، وكذلك حفظ حرمة الاخوان بأن يحمل أذاهم ويكف أذاه عنهم ويكرمهم لله ويعظمهم لله ، وكذلك حرمة المسلمين فلا يذكرهم بسوء .

وأما حسن الخدمة فالمراد بها خدمة الشيخ والاخوان ومجاهدة النفس لله .

وأما رفع الهمة فالمراد بها أن يكون القصد معرفة الله والتمتع بمشاهدته مع الاعتماد عليه والفرار من كل شىء إليه .

وأما نفوذ العزيمة فالمراد بها أن لا يمل ولا يكسل ، ولا يلتفت إلى شياطين الجن والانس ، بل يدوم على سيره حتى يصل لربه .

وأما خلع العذار فالمراد به أن يخلع الأوصاف المذمومة، كالكبر والحرص على الدنيا ، ويتحلى بالأوصاف المحمودة ، كالحب والشوق والزهد ، ويخلع لباس العز والاستكبار ويلبس لباس الذل والانكسار .

وأما الذل والانكسار فالمراد به الخضوع لله سبحانه ولا يظهر ذلك إلا

بالخضوع لعباده .

وأما البذل والايثار فالمراد به الجود بالنفس والمال محبة في ذى العظمة والجلال ، والجود شرط فى الطريق أقبح من كل قبيح صوفى شحيح .

وأما صحبة العارفين فالمراد بها سلب الارادة لهم ، وصحبتهم وخدمتهم لله ، وهو القطب فى الطريق ، وليست المعرفة بالعزلة إنما المعرفة بالصحبة .

وأما بذل المجهود فى الطاعات والأذكار فالمراد به ألا تمرّ عليه ساعة إلا وهى فى طاعة الله ، وهذا هو المقصود من الطريق ، والأهم عند أهل التحقيق ، فكل ساعة مرت على الفقير لم يذكر الله فيها كانت عليه حسرة وندامة . فأوقات الفقير دائرة بين ذكر ومذاكرة وفكرة ونظرة ومن خلا وقته من هذا فهو فى بطالة وفترة ليس له من الطريق إلا الاسم ، لا يذوق للولاية طعماً ولا يجد لايمانه حلاوة ولا لعلمه فهما فهذه شرائع الطريق وشروطها ، فكل من عمل بما ذكرنا نال المعرفة الكبرى ، إذ ما ذكرنا هو لب الشريعة المطهرة فتخلقوا بما ذكرنا لكم ولا بد ، واستعينوا على ذلك بالله فانكم عن قريب تصلون إلى مقام تأخذون فيه العلم عن الله وتزول عنكم اوصاف البشرية ، وتحيي لكم اوصاف الروحانية وبحياتها تصلون للحضرة القدسية ولا تحجبون عنها بشيء من الأشياء ويصير الغيب والشهادة عندكم سواء ، ومن لم يسلك كما ذكرنا غلبت بشريته على روحانيته فانطمست بصيرته وحجبت بالأكوان عن المكون فخسرت صفقته وضاعت حياته ، فاذكروا الله ولا بد واثبتوا فى باب الله واجتمعوا على ذكر الله وتواصلوا وتزاوروا ، واعلموا أن أمركم عند الله عظيم وقدركم جسيم ولا بد ان يجدد الله بكم هذا الدين فاثبتوا ولا بد ولا بد والسلام .

ومنها: إلى إخواننا فى الله وأحبائنا فيه كافة فقراء العرائش حفظكم الله وسلام عليكم ورحمة الله تعالى .أما بعد: فأحبكم احبكم الله ورسوله ان تقوموا بالوظائف الدينية

القلبية والقالبية ففيها السعادة الأخروية والراحة الأبدية . فمن الوظائف النطق بالشهادتين مع اعتقاد معناهما الذى هو ثبوت الوحدانية لله ذاتا وصفة وفعلا وثبوت رسالة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع تصديقه فيما جاء به عن الله واتباع أوامره ونواهيه . فمنها وهو أهمها بعد الشهادتين أداء الصلوات الخمس فى اوقاتها المعينة لها مع إيقاعها فى الجماعة والاتيان بجميع شروطها من الطهارة الكبرى والصغرى واستقبال القبلة وستر العورة واتقان الوضوء باتقان الاستبراء الذى هو استفراغ ما فى المخرجين من الأذى مع الاستجمار بالأحجار إن أمكن والغسل بالماء بعده والاتيان بجميع الفرائض والسنن والمستحبات ، ولا بد مع هذا من المحافظة على النوافل ، كالوتر والفجر والضحى والرواتب القبلية والبعدية . ومنها الزكاة فأدوها إن وجبت عليكم ولا بد ولا بد فانها طهارة وبركة وسبب للغنى ، واحفظوا مع هذا جوارحكم التى هى الأذن والعين واللسان والبطن واليد والفرج والرجل من المنهيات ، فلا تسمعوا إلا الوعظ والذكر والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولا تنظروا إلى ما لا يحل لكم من النساء والصبيان والأمتعة ، واحفظوا ألسنتكم من الكذب والغيبة والنميمة والزور والبهتان وأيديكم من اذاية الناس فى أبدانهم وأموالهم وبطونكم من الحرام وفروجكم من مماسة ما لا يحل لكم وأرجلكم من المشى فى غير طاعة الله وقلوبكم من العجب والكبر والرياء والحسد والبغض والغل والحقد والغش والخديعة والمداهنة وحب الرياسة والتقدم وحب المدح وخوف الذم والاهتمام بالرزق والخوف من الخلق ، وتفكروا فى مصنوعات الله واستحضروا اطلاعه عليكم فى جميع الحالات ولا تستعظموا هذا فانه سهل ان استعنتم عليه بالله . ثم المؤكد به عليكم الاجتماع لذكر الله وقت فراغكم من الأشغال ، وخصوصا فيما بين المغرب والعشاء ، وفيما بين

صلاة الصبح وطلوع الشمس ففى ذكر الله فى هذين الوقتين من الفضل والثواب شيء عظيم، وتزاوروا فى الله وتحابوا فيه، وواسوا محتاجكم، وصلوا أرحامكم، وعودوا مرضاكم، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، واحتملوا أذى من آذاكم، ولا تجالسوا من يقطعكم عن ذكر الله ولا تخالطوه فانه يميت قلوبكم وفى موتها فساد الدين وضعف اليقين، وفى ذكر الله ذكره ورضاه ومجالسته وطمأنينة القلب وفى الاجتماع عليه رياض الجنة وغشيان الرحمة ونزول السكينة وحفوف الملائكة حسبما وردت به الأخبار وصحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الآثار، وإياكم والانصات لمن يعذلكم أو يلومكم فانه شيطان مارد ومطرود شارد، ولا تسيئوا لأحد من عباد الله ولا تخافوه ولا ترجوه فان الأمور كلها بيد الله، لا يملك أحد لأحد منها ضراً ولا نفعاً، ولا خفضا ولا رفعا، وصونوا قلوبكم من الطمع فى الخلق فانه الفقر الحاضر والذل الظاهر، واعلموا أنكم ان فعلتم هذا ثبتت خصوصيتكم ونلتم مطلوبكم من ربكم، أعانكم الله وقواكم ومن نزغات الشيطان حفظكم ووقاكم والسلام.

ومنها: الى كافة اخواننا فى الله السادات الفقراء العارفين الكبراء أهل الزاوية الأيوبية من الحضرة الفاسية دفع الله عنها كل فتنة وبلية امنكم الله وسلام عليكم ورحمة الله تعالى.

أما بعد تجديد العهد بمحبتكم والسؤال عن أحوالكم والتماس صالح أدعيتكم فانى أعلمكم أنه ما قامت الطريق ولا حصل طالبوها على التحقيق إلا بدوام الاجتماع مع أهلها والمذاكرة فى شروطها والعمل بمطلوباتها ولا بطل أمرها وحرم منها طالبوها إلا بالاعراض عن أهلها وعدم العمل بشروطها فاجتهدوا وفقكم الله تعالى فى القيام بشرائع الدين، والتخلق بأخلاق سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، واجتنبوا ما يبعدكم عن الله من ارتكاب المناهى الشرعية، وارتكبوا دائما ما يقربكم إلى الله من النوافل على اختلاف

أنواعها بعد أداء الفرائض العينية والزموا طهارة الثياب والبدن والمكان والوضوء دائما وصلاة ركعتين بعده فان لها سراً خاصا فى تنوير الباطن ونفى الخواطر الرديئة عنه ، وكذلك الزموا تحية المسجد والزاوية وصلاة الضحى وأقلها ركعتان ، وأكثرها ثمان ركعات وقيام آخر الليل والدعاء عقب الصلوات ، وفى وقت السحر وخصوصا إن وجدتم رقة ونشاطا فيه فان ذلك من علامة الاستجابة ، ولا تخصوا أنفسكم بالدعاء ، بل عمموا ليكون أنجح وأقرب للاجابة ، وواظبوا على حلقة الذكر صباحا ومساء إن أمكنكم ذلك وإلا ففى يوم الجمعة وليلتها وليلة الاثنين فان لهما بركة وأثراً عظيما فى التخلى والتحلى ويكفيكم نزول السكينة عليها وغشيان رحمة الله لأهلها وغفران ذنوبهم ورفع درجاتهم كما ورد ذلك فى الأحاديث الصحيحة الشريفة ، ولا تتهولوا من إذاية الخلق ، ولا تكرهوا ما نزل بكم من الفاقات والأمراض فان ذلك سيعود على من ينزل به بالخير والفوز والبركة إن صبر ورضى ورجع إلى الله وترك تدبيره واختياره وفر من حوله وقوته إلى حول الله وقوته ، والزموا الصمت إلا عن ذكر الله أو امر بمعروف أو نهى عن منكر أو إصلاح بين الناس أو مذاكرة فى علم أو عمل ، واتركوا ما لا يأتى بخير من الأقوال والأفعال ، واجتنبوا الكذب والغيبة والنميمة والتجسس على عيوب الناس ، وارقبوا الله فى سركم وعلانيتكم واستحضروا دائما اطلاعه عليكم ، وتحققوا أن ناصيتكم وناصية الأكوان كلها بيد الله سبحانه ، يصرفها كيف يشاء فيما يشاء لا فعل لأحد معه سبحانه ، ولا تشتغلوا بأمر الوقت وما هو جار فيه فان ذلك يتلف قلوبكم ويصدها عن ذكر الله وعبوديته ، وبعد ذلك لا يكون إلا مراده سبحانه واقنعوا من الدنيا بما تيسر من غير كلفة ولا تعب ولا مزاحمة ، ولا تعلق بمخلوق تعلقا يؤدى إلى رؤيته ونسيان الله تعالى لأن ذلك نوع من أنواع الشرك ، ولا تتناولوا من المأكول والمشروب والملبوس إلا ما تقوم به البنية ويقع اليه الاحتياج من

غير إسراف ولا مبالغة فان من أخذ فوق ما يكفيه أعمى الله عين بصيرته .
ومن تناول شهوته عدم صفوته وتزاوروا فى الله وتحابوا فيه فان ذلك من أعلى شعائر الدين الموجبة لمحبة رب العالمين . وعظموا المسلمين والعلماء وأهل البيت النبوى الشريف وأحبوا لهم ما تحبون لانفسكم واشتغلوا بعيوبكم عن عيوبهم واستغنوا بالله عن كل شىء سواه ففيه سبحانه الكفاية ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فى الدنيا وانظروا اليه فى الدين من غير حسد ولا حقد عليه ووقروا مقدمكم ولا بد وكبراءكم فى الطريق وفى السن ، واحترموهم لله وفى الله واسمعوا اليهم واتركوا ما تعرفون لما يعرفون فان البركة كما فى الحديث الشريف مع الأكابر ، وتحققوا أنكم ان عملتم بما ذكرناه أخذ الله بيدكم فى الحال ورحلتم إلى الله بظاهركم وباطنكم وأدركتم ما أدركه الرجال قبلكم وجربوا ففى التجريب كشف الحقائق وإظهار ما خفى من الطرائق ، وواصلونا ما دمنا فى الحياة ، فبذلك يدوم سيركم ويكمل أمركم ، والله تعالى يتولانا ويتولاكم ويحفظكم ويرعاكم ، والسلام .

ومنها : أما بعد فقد بلغنا أنك وجميع الاخوان لازلتم مشتغلين باستنشاق طاباق فى انوفكم كما بلغنا أنكم تؤذون الأخ الصالح الفقيه وتعرضون عنه إذا لقيتموه فى الطريق فلا تسلمون عليه ولا تصافحونه فساءنا فعلكم لهذين الأمرين القبيحين استنشاق طاباق وإذاية الأخ المذكور واستقبحناه غاية الاستقباح . أما طاباق فلا يخفاك انه اتفق على تحريمه علماء الباطن قاطبة والصلحاء العاملون من علماء الظاهر لا خلاف بينهم فى ذلك حتى قال العارف بالله القطب شيخ شيوخنا سيدى محمد بن ناصر ان من يستعمله فى انفه او يتدخن به فى فيه لا حظ له فى طريق اهل الله ولا ينال منها شيئا وكذلك قاله شيخ شيوخنا مولاى العربى الدرقاوى فى جماعة كثيرة من الاولياء يطول ذكرهم وفى العمليات الفاسية .

وحرموا طابا للاستعمال وللتجارة على المنوال

ولا تغتروا باستنشاق من يستنشقها من فسقة العلماء المهتوفين المارقين فانه لا دليل معهم فيها ولا نور ببصريتهم يصلون به إلى الاطلاع على قبائحها فالفرار الفرار منها والبدار البدار عاجلا إلى تركها إن أردتم سلامة دينكم وصلاح ظاهركم وباطنكم .

وأما إذايتكم للأخ المذكور فلا يخفا كم ما ورد فى توقير مطلق المسلمين واحترامهم فضلا عمن كان منهم من أهل الفضل والصلاح والدين وذوى الشيبة والوقار المتين ، ويكفيكم قوله عليه الصلاة والسلام « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره » وقوله عليه الصلاة والسلام « ثلاثة لا يستخف بهم إلا منافق الامام المقسط والعلم العامل وذو الشيبة فى الاسلام » إلى غير هذا من الأحاديث الكثيرة فى هذا المقام . وفى القرآن العظيم « ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه » . ومن أعظم حرمات الله المسلم الصالح ذو الشيبة فى الاسلام ، واذا كان هذا فى مطلق حق المسلم على المسلم فماذا يكون حق الأخ على أخيه فى الله الأخوة الصالحة التى جعلها الله بابا من أبوابه وطريقا موصلا إلى رضوانه مثل أخوتكم مع الأخ المذكور فانها بمقتضى شريعة الطريق تستوجب عليكم أن تعظموه وتحترموه وتوقروه وتتحملوا ما عسى أن يصدر منه ، وتقابلوا إساءته بالاحسان محبة فى الله ورسوله وتخلقا بأخلاقه صلى الله عليه وسلم وأخلاق كبار أمته فقد كان صلى الله عليه وسلم لا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح . وكان لا ينتصر لنفسه من مظلمة ظلمها كما فى الصحيح وكان يصل من قطعه ويعطى من حرمه ويعفو عمن ظلمه ويقول بهذا أمرنى ربى وقد تبعه على هذه الاخلاق الكريمة سلف هذه الأمة وكبراؤها من العلماء العاملين والأولياء الكاملين عملا بقوله تعالى « قل إن كنتم تحبون الله

فاتبعونى يحببكم الله » فنـالوا بذلك ما نالوه من سعادة الدارين ، والفوز بمعرفة الله ورضاه فى الـكونين ، وليست الطريق إلى الله بكثرة الصـلاة والصيام ، بل بالقيـام بالواجبات فقط مع التواضع وحسن الخلق مع الأنام والاعراض عن النفس وما تطلبه من الرياسة وعلو المقام فبهذا بلغوا ما بلغوه من الولاية الـكبرى والصلاح وحسن الختام .

وقد قال شيخ شيوخنا القطب مولاى العربى الدرقاوى رضى الله عنه من تعذر عليـه الفتح فليعمد إلى فاس الاحسان وليحفر به فى قـلوب الاخوان يخرج له ينبوع من العلم يغنيه عن مـذاكرة الذاكر ومطالعـة الدفاتر فاعرف هـذا وعرف به الاخوان . وبادروا بعـد ذلك إلى الأخ المـذكور واستعطفوه عليـكم واستجلبوا رضـاه ووقروه وقدموه فى الصلاة وغيرها فانه ممن يستحق التعظيم والتقديم ولا تلتفتوا إلى أنفسكم وأهوائـكم وكونوا معه يداً واحدة فى الله ولا تسمعوا فيه قول قائل ولا إنـكار منـكر فان الوقت كما لا يخفاكم لا يسلم أحـد من أهله هذا واجتهدوا فى طاعة ربكم وعمارة أوقاتـكم بذكر الله والتخلق بأخـلاق مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم واقنعوا من الدنيا بمـا تيسر من غير كلفة ولا تعب ووقروا الـكبير وارحموا الصغير واعتمدوا على الله فى جميع أموركم وقدموا أمره سـبحانه وتعالى على شهوات أنفسكم ليقرب عليـكم الطريق وتحصلوا فى أمد قريب على التحقيق وتلقوا الله كما تحبون وتنالوا فى الآخرة ماتطلبون وما ترتضون وتمسكنوا فان المسكنة فى هذه الدار سبب للنجاة من البوار ومن العذاب ودخول النار وارضوا بما يبرز من القضاء يرضى الله عنكم واحفظوا أمر الله فى الرخاء يحفظـكم فى الشدة واذكروه فى اليسر يذكركم فى العسر وخافوه يؤمنـكم واتقوه سبحانه يكرمكم والله يعينكم ويحفظـكم اهـ .

ومنها رسائل أخرى مذكورة فى الأصل .

البـــاب الخامس

في سرد جملة من أخلاقه السنية السنية وأحواله الزكية المرضية التي انفرد بها في دهره ولم نرها مجموعة في غيره ولا سمعنا بها عن أحد من أهل عصره لا من الموصوفين بالولاية والمشار إليهم بالخصوصية ولا من المشهورين بالمشيخة ورسوخ القدم في التسليك والتربية فضلا عن غيرهم من أهل العلم الظاهر مع اجتماعنا بكثير من شيوخ المغرب والمشرق ووقوفنا على أخبار جل من لم نره منهم من طريق أصحابهم وكتب تراجمهم وأخبارهم بل لم نر أخبار الشيخ رضي الله عنه مجموعة إلا في السيرة النبوية وتراجم كبار أفراد الأمة المحمدية وكمل رجالها من السلف الصالح والخلف الناجح رضي الله عنهم وعنا بهم وسلك بنا بفضله منهاجهم وحشرنا في زمرتهم آمين .

فصـــــل

فمن ذلك شدة تعظيمه ومحبته واحترامه للشيوخ الذين أخذ عنهم ولو دروساً قليلة من العلم فكان يبالغ في الأدب معهم ولا يتقدم أمامهم في شيء من المسائل ولا يظهر علمه بحضرهم وإن كان أعلم منهم ولا يجادلهم ولا يناظرهم في شيء إلا على سبيل الندرة مع كمال الأدب والاحترام .

وكان يشد الرحلة من طنجة الى فاس في مدة ثمانية أيام لزيارة شيوخه ، ولما توجه الى القاهرة لحضور مؤتمر الخلافة شد الرحلة منها إلى الشام لزيارة شيخه سيدي محمد بن جعفر الكتاني رضي الله عنه . وكان وقتئذ ببيروت قبيل نزوله إلى المغرب ، فلما وصل إلى الباب واستأذن خرج الشيخ لمقابلته فلما وقع بصره عليه انكب على رجليه يقبلها والشيخ يحاول منعه

من ذلك وهما فى الشارع خارج الدار ومكث عنده ثلاثة أيام طلب منه فيها ان يذهب لزيارة الامام الأوزاعى ، فقال له : والله لوكان حياً ماذهبت إليه لأنى قصدت زيارتك فلا أزور أحداً معك . وكان لا يتكلم فى مجلسه كأنه لا يعلم شيئا من العلم أصلا . وكذلك كان حاله مع غيره .

وكان شديد التعظيم والاحترام لحملة العلم ولو كانوا حساده وأعداءه الذين بالغوا فى إذايته والمجاهرة بعداوته . وكان للأذكياء والنبغاء منهم أشد احتراماً ومحبة وإكراما ينوه بقدرهم ويشيد بذكرهم وينشر فضلهم بين أقرانهم . وكان لا يأتى اليه أحد من أهل العلم إلا وينهض لمقابلته بمزيد فرح وسرور ويقضى حوائجه بعناية تامة ويكسوه إن كان محتاجاً ويتحفه بتحفة من كتاب ونحوه ويصله بالمال إن كان من الفقراء المحتاجين ويبالغ فى الوصاية باكرامه والبر به من هو مكلف بالضيوف فى زاويته إن كان من الغرباء الوافدين عليه وهم الأكثرون لأن طنجة قليل بها أهل العلم لا سيما إذا سبق لأحد منهم إذاية فى جنابه أوكان يتظاهر بعداوته ويتكلم فيه بما لا يليق فى غيبته فانه يقربه ويدنيه ويكرمه بما لا يكرم به أحب الناس اليه . فمنهم من ينجع ذلك فيه لسابق عناية من الله به فتنقلب عداوته محبة وإذايته براً واعتقاداً . ومنهم من يغلب عليه طبعه اللئيم فيصر على ما كان عليه ، وربما خالف ظاهره باطنه . وقد بالغ بعض القضاة فىعداوة الشيخ إرضاء للفرنسيين وتقرباً اليهم إلى أن مرض مرضا أعيى الأطباء دواؤه وايس معه من العلاج بل والحياة . فأرسل الى الشيخ يقول : قد عجز الأطباء وانقطع الرجاء ولم يبق إلا الالتجاء الى الله تعالى وأنتم أبواب الله فعالجه الشيخ بأدوية وصفها له فشفاه الله فى الحال وبعد قيامه استدعاه الشيخ وعمل له وليمة فاخرة .

وجاء بعد انتقاله قاض آخر فأظهر من العداوة للشيخ إرضاء للفرنسيين

أشد مما كان يظهره الأول ودام على ذلك مدة إلى أن اجتمع بالشيخ مرة فلاطفه وأكرمه فانقلبت عداوته محبة وتلمذ للشيخ وصار لا يصدر إلا عن رأيه وإذنه فى غالب مهامه إلى أن مات .

وقدوفد بعض المدرسين إلى طنجة واتخذها داراً وشرع فى التدريس وتظاهر أيضا بالعداوة الشديدة للشيخ حسداً منه وبغضا كما هى عادة جل طلبة الوقت وصار يعرض بالشيخ فى دروسه ومجالسه واشتهرت إذايته بين الناس كافة لكثرة ما كان يطلق لسانه فى الشيخ رضى الله عنه الى أن نزل به ما اضطره إلى القدوم إلى الشيخ والتعلق به كما هى عادة الله مع غالب أعدائه فأكرمه وبالغ فى ذلك وأعطاه كتباً جليلة فتلمذ له وأخذ عنه الطريق وصار يلازم مجلسه ويستفيد منه مدة إقامته بطنجة . ثم لما رجع إلى بلده صار يتردد منها بقصد زيارة الشيخ واستشارته والاستعانة به فى بعض أوطاره ، وطلب منه أن يلقنه الاسم الاعظم ويأذن له فى علم الحرف والتصرف به ، فأجابه بأن هذا الأمر رفع سره والتصرف المطلق به من سنة عشرين وسيقع الاذن بذلك فى سنة أربع وخمسين فاذا حصل الاذن فانى سأعلمك لتتقدم فلما دخلت سنة أربع وخمسين كتب الشيخ اليه يخبره بأن الاذن قد حصل ويقول له : إذا أحببت ذلك فاقدم . قال فشغلني عن القدوم شأن الوظيفة الحكومية وأشغالها وبقيت أنتهز الفرص وأسوف نفسى باليوم وغد الى أن بلغنى خبر وفاته فحصل من الندم والحسرة مالا يعلمه الاالله تعالى وكم لهؤلاء من نظير .

وكان يحترم حملة القرآن العظيم ، لاسيما حفاظ السبع والمتقنين لعلم القراآت بل كان يتعشق هذا الصنف من الناس ويطير فرحاً عند رؤية واحد منهم ويكرمه بكل ما لديه ويحفظ ترجمته وأخباره ، ويتحدث بها عنه فى غيبته تشويقاً للسامعين الى الاشتغال بحفظ القراءات وعملا بالوارد فى اكرام حملة القرآن ، وربما علل ذلك فى بعض الأحيان بقوله ان هذا العلم كاد ينقطع وقد كان جدنا سيدى الحاج أحمد يتقنه غاية وبلغ فيه رتبة الامامة ، فكان

الواجب علينا الاقتداء به والاعتناء بهذا العلم ، فاذ فاتنا فلنحب أهله ولنعتن بهم .

وكان يبالغ فى إكرام معلم أولاده القرآن ويحترمه احتراماً زائداً وينزله منزلة سامية ويغدق عليه من العطايا مالم يعهد له نظير من غيره ولا ينازعه فى شيء يفعله بأولاده ولو ضربهم الضرب المبرح الخارج عن الحد الشرعى الأدبى ، بل والذى لا يكاد يقبله أكثر الناس فكان لا يكلم المعلم فى ذلك بكلمة ولا يوافق من يريد أن يكلمه من الفقراء ، بل يرد اللوم فى ذلك على الولد ، ويقول لو لا أنه مشتغل باللعب غافل عن حفظ سوره ولوحه لما فعل به الفقيه ذلك مع أنه كان إذا رأى معلما يضرب أولاد الناس بأقل بكثير من ذلك يعظه ويزجره ويذكر له ما ورد فى الظلم والتعدى ، ويحدد له الأدب الجائز شرعاً من عشرة أسواط ونحوها . أما معلم أولاده فلا يسمعه شيئاً من هذا إكراماً له وقياماً بحقوقه وهضما لحقوق نفسه وعياله وحبا فى القرآن العظيم .

وكان يحترم أولاد الشيوخ وحفدتهم ويبالغ فى إكرامهم قياما بحقوق آبائهم وأجدادهم ، فكان إذا قصده واحد منهم يبادر إلى لقائه ويظهر مزيد الفرح والسرور به والاعتناء بشأنه ولو كان غير ظاهر الاستقامة ، ويصله بما لديه ، ويلاطفه ويسأله عن أحوال والده وجده وعن كتبه ومؤلفاته ، وربما كان الشيخ هو المفيد له بترجمة والده وجده وذاكرا له منها مالا علم له به .

وكان يوصى أصحابه وقرابته بمثل ذلك ويقول لايغتر بظاهر حال أولاد أهل الله فانهم كالرماد لا نار فيه ، ومن داسه بقدمه أحرقه . فذرية الأولياء وإن لم يكن لهم من الفضل والصلاح ما كان لآبائهم فان من آذاهم أصيب بعطب غيرة من الله لأسلافهم ، وكذلك كان يذكر فى حق أولاد العلماء ما يحمل على إكرامهم واجتناب إذايتهم واحتقارهم ، هذا كان حاله

رضي الله عنه مع اولاد مطلق العلماء والشيوخ أما أولاد شيوخه هو وحفدتهم فكان إذا ورد عليه واحد منهم يظهر له من الاجلال والتعظيم مالا يوصف بل كان ينزل نفسه منهم منزلة التلميذ من الشيخ .

حدثني بعض من كان يجالسه قال : حضر شابان من حفدة شيخه سيدى محمد بن جعفر الكتانى من فاس ونزلا عند الشيخ فحضرت معهما ذات يوم وقد أتى بالعشاء فصرنا نأكل والشيخ يحدثنا عن أدب الأكل وماينبغى أن يقدم ويؤخر من جهة الشرع والطب ويذكر ما يتعلق بذلك من الحكايات فلما أردنا الانصراف قام إلى باب الغرفة وصار يصفف نعال الشريفين ، فقالا له يا سيدى نستشير معك فى الذهاب الى تطوان . فقال لهما النظر لكما فان عزمتما على الجلوس فأنتما فى بيتكما أو على الذهاب فالرأى رأيكما وأما أنا إلا عبد لكما .

وكان لأهل البيت أشد احتراماً وتعظيما ومحبة من كل من تقدم على أى حالة كانوا لا يشترط فيهم صلاحاً ولا علما ولا فضلا ولا تقوى ، ويقول : علينا أن نقوم بواجبهم ونكل أمرهم الى الله تعالى . وكان لحبهم يحب الكتب المؤلفة فى فضلهم ويبحث عنها ويجمعها ويحب من يحبهم ويؤلف فى فضائلهم ويعنف من تصدر منه اذاية لواحد منهم اذا كان من تلامذته وأقاربه ولو أنهم من أهل البيت أيضا صدر ذلك منه مراراً عديدة مع جماعة كثيرة فى وقائع مختلفة .

منها : أن شريفا صدر منه ما يوجب تأديبه من الحكومة التابع لها ففر وجاء الى الشيخ مستجيراً فآواه وأكرمه وأنزله فى منزل مجاور لبيته مع بعض أنجاله وجعله واحداً منهم . فلما طالت عليه المدة واشتاق الى أهله ووطنه ، صار يسعى فى ذلك فاتصل ببعض الجواسيس فأرشده الى أن الطريق التى يمكن رجوعك بها وعفو الحكومة عنك هو التجسس على الشيخ وتقديم أخباره وأسراره اليها ، فأجابه الى ذلك واستصدر له العفو من

الحكومة فصار يتردد اليهم وينقل لهم أخباراً يفتريها حتى أدى به الطيش إلى أن نسب إلى الشيخ أمراً عظيما فى السياسة . ثم جاء اليه يريد أن يحتال عليه فى الموافقة على أمر يحقق له دعواه وكذبه على الحكومة ففطن له الشيخ وصار يلاطفه ويعده ويمنيه مع إكرامه وبره المستمر معه . فلما صدر منه هذا الأمر العظيم . وكان قد سبق منه أمور كثيرة هى أخف من هذا دخل بعض الفقراء على الشيخ متضجرا من أفعال ذلك الشريف طالبا منه الاذن فى طرده وأمره بعدم الوصول اليه . فقام الشيخ فى وجهه وغضب من قوله ، وصار يقول له : ماذا نفعل مع جده صلى الله عليه وسلم أيتصور فى ذهنكم أننا نؤذى شريفا ونطرده من بابنا ولو فعل بنا من الاذاية ما فعل ، وهل رأيتم إذايته وصلت الينا ولحقنا من ضررها شىء ، فلم يمكن ذلك الفقير إلا ان يستسمح الشيخ مما صدر منه فى حق ذلك الشريف وينصرف .

وكان بعض الأشراف يلازم مجلسه سنين عديدة ويتناول الطعام معه فى أكثر الأيام ويكثر من سؤاله عن المسائل العلمية والتصوفية فاطلع منه يوما على مر يناقض مقصود الحكومة فأفشاه اليها ليتوصل بذلك الى المال أو إلى وظيفة وحصل من ذلك الافشاء فتن عظيمة دامت أكثر من عشر سنين ، ولا يزال أثرها ساريا إلى اليوم فما زاده ذلك الا محبة فيه وتقريبا له وسعى له بعد ذلك فى وظيفة يرتزق منها ودام معه على البر والاكرام والمحبة الأكيدة إلى الختام .

وهذا كان دأبه وديدنه مع أولاده وقرابته يربيهم دائما على محبة الأشراف وتعظيمهم وإجلالهم وعدم مقابلتهم بمثل ما يبدو منهم من الاساءة ووجوب تحمل ذلك منهم ويذكر الأحاديث الواردة بذلك وحكايات الصالحين فى تعظيمهم وما نالوه من الفضل عند الله تعالى وعظيم المنزلة عنده بسبب ذلك حتى كان الصغير من أولاده وخدمه يعرف من قدر اهل البيت

مالا يعرفه الفقيه العـالم المدرس وكذلك فى حق الفقراء المنتسبين إلى أهل الله لأنه كان يربيهم على ذلك بحاله وقاله وعمله ، لا بمجرد لسانه كما كان يحقر فى أعينهم الدنيا وأهلها و يعرفهم أن محبتها والنظر اليها والى أهلها بعـين الرغبة والاجلال يوجب المقت من الله تعـالى والبعد من رحمته ويظلم القلب ويبعده من حضرة الله ويطمس عن بصيرته عن التطلع إلى العلوم والانتفاع بمـا يسمعه المرء من القرآن والسنة والموعظة ، ويقول يكفيكم أن الأغنياء لو بلغوا ما بلغوا فى الغنى لا يصلون إلى درجـة اليهود والنصارى فهم أغنى الناس على الاطلاق ، فلو كانت الدنيـا ترفع من قدر صاحبها لرفعت من قدر اليهود والنصارى.ولجرتهم إلى الخير وما ينفعهم فى آخرتهم فى أمثال هذا مما كان رضى الله عنه يربى به أولاده وأقاربه ويذكره فى كل مناسبة حتى نشأ أولاده والحمد لله على هذا الخلق العجيب الغريب بين أهل الوقت فلا يرون لأحد من أهل الدنيا والمراتب السامية فى الغنى والرياسة قدراً ولا مزية من جهة غنـاه ورتبته ، بل ينقبضون عنه وينـكمشون ولا ينبسطون إلا عنـد رؤية أهل الفضل والدين والصلاح والعـلم والعمل لا سيما اهل البيت منهم والذاكرين المنتسبين إلى أهل الله .

فصـــــل

وكان يربى أولاده من صغرهم على الزهد فى الدنيا والرغبـة فى الآخرة وتعلق القلب بالله وبمحبته والاقبال على العلم والعمل وترك ما فيه شهوات النفس وحظوظها ، ولا يسمح لهم بالتشبه بأهل الدنيـا وأولاد الأغنياء فى الملابس لا فى جودة الثياب ولا فى كيفية اللبـاس ، بل يلبسون ما توسط من الثياب وعلى الـكيفية التى يلبسها الفـقراء ولا يسمح لأحد أن يلبس فى رجليه الشرابات أو التقاشير ولا غيرها من ملابس الترف أصلا . واذا رأى على واحد منهم شيئا من ذلك غضب غضبا لا مزيد عليه ، بل لو رآه يزنى

ما زاد غضبه على ذلك ويأخذ منه ذلك الثوب فيقطعه او يتصدق به فى الحال ويقول لا تطمعوا فى الترفه والتدخل فى مداخل الدنيا ما دمنا بالحياة . فنحن لو أردنا ان نلبسكم الذهب والفضة ، وكان ذلك جائزاً لما غابنا ذلك والحمد لله ، ولكن موتكم والبكاء عليكم خير لنا من البكاء منكم ورؤيتكم فى حالة لا ترضى الله والرسول وتخالف طريقتنا وطريقة سلفنا الصالح .

ومن أغرب أحوال الشيخ رضى الله عنه مع أولاده أنه كان يقدم غيرهم فى المحبة والاكرام وجميع المصالح عليهم بما لا أظنه يوجد فى غيره بل أكاد أجزم بأنه انفرد به فى الدنيا من مشرق الشمس إلى مغربها بحكم ما فطر الله عليه طبيعة المخلوق من تغلب حب الأولاد على القلب وفرط ميله إليهم لا سيما إذا كانوا بارين مطيعين سائرين فيما يحبه الوالد ويرضاه كما كان أنجال الشيخ معه ومع ذلك فكان لا تتعارض مصالحتهم أو واحد منهم مع مصلحة غيرهم من أقاربه وأصحابه وفقرائه بل وأعدائه الاقدم مصلحة ذلك الغير عليهم ولا جاء أحد صديقاً كان أو عدواً يشتكى أحد أولاده فى شىء حقاً كان أو باطلا الاقام وقعد انتصارا لذلك الشاكى وأهان ولده أمامه ليشفى منه غيظه مع علمه غالباً بأن الحق مع ولده لا مع ذلك الغير وبالجملة فما رأيته فى مدة ثلاثين سنة ولا سمعت عنه يوما أنه انتصر لأحد من أولاده فى شىء أصلا حتى من كبر منهم وصار فى مصاف الرجال بل والعلماء ونبغاء الطلبة بل غاية ما كان يفعله أنه بعد أن يهينهم ويوبخهم التوبيخ البالغ الذى لا يوبخه أحد من أهل الدنيا عبده فضلا عن ولده أمام أحد من الأوباش والغوغاء فاذا ذهب ذلك المشتكى وانفرد بالولد يصير يلاطفه ويقول نحن ما فعلنا بك ذلك بغضاً وإهانة إنما فعلناه امتثالا لأمر الله تعالى وقياماً بحقوق الأخوة وارادة أن تكون كاملا من أكابر الرجال وأفراد الأمة فانه لا يسامح فى حقه ويصبر على هضم نفسه امتثالا لأمر الله وتخلقا بالأخلاق المحمدية إلا أكابر الرجال

والناس اليوم لا يرون لأحد حقا عليهم وإنما يرون حقوقهم على الغير فعلينا أن نقوم بحقوقهم ولا نطمع فى أن أحدا منهم يقوم بحقنا وإذا ساويناهم فى أخلاقهم واضاعتهم للسنة المحمدية وعدم العمل بها فمن يقوم بها وأى مزية لنا من بينهم ونحن ماشرفنا الله تعالى إلا بالعمل بالعلم والاقتداء بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاصبروا ولا تضجروا من هذا فما قريب تجنون ثمرته وهم سيجنون ثمرة أعمالهم وإن كنت على الحق فسيرفع الله قدرك ويزيدك بهذا شرفا ويمدك فى باطنك بأنوار ومعارف وسترى بعينك ماذا سينزل بعدوك إذا أنت امتثلت أمر الله فيه إذ عصاه هو سبحانه وتعالى فيك ولم يقم بحقوقك التى أوجبها الله عليه فى أمثال هذه المواعظ يسلى بها الولد بعد إهانته وسلبه حقوقه وتمكين عدوه منها أما كونه ينتصر له أو يرد على من نسب إليه شيئا من القبائح والجرائم المحقق كذبها فذلك من المستحيل عنده ، ثم ليس هذا مع البعيد فقط بل ومع الاماء والخدم داخل الدار أيضاً فما علم أنه رجح ولداً له على خادم أو خادمة أصلا فقد كانت عنده أمة أورثها فرط حلمه ومساواته للخدم بأهله وعياله أنفة وكبرا وعظمة لا توجد إلا فى أبناء الأمراء والوزراء فكانت تأنف أن تطيع أوامر أحد من أولاده ، وزوجاته بل وحتى الشيخ نفسه فيما لا يوافق هواها فكانت بخلقها هذا تثير غضب أولاده فى بعض الأحيان فربما أسمعها بعضهم كلمة قبيحة فاذا أوصلت ذلك إلى الشيخ انتصر لها وجاوز الحد كأنه هو العبد وهى ابنته مع أنه كان كثيرا ما يتضجر من خلقها وكبريائها وعظمتها ثم يقول أمرنا الله تعالى بتحمل أخلاق السفلة وعدم معاملتهم بالمثل ونحن نرى أن لو طردناها لما وجدت من يتحمل خلقها ويقبلها على كبريائها وعظمتها وهى لالوم عليها فى طبعها لأنها جاهلة وإنما اللوم على من يدعى العلم والطريق واتباع السنة فهو الذى يجب عليه تحمل خلقها .

وكان بعض أهل الأخلاق السيئة والطباع الذميمة من أتباعه يؤذى الفقراء

غاية ويجترىء عليهم بيــده فلا يكاد يمر عليه شهر بدون أن يؤذى أحدا من الفقراء ، ثم زاده حلم الشيخ وكرم أخلاقه غرورا إلىأن ضرب يوما بعض أولاده النبغاء الأذكياء ضربة منكرة ثم لم يكتف بذلك حتى صار إلى الشيخ يشتكيه أيضاً فبدلا من أن ينتصر الشيخ لولده وبخــه غاية أمامه وأمره أن يقبل رجله ويستسمحه فصار يقبل رجله أمام الشيخ رضى الله عنه .

وكان له تلميذ آخر اليــه المنتهى فى سوء الخلق والظلم والفسق والجور والـكبرياء والعظمة والخداع والغش والرياء والتصنع وســوء الظن والجهل بالله تعالى والغرور بالنفس والحقد والحسد واذاية الفقراء والأشراف والعلماء والصغار والـكبار وأهل الحواضر والبــوادى وأهل الفضل والدين لا سيما من قرابة الشيخ وأنجــاله فانه يأتى إليهم من أنواع الاذاية والاهانة بما لا يتسـع لشرحه إلا مجلد حافل وبما لا أظن أنه يخرج معــه من الدنيا سالما أو يختم له بخير لفرط اذايته بحيث قل عنه حجاج الفقراء ولا لوم اللهم إلا أن يتداركه الله برحمتــه فيتوب توبة تـكون سبباً لأن يرضى الله عنه ذلك الجم الغفير من الأشراف والفقراء والفضلاء فيسامحوه فيما أتاه إليهم وإلا فلا بد من القصاص .

وكان الشيخ رضى الله عنه لفرط حماقة هذا الرجل وكثرة اذايته للضيوف والزائرين والفقراء لايكاد يمر عليه يوم أو أسبوع بدون شكاية ترد به وشكاية منــه بمن يظلمهم ويؤذيهم لانه لفرط حلم الشيخ وكرم أخلاقه وفرط حماقتــه هو واغتراره وقلة حيــائه وصفاقة وجهــه كان يؤذى ولد الشيخ ويسمعه من السب والاهانة أمام الناس ما هو لائق بدينه وسفالة أخلاقه أو ابن اخى الشيخ او صهره او ابن عمه العــالم الفاضل المدرس او الأشــيب الذاكر المنتسب ثم بعد ان يقضى وطره من عرضــه واهانته يسبق إلى الشيخ بالشكاية لاعتقاده ان الله اباح له عرض المسلمين والاشراف والفقراء من أصحاب ابن الصديق بل وظهورهم وأموالهم لفرط اغتراره بنفسه وجهله بالله

تعالى وبدينه فكان الشيخ رضى الله عنه يعقد المجالس المتعددة بين أصحابه وقرابته لأمره إياهم بطاعة هذا الجبار العنيد والكون تحت أمره ونهيه مع المبالغة فى تعظيمه واطرائه والثناء عليه فلا يزيده ذلك إلا عتواً واستكباراً وغلظة وفظاظة وجرأة على الله وعلى عباده الصالحين استغلالا لجاه الشيخ رضى الله عنه ومكانته ولولا هو لما شعر بوجوده أحد من أضعف ضعفاء أولئك الأفاضل ولما خطر بباله هو أن يجترىء على واحد منهم كما هو حاله اليوم فضلا عن ذلك الجمع العظيم وهكذا استمر الشيخ رضى الله عنه يقاسى معه الشدائد مع المبالغة فى إكرامه وتعظيمه إلى أن صرفه الله عنه وشغله بدنياه وأراح الفقراء والزاوية وعمارها وزوارها من ظلمه وجوره وفساده نسأل الله العافية ولو لم يدل على عظمة أخلاق الشيخ رضى الله عنه وحلمه المفرط إلا صبره على إذاية هذا الرجل لكفى ذلك دليلا على انفراده فى الدنيا من مشرق الشمس إلى مغربها فوالله لو شئت أن أشرح إذاية هذا الرجل للشيخ فى ذريته وأهله وقرابته وضيوفه وزواره وأصحابه ثم فى نفسه وما نسبه اليه أخيراً وما قاله فيه مع عظيم اكرام الشيخ له ومواساته إياه لذكرت من ذلك ما يتعجب منه المتعجبون ويستغرب من سماعه السامعون ويجزم القارىء معه بأن الشيخ لاثانى له فى الدنيا فى عصره بل ولا قبله بكثير فى هذه الاخلاق فلقد حكى العارف الشعرانى بعض البعض من عشر هذا عن القطب امولانا عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه ثم قال وهذا خلق غريب لا يوجد لا عند أفراد اه مع أنه والله ما ذكر عشر عشر معشار ما رأيناه من الشيخ رضى الله عنه فى هذا الباب ولقد رأيت أحد أفراد هذه الأمة المحمدية فى عصرنا ممن لم تر عيناى بعد الشيخ رضى الله عنه مثله فكان يميل إلى أولاده بحكم العاطفة ويقدمهم على غيرهم ولا يقبل كلمة سوء من أحد فيهم حتى إنه صدر مرة من بعض أكابر أصدقائه ومحبيه الذين كانوا يخدمونه وينفقون

عليه ويواسونه المدة الطويلة أن قابل بعض أولاده بكلام فيـه غلظة حتى أبكاه فدخل على والده وهو يبكى فانفعل والده لذلك انفعالا كبيراً وقابل ذلك المحب فأغلظ له جداً حتى إنه لما خرج من عنده حلف بالطلاق الثلاث أنه لا يبيت فى بلد فيه الشيـخ وسافر فى الحال وكان ذلك آخر اجتماع بينهما مع أن الرجل من أكابر الأعيان الطاعنين فى السن وأعاظم المحبين ولم يصدر منه إلا كلام قاله بشـدة فى حالة غيظ فـكيف بمن يصر على إذاية الأنجال وجميع الأقارب أزيد من خمس عشرة سنة بمالا يقبله المرء فى أصحابه وأحبابه. فـكيف به فى أنجاله وأقاربه من نسبة جميع الجرائم والطامات حتى فى العقائد والديانات والاهانة باليد واللسان والسعى فى الاذاية والعـداوة واشاعة الامور القبيحة بالزور والبهتان لـكى يتوصل بذلك الى أن يخلف الشيـخ فى مكانه حيث أن أولاده بالمثابة المذكورة ويعلم الشيـخ منه ذلك وتبلغه إذايته إياهم صباح مساء طول السنين المذكورة ومع ذلك يعقد المجالس الحافلة أمام أعين المئين من الناس يعظم فيها من قدر هذا الجبار العنيد ويرفع من شأن هذا الجاهل المجرم بما لو أنفق مهجته ليشهد له به من هو دون الشيخ بمراحل لم يصـل اليه فـكيف بالشيـخ أمام أولئك الجم الغفير من الناس تحقيقاً لمطامعه وإجابة لرغبته التى يؤذى أولاده من أجل الحصـول عليها فلذلك قلنا إن هذا مما انفرد به الشيـخ رضى الله عنه فى الدنيا بأسرها والحمد لله رب العالمين .

فصـــــل

وكان رضى الله عنه وصـالا لرحمه الدينى والطينى أما الدينى فقد ذكرنا صنيعه بأشياخه وأنجالهم وحفدتهم واما رحمه الطينى فـكان لا ينسى أحـداً مع كثرتهم بل يواسى الجميع ويكسوهم كل سنة ويدفع أصـدقة من يريد التزوج منهم حتى تترتب عليه فى ذلك ديون عظيمة كل سنة وينفعهم بالمال

والجاه والتوسط والشفاعات عند الحكام مع كون الكثير منهم يؤذونه بأنواع من الاذايات وربما جاءه الواحد منهم فلم يجد ما يعطيه فأخذ من أولاده وأعطاه وكان يحض دائماً على صلة الرحم وبر الوالدين ويبالغ فى ذلك ولا يرخص لاحد فى مخالفة من هو أكبر منه من العائلة فضلا عن إخوانه فضلا عن والديه وهو الذى أمرنى بتأليف مطالع البدور فى بر الوالدين لقضايا صدرت من أقوام ووقع لبعض قرابته ان ادعت عليه امرأته العجوز البالغة من العمر ستين سنة عقب طلاقه إياها انها ولدت منه ولداً ذكراً لايدرى من أين اتت به فلما ذهبت القابلة والنسوة لم يجدن عليها أثر الولادة والنفاس اصلا والولد مرضوع بجنبها فأراد الرجل ان يلاعنها فامتنع اخوه وكان اكبر منه وقال له ان اللعان فيه بهدلة لا نرضى بها فأراد ان يخالفه ويلاعن لتحققه بافتراء المرأة عليه من وجوه متعددة فلما جاء الى الشيخ يستشيره قال له حيث إن اخاك أكبر منك قد أمرك بالتخلى عنه فامتثل امر الله ولا تخالف إشارة اخيك .

فصـــــل

كان الشيخ رضى الله عنه لايخرج إلى السوق ولا يمر فى الشوارع العامرة بالناس والدكاكين بل اذا خرج يوما لزيارة أخ أو إجابة دعوة أو إلقاء درس يختار الشوارع الخالية ولو كانت بعيدة فراراً من الشهرة وتعظيم الناس وسلامهم عليه وكان يسرع فى المشى ويمشى قصداً لا يلتفت لرؤية من عن يمين الطريق وشمالها حتى كان كثير من الناس إذا رآه مقبلا لا يتهيأ له الخروج من دكانه للسلام عليه حتى يجده قد فاته وبعد عنه .

وكان لا يتولى شراء شيء بنفسه من أمتعة الدنيا وحاجياتها كيفما كانت الا الكتب وكان لا يماكس فيها ولا فى غيرها إذا اشتراه على سبيل الندرة وكان التجار يعرفون منه ذلك فيطلبون فى الكتب أضعاف ثمنها فان وافقه

الـكتاب أخذه وإلا رده ولا ينقص من الثمن وكذلك إذا كان حاضراً وقت شراء شيء له لا يدع أحد يما كس عنه بل يقول للوكيل ادفع الثمن وهكذا كان حاله فى البيع ايضاً فانه إذا توقف على ثمن شيء باعه بما اعطى فيه ولو كان ربع عشر ثمنه وكم كتاب ثمنه أربعون ريالا واشتراه هو بأكثر من ذلك فأتاه فيه سمسار الـكتب بأربعة وخمسة فباعه كلسان العرب وفتح البارى وشرح عليش على خليل وأمثالها وكم كتاب اشتراه بعشرين فأتاه فيه السمسار باثنين وقد باع بهذه الطريق مئات المجلدات حيث استدان مرة نحو الف ريال من رجل فجاء يطلبه منه قبل أن يتيسر فأخرج مكتبته وباعها فما أتاه السمسار فى كتاب بربع ثمنه قط بل على النسبة التى ذكرناها من نصف العشر وربعه وهو يعلم ذلك ويعلم فساد سيرة ذلك السمسار ومايصرف فيه تلك الأموال التى يسرقها فى البيع ولـكنه لفرط حيائه وحقارة الدنيا فى نظره لا يتوقف فى شيء من ذلك وأين هذا من علماء الوقت الأغنياء الذين يمكثون الزمن الطويل يما كسون على القرش ونصفه وربما وعظوا من رأوه لا يما كس ويستدلون بحديث ينسبونه إلى النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ما كسوا السوقة وهو حديث باطل موضوع ويعرضون عن السنة الصحيحة الواردة بمدح السهولة فى البيـع والشراء والقضاء والاقتضاء والتخلق بأخلاق كمل الرجال .

وكان لا يمد رجليه لا وحده ولا مع أهله لا فى حالة المرض ولا فى حالة الصحة وربما مد إحـداهما قليلا إذا تعب بحيث لا يخرج بمدها عن هيأة المتربع وإنما كان يكثر من جلوس القرفصاء لا سيما عند المطالعة والـكتابة وما رأيته طول عمرى ماداً رجليه ولا مسـتلقياً على قفاه ولا رافعاً إحدى رجليه على الاخرى فى جميع أطوار حياته وذلك لعظيم مروءته وكمال أدبه مع الله تعالى وتمام مراقبته .

وكان اذا غاب عنه أحد من جلاسه تفقده بالسؤال عنه وإذا علم بمرضه

تعاهده بالسؤال وارسال من ينوب عنه فى العيادة مع وصف الأدوية ولربما أرسل فى اليوم الواحد مرتين وثلاثاً حتى كأن المريض من أعز أولاده كل ذلك قياما بحقوق الأخوة فى الله وآداب الصحبة والمجالسة فيه .

وكان إذا قصده أحد للسلام عليه لايعطيه يده يقبلها إلا إذا انحنى هو على رأسه يقبله أوكتفه وما رأيته أعطى أحداً يده يقبلها وهو لايتحرك ولاينحنى عليه أصلا إلا مع أولاده الصغار حتى كنا نتعجب غاية ممن نراه يمد يده من العلماء والشيوخ لمن يريد تقبيلها من غير تحرك ولا تقبيل منهم أيضاً ليد المسلم أو رأسه ظناً منا أن ذلك هو حال جميع العلماء حتى علمنا أن ذلك مما انفرد هو به لكمال أدبه مع الله ومع خلقه وتمام تواضعه مع الناس .

فصـــل

وكان مفرد زمانه فى قضاء حوائج المسلمين والسعى فى مصالحهم لايكاد يمر عليه يوم دون أن يجرى الحق سبحانه وتعالى على يديه فيه قضاء حاجة أو حوائج على اختلاف المراتب والطبقات حتى كأن بيته من أعظم الادارات المقصودة لذلك فمنهم من يطلب المال والمعونة ومن يطلب الدواء أو التوسط فى دخول المستشفى مجاناً أو السفر كذلك أو إخراج ورقة الجواز إذا كان ممنوعاً أو متعسراً على مثله أو الشفاعة عند الحكام فى قضية أو عند القاضى أو عند بعض التجار أوطلب وظيفة أو إسقاط دين أو تظلم من ظالم أو نحو هذا مما كان يمضى غالب يومه فى قضائه إما بنفسه أو بارسال رسل ومكاتب إلى من يتعلق ذلك به من الحكام داخل البلد وخارجها إذ ما كان أحد يقع فى ورطة سواء من أصحابه أو من غيرهم إلا ويقصده لفك معضلته وتفريج كربته وكان يحث غيره على ذلك وينوه به غاية ويقول إن المجاهدة ومكابدة الأعمال الشاقة التى كان عليها السلف الصالح فى الطريق قد انقرض وقتها لفساد الزمان وانقلاب طبائع أهله ولم يبق اليوم إلا المحبة والتقرب إلى الله تعالى بالسعى فى قضاء حوائج

المسلمين وإغاثة الملهوفين فان ذلك مما يرحم الله به العبد ويأخذ بيده كما أخذ هو بيد أخيه ومن أخذ الله بيده فقد أوصله الى كل خير

وكان فى بذل الجاه عند الحكام المسلمين والنصارى فى الشفاعات لا يجارى ولا يبارى ولا يستطيع أحد من أهل العصر أن يدرك له فيه غباراً فان الخلق كانت تتوارد عليه أفواجاً أفواجاً فيرسل الرسل ويكتب المكاتب بخطه إلى الجهات البعيدة إلى القاضى والباشا والوزير والمندوب والحاكم والمراقب بالمدن والقبائل والمنطقتين السلطانية والخليفية وحكام الدولتين الفرنسية والأسبانية وعند سفراء الدول الأخرى أيضاً إن تعلقت المسألة بواحد منهم وربما كتب فى اليوم عدة مكاتب وربما أرسل الى الحاكم الواحد عدة مكاتب أيضاً فى القضية الواحدة بحسب رغبات أهلها لا يضجر من ذلك ولا يمل ولا يرد طلب طالب فيه ولا مسألة سائل سواء قضيت تلك المسألة وقبلت الشفاعة أم لا وربما يبلغه عن الحاكم كلام قبيح قاله فى حقه وفعل فعله مع بعض أصحابه ثم إذا جاء اليه أحد يطلب الشفاعة عند ذلك الحاكم أيضاً لا يعتذر له بأنه عدوله أو بأنه لا يقضى مايطلبه منه بل يسارع إلى إجابة طلبه وإرسال رسول من جهته أو كتابة كتاب اليه فلا يحصى كم مسجون خرج من السجن بشفاعته بعد أن حكم عليه بالسنين الطويلة ومنهم جماعة كبيرة ممن حكم عليهم بالثلاثين والأربعين لعظم جرائمهم السياسية فيخرجون بعد السنة ومنهم من لم يكمل السنة ولا يحصى كم وظف فى الوظائف المختلفة من قضاء وولاية على قبيلة أو قرية وكتابة وتدريس وعدالة وغير ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الحصر ولا رأينا شرقاً وغرباً من الظاهرين فى الوقت بالفضل والرياسة والجاه من يستطيع أن يتحمل عشر معشار ذلك ولعلم الناس بهذا أقبلوا على الشيخ رضى الله عنه

وكان لا يدعو أحداً من الناس باسمه المجرد بدون سيادة ولا يذكره كذلك فى غيبته ولا يقتصر على ماجرى به عرف الناس من لفظ السى بحذف الدال

بل يذكر لفظ السيادة بكامل حروفه للشريف والمشروف والعالم والجاهل وكان كثيراً مايخاطب الرجل بمولاى زيادة فى الاكرام والاحترام امتثالا لأمر الله تعالى بأن نقول للناس حسناً .

وكان لا يمزح ويكره المزاح وينهى عنه حتى صغار الأولاد ويتعجب من أهل العلم الذين يمزحون لاسيما فى دروسهم فانه لما توجه الى القاهرة سنة خمس وأربعين وكان يسمع عن بعض الظاهرين فيها بالدعوة الى العمل بالسنة والقيام بها وبلغه أنه يقرأ سنن أبى داود ذهب لحضور مجلسه والتبرك به فلما جلس لم يلبث إلا لحظة واذا بالشيخ المربى صاحب الأتباع الكثيرين الداعى إلى السنة فيما يزعم شرع يحكى العروس ليلة دخولها ويقلد فعلها وصوتها وصوت النسوة اللاتى يكن معها وهو بلحيته البيضاء فوق الكرسى يقرأ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والعمايم واللحى ملتفة حوله . فقام الشيخ وخرج مندهشاً مما لم يره ولاخطر له على بال أن يوجد مثله . وكان يحكى ذلك على سبيل التعجب طول حياته ويضيف اليه ماهو قريب منه مما رآه من بعض علماء القاهرة أيضاً

وسمعت شيخنا الامام أبا عبد الله سيدى محمد بن جعفر الكتانى يقول كنت مرة أذكر الله تعالى فرأيت كأن شخصاً لطيفاً وقف بين يدى فقلت ماالذى قطع فلاناً عن الله وسميت بعض من كان فى الوقت ينسب الى الصلاح ويحدث عن نفسه بأشياء فقال كثرة مزاحه مع الناس قال وقلت له ذلك باللسان الذى لم يفتر عن الذكر يعنى أنه نطق بالكلام المذكور فى حال نطقه بالذكر معاً فكان رضى الله عنه يحكى أن هذا من الكرامات التى وقعت له

وكان الشيخ رضى الله عنه ينزل الناس على حسب منازلهم التى أنزلهم الله بها ويعامل كل واحد منهم ظاهراً فى المجاملة والبر والاكرام على قدر منزلته فلايساوى بين الشريف والعامى ولا بين العالم والجاهل ولا بين أهل النسبة والفقراء المتجردين لذكر الله وغيرهم من عوام الناس امتثالا للسنة الواردة بذلك وقياما

بالتدبير الذى جعله الله بين عباده فقد دبر لهم الأحوال من غنى وفقر وعز وذل ورفعة وضعة وعلم وجهل وقوة وضعف لتقوم بذلك حكمته فيهم فالعاقل عن الله يعامل أهل وقته على مقتضى تدبير الله لهم فاذا لم ينزل الرجل منزلته التى أنزله الله بها فقد استهان به وجفاه وترك موافقة الله تعالى فى تدبيره وكان ما أفسد أكثر مما أصلح لأنه عكس تدبير الله على مقتضى الحكمة البالغة فالغنى اذا أقصيت مجلسه أو حقرت منزلته حقد عليك وتظاهر بعداوتك وأطلق لسانه فيك لان الله تعالى لم يعوده ذلك بما خوله من نعمه وأسبغ عليه من فضله واذا عاملت الولاة والحكام بعاملة الرعية فقد تعرضت لما هو أكثر فساداً وأعظم شراً لاعتياده العزة والرفعة ونفوذ الكلمة والاقتدار على التصرف فى الغير فلا يقبل المساواة بمن ولاه الله الحكم عليهم وأعطاه نفوذ الأمر فيهم ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم أنزلوا الناس منازلهم كما فى سنن أبى داود من حديث عائشة رضى الله عنها وفى مقدمة صحيح مسلم عنها قالت أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننزل الناس منازلهم

وورد من طرق متعددة تزيد على العشرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا أتاكم كريم قوم فأكرموه وفى رواية اذا أتاكم شريف قوم قال الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربى رضى الله عنه يدخل فيه كل كريم لقوم من سائر الأديان لا من المسلمين فقط لعموم اللفظ وشمول المعنى وتحقق الحكمة والعلة فى الجميع

وكثير من الجهال يظن أن الصلاح والتقوى فى التسوية بين الشريف والمشروف وربما يجعل ذلك ميزاناً يحكم به بالفضل وغيره فيقول لو كان فلان فاضلا أو صالحا لسوى بين عباد الله فى الرتبة والبر والاكرام واذ لم يفعل ذلك فهو ذو وجوه وأغراض وذلك من فرط جهلهم ووجود حقد فى بواطنهم وتطلع الى منازل ورتب لم يجعلهم الله من أهلها ولم يقض لهم بشىء منها فهم شيوعية الجاه والمنزلة يريدون أن يقلبوا حكمة الله فى خلقه وسنته بين عباده

والمقصود أن الشيخ رضى الله عنه كان ينزل الناس منازلهم كما امره الله تعالى وذلك بالنسبة الى الظاهر اما مايتعلق بالباطن والمحبة القلبية فكان عجباً لايفهمه الا من يفهم ما لأولياء الله تعالى من الكشف والنظر بعين البصيرة والسير مع مراد الله تعالى من خلقه فى الباطن وحقيقة الأمر لا ماهو ظاهر عليهم فى الحال من الحركات والأعمال فان الشيخ رضى الله عنه كان يحب بعض الأفراد محبة زائدة ويعتنى من شأنهم وقضاء أوطارهم وإجابتهم إلى رغباتهم بما لا يفعله مع غيرهم ويفرح بمقابلتهم وينشط لمجالستهم وهم من أهل التخليط فى الأعمال وتبلغه عنهم تلك الأعمال السيئة والأفعال القبيحة وترد اليه الشكايات المتعددة فلا يزيد على أن يتعجب من ذلك أو يضحك منه ولا يكلم ذلك الشخص ولا يوبخه وربما كلمه بلين ورفق اجابة لرغبة الشاكى فقط ولا ينقص ذلك من قدره عنده ولا يصرف وجه عنايته عنه ويأتيه من هو مشهور بالتقوى والصلاح والفضل فيثقل عليه أمره ويقابله ظاهراً بما يجب له ويقضى ما ربه ولا يفرح وينشط كما يفرح لغيره وهذا من كشفه رضى الله عنه واطلاعه على المقامات الباطنة

قال سيدى ياقوت العرشى رضى الله عنه ينبغى للفقير ان يعظم الناس بحسب دينهم فى الباطن لا بحسب ثيابهم قال وقد رأيت شيخنا ابا العباس المرسى رضى الله عنه كثيرا ما يكرم بعض العاصين اكثر من بعض المطيعين فقلت له يوما فى ذلك فقال انه يظهر لى من المطيع عز النفس والكبر ومن العاصى ذل النفس والاحتقار فأعامل كل واحد بحسب ما فى باطنه هـ . فحالة الشيخ رضى الله عنه جامعة بين الشريعة والحقيقة وهى اعلى من حالة العارف الشعرانى رضى الله عنه الذى كان ينزل الناس منازلهم بحسب ما هم عليه من ذل النفس ولا يعظم بحسب الظاهر والثياب والضخامة لما فى ذلك من مخالفة الحكمة التى دبرها الله لخلقه وامر بها على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم .

فصـــــل

وكان لا يذهب إلى أحد من أهل الدنيا وأغنيائهم المشاهير ولو ألحوا فى دعوته لا سيما فى أواخر عمـره وكذلك كان لا يذهب إلى الحـكام ولا إلى المحاكم بل كان يرسـل فى الشفاعات أصحابه تارة بالمشافهة وأحياناً بالـكتابة وربما طلب من الحاكم أن يقدم اليه ليكلمه فى القضية إذا كانت مهمة فلا يتأخر عن ذلك لا سيما حكام النصارى فانهم كانوا يريدون الشرف برؤيتـه والافتخار بالاجتماع به ولم يذهب إلى الحـكام بنفســه إلا مرتين ســافر من طنجة إلى تطوان لمقابلة المندوب السامى فى شأن مصالح المنطقة الغمارية مع أن السبب البـاعث إلى ذلك هو أن طنجة محـل إقامة الشيخ كانت تحت يد الدولة الفرنسية والمراقبـة الدولية والحاكم العام للمنطقة الخليفية بتطوان لا يسمح له بالقدوم إلى طنجة فلذلك اضطر الشيخ أن يشد الرحلة لمقابلته مع عظم مصلحة تلك القبائل كافة .

وكان شديد الـكراهة للرياسة ، ولمن يميل اليها ويستجهله غايه ويعد قلبه فارغا من النور والاخلاص فى الأعمال اذ لو كان نور العمل حالا بقلبه لاكسبه حب الخفاء والتواضع والاستـكانة لله عز وجل ولعرفه بقدر نفسه ومنزلتها من خالق الله تعالى الذين يريد ان يترأس عليهم وما يدخل على دينه فى ذلك من عظيم الشر والفساد فـكان لا يميل الى ما فيــه رائحة تقدم أو رياســة حتى التقدم للصلاة ، بل كان يقدم لها من حضر غالبا وكذلك اذا خرج لا يترك أحدا من أصحابه يتبعه ويمشى خلفه لاسيما مع التمدد والـكثرة بل يقدمهم أمامه اذا كانوا قاصدين جميعا محلا واحدا ومن أجل ذلك كان لا يمر فى الشوارع العامرة لئلا يزدحم الناس للسلام عليه كما قدمناه .

وكان لا يتميز عن العامة فى الملبس ولا ينفرد عنهم بشىء أصلا مما ينفرد به العلماء وأرباب المناصب والوجاهة فلايلبس الـكساء ولا البرنس ولايركب

البغلة كما هو حال علماء المغرب ووجهائه قبل ظهور العربات ، بل وحال علماء المشرق أيضاً فكان لا يزيد على الجلابة التي يلبسها عامة النـاس لا فى الأعياد والمواسم ولا فى سـائر الأيام ولا يوافق على شيء من ذلك لأنجـاله أيضاً ولا يتصوران يرى واحداً منهم متميزاً عن عامة النـاس فى شيء من الأشياء أصلا وذلك كان حال النبي صلى الله عليـه وسلم والسلف الصـالح والعلماء العـاملين حتى ظهر الفجار من العلماء الذين هم ليسوا على شيء وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً فترخصوا فى الترف والترفة وتوسعوا فى مخالفة الشريعة والسنة محتجين لهوى نفوسهم بالمصالح المرسـلة الهادمة للدين منمقين ذلك ومزوقين إياه لالقـاء الغبار فى أعين العوام حتى لا يحتقـروهم ويفسقوهم لمخالفـة ظاهر الشريعة ولذلك كانوا شر من تحت أديم السماء قطع الله دابرهم ونصر الدين بهلاكهم والقضاء عليهم آمين .

وكان يكره التشبه بأهل الدنيا فى الملبس والمعيشـة وفراش البيت وكل ما فيه رفاهية وترفع على الناس فلا يلبس الثياب الرفيعة الجيـدة ولا الرقيقة ولا ما فيـه خيط واحد من الحرير ولا الثوب المزرر كالقفطان والفرجيـة ولا ما تفصيله وهياته من شكل لباس المترفين وهياتهم ولا يفعل ذلك بأحد من أولاده وإذا أهدى له أو لأولاده شيء منها تصدق به فى الحال ولم يكن يفرش فى الغـرف والبيوت زرابى وسجاجيد أصلا بل كلها مفروشـة بالحصر ومراتب التبن إلا غرفة أو اثنتين فكانتا بمراتب الصوف والحصر ولما ظهر النور الـكهربائى امتنع من ادخاله مع حـرص الناس عليـه فى ذلك مدة تزيد على العشر سنين لأنه كان فى بداية ظهوره من شـأن الأغنياء والمترفين وما أذن بادخاله إلى بيته حتى عم جميع النـاس غنيهم وفقيرهم وشريفهم ومشروفهم ولما بنى بيته وكان الواقف على البناء بعض أصحابه فعمل بمقتضى نظره زليجا فى الحائط وشـبابيك ذات أقواس منمقة فلـما سكن بالدار ومرت مدة أمر بقلع تلك الشـبابيك وإزالة الزليج من الحيطان حتى صـار البيت فى شكله كبيوت الفقراء وعامة الناس .

وكان يغضب غضبا شديدا إذا رأى من أحد أولاده ميلا لأبناء الدنيا فى التشبه بهم والسير على منهاجهم لأنه كان لا يرى ذنباً أعظم من حب الدنيا والدخول فى مداخلها والتطلع إلى أهلها ويقول لأولاده افعلوا ما شئتم فانى أرجو لكم رحمة الله إلا حب الدنيا وطلبها والتشبه بأهلها فانه لا يرجى لكم فلاح مع ذلك وكيف ينظر الله إليكم ويرحمكم ويفتح بصائركم وقلوبكم ملطخة بحب الدنيا التى هى أبغض شىء إلى الله تعالى ونحن لا نحب منكم مالا ولا خدمة وإنما نحب أن تكونوا رجالا نلقى الله تعالى بكم فى صحيفتنا وتبيضوا وجهنا مع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وذلك بالعمل بالسنة واتباع طريق السلف الصالح لا بحب الدنيا والبحث عنها فان كل من فى الدنيا حاله كذلك فأى فائدة للعلم والعمل إذا كنا من جملتهم وهذا من أغرب ما اختص به الشيخ رضى الله عنه وخالف به أهل عصره من شيوخ الوقت وفضلائه فضلا عن علماء الوقت الفجار الذين هم أشد الناس حبا للدنيا ورغبة فيها وحرصا عليها وعلى تعليم أولادهم ما يوصلهم إلى الدنيا ولو بذهاب دينهم وكفرهم وإلحادهم لا بارك الله فيهم ولا فى أولادهم فما خرب الدين إلا من جهتهم .

وكان شديد الكراهة لما فيه تشبه بالكفار ولو فى الشىء اليسير ويبالغ فى الزجر عن ذلك والنهى عنه ويتعجب من حال علماء مصر فى التشبه بهم فى لبس أحذيتهم وهيأة فراشهم ومساكنهم وفى الأكل بالشوكة والسكين وقص اللحى وحلقها ويقول ما شموا رائحة العلم ولا وصل شىء منه إلى قلوبهم وإنما هم سماسرة الشر والفساد يحترفون بالعلم ويأكلون به ويضلون من يقتدى بهم لظنه أنهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ومعاذ الله أن يكونوا ورثة الأنبياء مع ما هم عليه من هتك الشريعة وخراب الدين فكان لا يتصور أن يقطع أحد الخبز بالسكين على مائدته فضلا عن أن يأكل بالشوكة والسكين ولا يتصور أن يلبس حاجة مما فيه تشبه بالكفار لولده الطفل الرضيع ابن شهرين فضلا عمن فوقه ، بل والكتب على كثرتها كانت عنده موضوعة وضعا عربيا

كل مجلد فوق الآخر إلى نحو عشرين مجلداً وكان دائمـا يتعب فى أخذ المجلد الذى يريده لا سيما إذا كان هو أسفل مجلد وطولب مرارا أن يضع الـكتب على الشكل الحديث كل مجلد قائم بنفسه لسهولة تناوله فأبى لما فيه من التشبه بالفرنج فما بالك بما هو أكثر من هذا وأقرب شبها منه بأحوالهم ولما دخل بعض بيوت كبار العلمـاء ومشايخ الاسلام فى مصر ورأى هيأته الفرنجيـة المنـكرة كان يتعجب ويضحك من صنع الله بهم ولا ينقضى عجبـه منهم ، ويقول لا أدرى كيف يستجيزون هـذا أو يرضونه لدينهم ولا من أى دليل يعتمدون فى ارتـكابه نسأل الله العافية .

وإذا كان العارف أبو الحسن ابن ميمون ألف فى أواخر القرن التاسـع كتابه غربة الاسلام بين المتفقهة والمتفقرة بمصر والشام وما والاها من بلاد الاعجام وحكم فيه بكفرهم وردتهم ومروقهم من الدين فما بالك لو رأى هؤلاء المجرمين المتفرنجين بل هم والله شر من تحت أديم السماء كما ورد فى السنة المطهرة .

فصـــــل

وكان يكره الوظائف الحـكومية وينهى عنها كل من يحبه ويأمره بالتباعد منها والتكسب بالحرفة والتجارة لا سيما خطة القضاء والشهادة فانه كان يبالغ غاية فى الزجر عنها والتنفير منها ويقول لان يبيع طالب العلم الفحم والحطب والنعناع ويدور به فى الأسواق والشوارع خير له فى دينه ومروءته من تولية القضاء والشهادة اليوم لغلبة الشر والفساد على أهل هـذين الخطتين بل كان ينهى عن مجالسة القضاة والعدول ويجعل مجالستهم دليلا على فساد الأخلاق والتهور فى الدين فقد أخبرته يوما أنى رأيت بعض أهل العلم الموصـوفين بالصلاح جالساً فى دكان بعض العدول فصار يبدى عجبه الشـديد ويقول كيف استجاز الجلوس معهم وهو يعلم حالهم بل نهى مرة بعض أنجاله عن

المرور من الشارع الذى فيه دكاكين العدول .

وجاء اليه مرة من يخبره بأن أحد أصهاره ولى رياسة محكمة الاستئناف بطنجة كأنه يريد بشارة الشيخ بذلك فغضب وقال له تريد بشارتى بما يؤسف له ويحزن من أجله هذا شىء فيه اتلاف دين المرء وذهابه فلا يفرح به وجاء اليه مرة صهر له يستبشره فى تولية منصب خليفة القاضى بتطوان إذ عرض عليه ذلك المنصب من أهلها وأبى أن يتقدم اليه حتى يستشير الشيخ لعلمه بكراهته لذلك فمنعه منه وأمره بالتدريس ووعده إن امتثل أمره أن يفتح الله تعالى عليه بالرزق من حيث لا يعلم وأن لا يحتاج طول عمره فكان كما قال .

وكان رضى الله عنه وقافاً عند الشبهات شديد التيقظ فى شئون الورع يتنبه لما لا يتنبه له غيره ويقف عند مالا يظن بأحد الوقوف عنده من الدقائق والخفيات ولا يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه ويراجع أقوال أئمة المذاهب ويحيط بما فى الأمر من رخصة وعزيمة وتخفيف وتشديد وعند ذلك يترخص فى الفعل والاذن لغيره ويرجح جانب المنع فيتأخر عنه وعن الاذن به وقضاياه فى هذا كثيرة جداً بالنسبة لامور الحادثات والمخترعات الجديدة التى يحتاج إلى بحث عن حكم الله فيها بل التنبه لمسائل الورع كان من أخص أحواله وأهم الامور عنده حتى كان ينبه العالم والفقيه والصوفى الكامل الواحد منهم يظن أنه من أشد الأشياء موافقة للشرع وانه لا محظور فيه أصلا فاذا ما بين له وجه ذلك تعجب من دقة نظر الشيخ وغوصه على الحقائق فى هذا الباب وربما توقف من جهة التهمة وسوء الظن ويقول ان الفعل جائز شرعا لا محظور فيه ولكن الله أمرنا أن نتباعد من مواقف التهم وأن لا نوقع المسلمين فيه وربما علم حكم الله فى المسألة من جهة الدليل من الكتاب والسنة ونصوص فقهاء المذهب ولكنه لخفائه على كثير من الناس لا يأمر به حتى يقول للسائل مثلا استصدر فتاوى العلماء حتى لا يكون هو مستأثراً بعلمه

ومعرفته وربما توقف فى نفسه حتى يسأل العلماء وهو من أعجب الأحوال وأغربها بالنسبة الى ماكان عليه من الاطلاع الواسع فى الفقه بحيث لايكاد يشذ عن علمه منه فرع لا سيما بعد التصدى للبحث والاطلاع وتوقف فى تجليد الكتب عند مجلد نصرانى حيث لم يكن بالبلد مجلد مسلم فعرف حكم الله فى ذلك من الدليل ووقف على أقوال الأئمة فيه ولم تطمئن نفسه دون استفتاء العلما فأمرنى بارسال سؤال الى مفتى الديار المصرية وعالمها شيخنا الشيخ محمد بخيت وكتب هو رضى الله عنه الى مفتى الديار المغربية وفقيهها سيدى المهدى الوزانى .

فكتبت إلى الأول ما صورته ما قولكم أطال الله رعيكم فى تجليد كتب التفسير والحديث والفقه وغيرها عند مجلد كافر هل ممنوع كما يؤخذ من كلام بعض المالكية إذ قال يمنع بيع التوراة والانجيل للكفار وكذا إعطاء دراهمنا التى فيها اسم الله لهم لما فى ذلك من إهانة اسم الله وكلامه أم هو جائز كما يستفاد من رسالة النبى صلى الله عليه وسلم الى هرقل كما فى الصحيح وفيها اسم الله وذكر آيات من كتابه أفيدونا بجواب كاف مبسوط بالأدلة الشرعية ولكم الثواب .

فأجاب بقوله اطلعنا على هذا السؤال ونقول قال قارىء الهداية أهل الذمة فى المعاملات كالمسلمين فما جاز للمسلم فعله فى ماله جاز لهم ومالا فلا اه وكتب الأصول والفروع مشحونة بأن الكفار فى المعاملات كالمسلمين سواء لهم فيها ما للمسلمين وعليهم ما عليهم وكتب الأحاديث مملوءة بأنه صلى الله عليه وسلم استعان بالكفار فى عدة أمور اذا علمت هذا علمت أنه يجوز للمسلمين أن يعاملوهم بجميع المعاملات من بيع وشراء واستصناع أهل الحرف منهم كما يجوز لهم ذلك مع المسلمين ولذلك لما كان مدار المعاملات على الدراهم والدنانير وكانت تلك فى صدر الاسلام عليها تماثيلهم لم يستنكف المسلمون عن تداولها والمعاملة بها فيما بينهم وفيما بينهم وبين الكفار المتوطنين معهم

فى دار الاسلام كما لم يمتنعوا من مبايعتهم واستصناعهم كما أن عبد الملك بن مروان لما ضرب الدراهم والدنانير فى عصره كتب عليها بعض آيات قرآنية لسبب أمر مذكور فى التواريخ تداولها الناس كافة وتعاملوا بها بلا فرق بين مسلم وذمى ومن هذا يعلم أن تجليد كتب التفسير والحديث والفقه وغيرها من الكتب المشتملة على بعض آيات من القرآن وبعض الأحاديث عند مجلد كافر أن هذا من قبيل الاستصناع واماما نقل عن بعض أئمة المالكية وهو قوله يمنع بيع التوراة الخ . فمثله ايضاً موجود فى كتب الحنفية قال فى شرح السير الكبير لاينبغى للامير أن يبيع التوراة والانجيل والزبور من المشركين مخافة أن يضلوا به فيكون هو السبب فى فتنتهم واصرارهم على الكفر وذلك لا رخصة فيه وكذلك لا يبيع من مسلم وكذلك لايقسمه بين الغانمين وأما الدراهم والدنانير فلا بأس بقسمتها وبيعها قبل أن تكسر ألا ترى أن المسلمين يتبايعون بدراهم الأعاجم وفيها التماثيل والتيجان ولا يمنع أحد من المعاملة بذلك وإنما يكره هذا مما يلبس أو يعبد من دون الله من الصليب ونحوه اه . ولا شك أن هناك فرقا بين الاستصناع وتجليد الكتب لأن المقصود منه مجرد هذا العمل لا غير ، واما بيع التوراة ونحو ذلك فالقصد التمليك نعم لا يجوز ان يجلد القرآن لأن مسه للمحدث مكروه تحريما او حرام لما فيه من مس الكافر له عند التجليد ولا شك فى انه محدث اما حدثا اصغر او كلا من الحدثين هذا ما رأيناه والله أعلم اه .

وأجاب الثانى بقوله وأما تجليد النصرانى للكتب فيظهر أنه لا بأس به إن لم يظهر منه مكروه فى تجليدها لحمل أمرهم على الطهارة فى الأشياء التى يتناولها وقد تذاكرت مع بعض العلماء المشاهير هنا فقال لى لا بأس بذلك ويمكن الكم النظر فيها إذ يرى الحاضر ما لا يرى الغائب .

وكان لايأكل طعام الكفار ولا حلواءهم وسمعته مرة يقول من نعم الله على أنى ماذقت الشكولاطة فى حياتى ولما توجه إلى القاهرة مكث طول مدة السفر لايأكل إلا الخبز والزبدة ولا يأكل مايقدمه أهل البابور من الأطعمة الفاخرة

لأهل الدرجة التى ركب فيهـا ولا من المباحة مثل السمك المقلى والبيض والخضروات ونحوها

وكذلك لايستعمل دواءهم إذا مرض خوفاً أن يكون فيه خمر أونجاسة مع أنه كان يأمرغيره بالتداوى عندهم وتناول أدويتهم لـكنه لايستعمل ذلك فى نفسه وكذلك كان لايترك فى بيته آنية أو ثوباً فيه صورة ولو غير مجسمة وكم أبدى عجبه حين زار بعض كبار العلماء بمصر ورأى فى بيته انصاف صور الرخام المجسمة كما كان يتعجب من لبسهم للقفاطين التى سداها قطن ولحمتها حرير ولا يتفق له مايراه من أحوالهم مع العلم والعمل به

وكتب إلى مرة وأنا بالقاهرة يقول وتغيير كم اللباس به حيث اضطررتم اليه لعدم ملبوس المغاربة هنا كم لا بأس به ولـكن ولا بد ولا بد اجتنب مايترخص به علمـاء مصر من الحرير الـكثير الذى يستعملونه فى ملابسهم فان ذلك من أقبح مايرتكبونه من رخصهم البعيدة من متـانة العلم والدين المحبوبة للشارع اه

قال فى النسمات لماترجم لورعه رضى الله عنه كان قوياً فى دينه محافظا على أوامر الشرع واقفاً عند حدوده آخذاً بالعزائم تاركا للرخص لايقدم على الأمور حتى يعلم حكم الله فيها ولا يتناول من الأشـياء إلا ماتحقق حليته واتضح حكمه وبانت سلامته ولا يحوم حول ماوقع فيه التردد والشبه بل كانت جميع شئونه مبنية على ماهو خالص من الشبه سالم من الاعتراض ظاهراً وباطناً وكان فى الظاهر متقيداً بمذهب مالك رضى الله عنه وفى حقيقة الأمر كان مجتهداً يأخذ الأحكام من أصلها والحقيقة من عينها ومع ذلك فـكان لايخرج عن مشهور المذهب لا فى نفسه ولا فى فتواه لغيره إلا لضرورة وذلك لـكماله وتحفظه وشدة ورعه وسلوكه طريق الجمهور الذى هو قول العـامة من الفقهاء وكان يتورع فى جميع شئونه من أكل وملبس ومسكن وكلام وقد كانت تهدى اليه أشياء من مأكولات وملبوسات فلا يتناول منها إلا ماتحقق سلامته من الشبهة والحرام وما رأى فيه شبهة أخرجه وتصدق به فى الحال وكان راسخ

القدم فى هذا المقام لاتحركه الرياح العواصف ولا تعمل فيه المطامع ولاتستميله الحظوظ ولا تستفزه الرخص فما رأيت أحداً ممن اجتمعت به من علماء الوقت وشيوخه وصلحائه أعلى همة ولا أكمل ورعا ولا أكثر عن الله فهما ولا أعظم بالله استغناء ولا اشد له محبة ولحرماته تعظيما من سيدنا رضى الله عنه فلا يعول فى جميع أموره إلا على مولاه ولا يطلب حوائجه إلا من الله ولا يتوكل إلا عليه ولا يستعين إلا به ولا يأخذ إلا من الله ولا يعطى الا لله قد سقط الكون من نظره وثبت الحق فى مشهده وسره قل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا اه

وكان لا يكثر من تناول الشهوات ولو كانت مباحة سالمة من الشبه والعلل ويحث على عدم تناولها وعلى التقلل منها ويذم المسترسل فيها لاسيما اذا كان من طلبة العلم وأهل الطريق بل يستدل بذلك على عدم انتفاع الطالب بعلمه والفقير بتصوفه وذكره ويتعجب من حال علماء الوقت وصوفيته فى ذلك .

فصـــل

وأما زهده فى الدنيا وبغضه لهـا وإعراضه عنها وعما يقرب اليها فأمر يعترف به الموافق والمخالف من المسلمين والنصارى رجال حكومة الدولتين الفرنسية والأسبانية فقد سلكوا معه كل مسلك وعرضوا عليه من الأموال ووسائل الحصول عليها مايصير به أغنى أهل المغرب فما رفع اليهم رأساً ولا أجابهم الى مطلب ولا سكت عن المعارضـة ونشر ما يقتضيه الدين من الدعاية ضدهم فى الدروس العمومية والمجالس الخاصة والعامة والسعى فى ذلك بالأقوال والأفعال وبذل الأموال إلى أن أيس من المسلمين وتحقق من مراد الله فيهم فعند ذلك لزم بيته وأقبل على شأنه وترك الأمر لله بدون معارضة فجمع بين الشريعة والحقيقة وامتثل أمر الله تعالى فى الأول والآخر وحرك سلسلة الأسباب فلما علم أن مراد الله من خلقه فى الوقت ماهم عليه ألقى مقاليد

التسليم وصار ينتظر مايبرز من الحضرة الالهية بدون حركة ولاتسبب متمسكا بعروة انتظار الفرج بالصبر عبادة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم

وقد قدم اليه مرة المندوب الأسبانى أربعين الف ريال أسبانية ليوافق على تولية بعض الظلمة الجائرين على القبائل الغمارية ، فقال له : لو ملأت لى هذه الغرفة ذهبا ما وافقت على تولية رجل يظلم المسلمين ويسلب اموالهم ويسفك دماءهم فازداد عظمة وجلالة فى اعينهم حيث لم يرفع راسا لما قدموه اليه من ذلك القدر العظيم الذى من كان يمتلكه فى ذلك الوقت كان من اعاظم الأغنياء ، لا سيما والرجل المذكور كان متوليا للحكم ، وانما كان الشيخ ينازع فى توليته ويطلب عزله من الحكام لفرط إذايته للمسلمين .

وخاطبته دولة فرنسا مراراً على يد سماسرتها بأنها ستمد له يد المساعدة فى المغرب أسره وترفع من شأنه على جميع شيوخ المغرب وتساعد على نشر طريقته وكثرة أتباعه وتسهيل مصالحه ، فكان يجيب عن ذلك بالذم الشديد لها والتصريح البالغ المنتهى فى ذلك بما لا يستطيع احد سماعه فضلا عن النطق به ، لا سيما مع سماسرتها الذين هم عندها بمنزلة الوزراء وعظماء رجال الدولة لحقارة الدنيا فى نظره وعلمه بدسائس فرنسا وما تقصده وراء ذلك من القضاء على المرء وهلاك دينه .

واما السلطان عبد الحفيظ فلو اجاب رغبته الأكيدة فى الاجتماع به ولو مرة واحدة لاغناه ، وقدم اليه من كرائم الأموال مالا يقدمه مالك لمثله فقد مكث ازيد من شهرين يتملق ويرغب ويتوسل بكل الوسائل فما اجابه إلى ذلك ولا راعى فيه الوسائط والشفعاء الذين طال ترددهم اليه وإلحاحهم عليه فى الاجتماع لأخذهم الأموال الكثيرة على ذلك من عبد الحفيظ .

وكانت عنده رسوم معادن للفضة والحديد وانواع اخرى بالبلاد الغمارية فخاطبه بعضهم مراراً فى مباشرة امرها مع الحكومة والشركات فكان يجيب بأنه لا يرشد الكفار إلى معادن المسلمين ولا يكون السبب

فى تملكهم إياها ، ولما كثر الالحاح والطلب عليه اضاع تلك الأوراق والرسوم .

وكان كثير من الفقراء يهدون اليه الأراضى ويكتبون له الاثلاث فيرد ذلك ولا يقبله كما أنه زهد فى ميراث أبيه فما سأل عن شىء منه قط لا عن رقبته ولا عن إيراده من الزيت والحبوب وغيرها فى أمثال هذا مما لم نسمع به عن أحد من أولياء العصر وشيوخه الصالحين فضلا عمن دونهم من الدجاجلة المتمشيخين فقد اغتنى جلهم بالمغرب وبلغت رؤوس أموالهم الملايين وامتلكوا القرى والضياع حتى قال لى بعض الفضلاء يوماً وهو يحدثنى عن غنى بعضهم أنه جمع من الدنيا مالم يدخل بيد جميع أسلافه من ظهور الاسلام الى اليوم بل لو جمع ما دخل بيد جميع أسلافه لما بلغ نصف ما امتلكه هو وحده كل هذا نوله بموالاة فرنسا وموافقتها على أغراضها وخدمة سياستها وتثبيت قدمها فى المغرب وتحكمها فى رقاب المسلمين حتى صار شيوخ الطريقة بالمغرب كلهم جواسيس وعيون على حركات المسلمين العامة والخاصة نسأل الله العافية منه .

ومن زهده فى الدنيا وحقارتها فى نظره عدم اهتمامه بشؤون البيت ولوازمه الضرورية فكانت الأيدى الكثيرة كلها عاملة بما تهواه فكل يطبخ مايشاء ويأكل مايشاء ويأخذ مايشاء متى شاء فكان يحصل بذلك ضياع كبير فوق الحاجة فى أمور المعيشة والأوانى والملابس بما كان يعرض غيره للاطلاع عليه وهو لايهتم بشىء من ذلك ولا يفكر فيه ولا يجعل لذلك التضييع والاسراف حداً ولا يلقى له بالا كأنه غير موجود فى البيت بل هو رضى الله عنه غائب عن كل ذلك مشتغل بربه هائم فى مراقبة جلاله وشهود جماله لا يتكدر للدنيا كلها لو خرجت من يده فضلا عما هو فى بيته .

ولما شرع فى عمارة البيت لسكناه كلف به أحد الفقراء وصار كلما يفتح الله به يدفعه له ولا يسأله عما دفع ولا ما بقى ولا يأخذ منه حسابا ولا يكلمه

فى ذلك أصلا ولا يأمر فى البناء بكيفية ولا يشير الى حاجة ولا قدم اليه يوما ليراه حتى تم ودخل يسكنه مرة واحدة ثم لما ضاق البيت اشترى دوراً كانت مجاورة له وأدخلها فيه بهذه الطريقة مع فقير آخر وهو رجل مسرف لا يخاف الله ولا يراقبه فى خلقه فكان يصرف من المال الذى يدفعه إليه الشيخ لأجل البناء ما يشاء فى أغراضه الفاسدة وشهواته الساقطة والشيخ يعلم بذلك فلا يرده عنه وعن المعاملة معه كما كان بل قال يوما لمن كلمه فى شأن ذلك من يوكل لا يخاصم نحن فوضنا إليه فلا نحاسبه ولا نراقبه ثم لما طالت الشكاية وكثر الكلام من الناس أشرك معه بعض من كان يدخل اليه كل يوم بعيوب ذلك المكلف وجعل المال تحت يدهما معا فكانا يصرفان منه جميعا فى شهواتهما وأغراضهما وانضم اليهما ثالث فكان كذلك والشيخ رضى الله عنه لا يزيد على الضحك اذا اخبر بشىء من ذلك .

ودخل بيده مرة احد عشر الف ريال فأرسل اليه بعض الفقراء يطلب منه ان يدفعها اليه يتجر بها ويقلبها من سكة الى اخرى ثم يعيدها فى اقرب وقت ، فمكثت عنده سنتين وادعى أنه خسر فى التجارة والنفقة فذهب جميعها ولم يبق منها قرش واحد . فتعجب الشيخ من حاله وحرصه على الدنيا وعلم ان الدنيا هى منتهى نظره وقصده من صحبته فما كلمه بكلمة واحدة ، بل زاد فأرسل اليه خمسمائة ريال لبعضهم يقول له أمنها لنا عندك حتى يظهر ربها فادعى بعد أيام أنها سرقت من الدكان مع ان الدكان داخل وكالة لها باب عليها خفير ينام بالوكالة ساهرا على الدكاكين ، فما تكلم بكلمة مع ظهور كذبه كالشمس فى رابعة النهار ، بل قال حيث إنهم لم يريدوا من صحبتنا الا الدنيا فدعهم يأخذون ما وجدوا منها فليست الدنيا كلها بشىء حتى نتكدر لأجلها . ووقائعه فى هذا كثيرة جدا لا تكاد تحصى .

وفى أواخر عمره بلغ فى الزهد فيها الى حد لا يمسك عنده منها درهما واحداً أصلا ويبيت دائما وليس فى داره قرش واحد . بل كان كلما فتح الله

بشيء أنفقه فى الحال ودفعه فى الديون التى تترتب عليه لأصحاب الدكاكين التى يأخذ منها الثياب التى يتصدق بها ويكسوها من يقصده من القرابة والغرباء فى اللباس وأصدقة الزواج ونحو ذلك أو للرجل المكلف بالنفقة على البيت وكان لا يسأله عن شيء ولا يعين له ما يشترى ، بل كان الرجل يشترى الطعام اليومى بنظره وشهوته والشيخ لا يعلم به ولا بما يطبخ حتى ينزل بين يديه .

وكان لا يحمل معه النقود أصلا لا فى الحضر ولا فى السفر ، بل اذا كان مسافرا يدفع كل ما عنده لمن يصحبه فى السفر ويكون مكلفا بشئونه ، وكان لا يعمل فى ثيابه جيبا أصلا حتى انه كان يضطر أيام تدريسه الدروس المتعددة متصلة فى وقت واحد الى حمل ساعة معه ليعلم الوقت الذى ينهى فيه درس النحو ويشرع فى درس الفقه وكذلك بعده درس الحديث فكان يضع الساعة فى تكة السروال .

وكان لا يأكل فى اليوم إلا مرتين يفطر فى الصباح ويتغدى بعد العصر ولا يتعشى لا فى صيف ولا فى شتاء . ويستقبح ثلاث أكلات فى اليوم ويقول انها من السرف والشره .

وكان اذا أراد شراء ملبوس لا يختاره أيضا لا ثوباً ولا لونا بل يكلف من يشترى له الثوب ويخيطه ويأتيه به فيلبسه كيفما أتى به على النحو الذى يلبسه وكان لا يكثر من الثياب ولا يزيد على ثوبين إذا اتسخ أحدهما دفعه للغسل ولبس الآخر .

وكان لا يتخذ اللباس للزينة بل للحاجة والضرورة فاذا كان عنده ثوب جديد حسن وعليه ثوب دونه أو بدا عليه أثر الاتساخ وأراد الخروج فانه لا ينزع الثوب الذى عليه ويلبس الثوب الجديد أو الغسيل من أجل مراعاة الناس بل يخرج بالثوب الذى اتفق عليه ساعة الخروج كيف كان .

وإذا أتى بلباس جديد أو حذاء جديد لبسه وتصدق بالذى كان يلبسه

قال فى النسمات وأما زهده رضى الله عنه فكان على التحقيق والحقيقة على نعت ما وصف به المحققون من أهل الطريقة متخلقاً به ظاهراً وباطناً لا يتوسع فى مأكله ولا يترفه فى ملبسه ولا يتأنق فى مسكنه بل كان آخذاً من الجميع ما تقوم به ضرورة الحياة مقتصرا على مالابد منه نابذاً للملذوذات والشهوات فلا يعبأ بالدنيا وأهلها وزهرتها ومتاعها استوى عنده وجودها وفقدها فان وجدها أنفقها فيما أمر الله بانفاقها فيه بل آثر منها على نفسه وعياله وان فقدها رضى بمراد الله وفهم عن الله فيه فلا يفرح لوجدانها ولا يحزن لفقدانها وهذا هو حقيقة الزهد كما قال ابن عطاء الله رضى الله عنه فى التنوير للزهد فى الدنيا علامتان علامة فى وجودها وعلامة فى فقدها فالعلامة التى فى وجودها الايثار منها والعلامة التى فى فقدها وجود الراحة منها فالايثار شكر لنعمة الوجدان ووجود الراحة شكر لنعمة الفقدان وذلك ثمرة الفهم عن الله والعرفان لان الحق سبحانه كما ينعم بوجودها ينعم بصرفها بل نعمته بصرفها أتم .

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه رأيت الصديق رضى الله عنه فى المنام فقال لى أتدرى ما علامة خروج الدنيا من القلب قلت لا أدرى قال بذلها عند الوجود ووجود الراحة منها عند الفقد اه .

وهكذا كان حال سيدنا رضى الله عنه إذا وجدها وفتح الله تعالى عليه بشىء منها أنفقه فى وجوه البر والاحسان وآثر على نفسه وعياله فيواسى به الضعفاء وذوى الحاجات ولا يدخره ولا يسلك فيه مسلك الراغبين فى الدنيا من صرفه فى الشهوات والملذوذات بل كانت همته رضى الله عنه فى الباقيات الصالحات .

وكان دائما ينظر إلى الدنيا بعين الاهانة والاحتقار وينفر منها ويحذر من محبتها واستغراق العمر فى طلبها ويقول إذا كان الفقير يتردد الى أبناء

الدنيا ويجالسهم لايجىء منه شيء فى الطريق ولا يطمع فىوجود قلبه ولا فى حلاوة الاقبال على ربه لان أبناء الدنيا أموات القلوب ومن خالطهم مات قلبه مع من تكون بحاله تكون .

وكان رضى الله عنه يقول مثل الدنيا مثـل من يضرب بالحجارة فما يخطئه منها خير مما يصيبه .

وكان إذا لبس ثوباً جديداً تصدق بما عنده وكان يأمر أزواجه وأولاده بذلك ويقول لهم إنكم لن تزالوا فى سـعة ونعمة وسـتر أحياء وأمواتاً ما فعلتم ذلك . ولقـد صدق رضى الله عنـه فيما قال ووعد به . فكان بمقتضى هذه السيرة الحسنة تترادف عليه النعم الجزيلة والخـيرات الجسيمة وتحفه العيشة الراضية الطيبة .

ومـا يدل على صـدق زهده فى الدنيـا اننا منذ جمعنا الله به وخالطناه ما يزيد على الثلاثين سنة ما سمعناه يذكر الدنيا الا بلسان الذم والاحتقار . وكان متبريا من الدنيا وزهرتها وابنائها متصلا بها بجسده منفصلا عنها بقلبه وروحه . لا يدعى لنفسه ملك شيء منها بل يرى نفسه مستخلفا فيه فيضمه بين إخوانه ويجعلهم شركاء فيه .

وكان يقول : الأخ الحقيقى هو الذى لا سر عنـده مكتوم ولا مال مقسوم .

ومـا يدل على زهده فى الدنيا أيضا اننا ما علمنا ولا سمعنا أنه تـكلم على متروك أبيـه وأجداده الـكرام أو بحث عنه أو عرض بذكره دارا وعقارا أو حبسا او غـير ذلك بل ألغى جميـع ذلك وصـيره نسياً منسياً كأن لم يكن وتركه لاخوته ينتفعون به . وبالجملة فزهد هذا السيد رضى الله عنـه فى الدنيـا شيء كبير لا طاقة لنا باستقصائه كما لا قدرة لنا على معرفة ما كان عليه من حقيقته وانمـا أشرنا إلى هذا النزر القليل من زهده تبركا بذكره اهـ .

فصـــــل

وأما توكله رضى الله عنـه فـكان توكل كبـار العارفين وأفراد الأمة المحمدية الذين أطلعهم الله على اللوح المحفوظ فشاهدوا فيه رزقهم وحصل لهم بذلك الاطمئنان التام كما قال العارف الـكبير سيدى أفضل الدين رضى الله عنه : إن للعبد فى أمر الاضطراب فى رزقه ثلاث مراتب .

الأولى : وهى التى تقع بها الطمأنينة لقلبه ويزول بها الاضطراب بما زاد على الجزء البشرى اطلاعه على الامام المبين الذى أحصى الله تعالى فيه كل شىء فان جميع ما كتب فيه لا يصح فيه تبـديل ولا تغيير ولذلك سمى باللوح المحفوظ أى من المحو والتبديل بخلاف ألواح المحو والاثبات فانها تقبل التبديل والتغيير . فمن رزقه الله الاطلاع على هذا اللوح اطمأن قلبه برزقه ضرورة وهو خاص بأكابر الأولياء . قال وإنمـا قيدنا زوال الاضطراب بمـا زاد على الجزء البشرى تبعاً للمحققين لأن حجاب الجزء البشرى لو زال بالـكلية من الاوليـاء لمـا كان للأنبياء مزية عليهم كما أن الانبياء لا يصح لهم الاحاطة بجميـع ما أحصى الله تعالى فى الامام المبـين فلا بد لهم من الحجاب عن شهود شىء فيه لئلا يساوى علمهم علم الحق تعالى ولا قائل بذلك وغاية ما فى اطلاعهم عليـه أن الله تعالى أزال عنهم الاضطراب ليتميزوا عن غيرهم من أكابر العارفين .

المرتبة الثانيـة : أن يكون مطمح بصر العبد ألواح المحـو والاثبات الثلاثمـائة والستين لوحاً ومن لازم ذلك عدم الطمأنينة لقبول هذه الالواح التبديل والتغيير فلا يثق الولى بمـا يراه فيها .

المرتبة الثالثة : أن لا يكون له اطلاع على اللوح المحفوظ ولا على الواح المحو والاثبات كغالب الناس فمثل هذا لا يسلم قلبه من الاضطراب بغـالب أجزائه ولم يزل مهتما بأمر رزقه ليلا ونهارا ولـكن من نعم الله تعالى على

أهل هذه المرتبة أن جعل اهتمام أحدهم برزقه مكفرا لذنوبه اه نقله العارف الشعرانى رضى الله عنه فى الفلك المشحون ، ثم قال وعلى هذا التقرير فما سلم أحد من اضطراب قلبه فى أمر رزقه سوى الأنبياء عليهم السلام ، وأما غيرهم فان حفت أحدهم العناية الربانية تعطلت منه صفة الاضطراب عن الاستعمال والا فلا بد من الاضطراب اه .

قلت : فكان الشيخ رضى الله عنه من أهل المرتبة الاولى وممن حفته العناية الربانية فتعطلت منه صفة الاضطراب فكان شأنه فى هذا الباب من أعجب ما رآه الراؤون وأغرب ما يسمعه السامعون حتى كأنه من أعاظم ملوك الدنيا وأكابر أغنيائها لا يهتم برزقه أصلا ولا يفكر فى أبوابه ولا يذكره على لسانه مع أنه لا يملك دينارا ولا درهما ولا داراً الا التى يسكنها ولا أرضا الا ما ورثه من أبيه وقد سامح فيه لاخوانه مع أنه شىء لا يذكر بالنسبة لضعف البلاد وعظم نفقة الشيخ ولا يزرع ولا يتجر ولا له وظيفة ولا مرتب ولا معلوم الا قدرا بسيطا كان يأخذه من الأوقاف فى بداية أمره وتدريسه مما لا يكفى لمصروف وقت واحد فضلا عن يوم كامل فضلا عن شهر كما هى حالة الأوقاف بالمغرب لا لضعفها وقلة وفائها بحقوق أهلها ، بل لفساد ولاتها واستئثارهم بها هذا مع ما كان فى بيت الشيخ رضى الله عنه من العائلة الكبيرة المؤلفة من أزيد من عشرين نفساً دون الضيوف من النساء والرجال الذين لا يخلو يوم واحد منهم من اثنين وثلاثة الى عشرة وعشرين ، ومع كونه لا يلتفت الى ما يحصل فى البيت من إسراف وتبذير مفرطين بحيث ما كان يستهلكه أهله من أنواع المطعومات ولوازمها ضعف أضعاف ما يستهلكه مثلهم فى العدد فى بيوت الأغنياء وأهل الدنيا ومع كونه أيضا لا يدخر قوت أسبوع فضلا عن شهر فضلا عن سنة بل كل يوم بنفقته وكثيرا ما يتفق أن يكون عنده من الضيوف ما يزيد على العشرة بل والعشرين ويصبح وليس فى البيت مطعوم أصلا ولا عنده كذلك دينار ولا

درهم وهو فرح مسرور غير مهتم بشيء كأن خزائن البلد عامرة برزقه وملكه وربما زجر من يذكر له ذلك أو يذكره بالضيوف بل اذا أصبح دخل الى مكتبته وأقبل على المطالعة فلا تمر برهة حتى يفتح الله بكل ما يلزم وأكثر منه وأحياناً اذا دخل الضيوف أرسل يستدين مايلزم لطعامهم وربما استمر على ذلك الحال الاسبوع والأسبوعين والشهر الكامل فاذا فتح الله أدى ما عليه ومع كل هذا فكان أهله لا يأكلون الا اللحم والسمك والبيض ونحو ذلك من فاخر الأطعمة التى لا يدركها كل يوم الا الأغنياء وهذا هو الذى حير الناس فى أمره حتى كانوا يظنون به الظنون الكاذبة ويقولون ان الدول تنفق عليه لأنه ما كان يتحرك فى شيء ولا يسيح فى المدن والقبائل كما يفعله شيوخ الوقت ولا يخرج من بيته أصلا مع هذه النفقات الكثيرة وهذا أيضا هو الذى كان يثيرعليه حقد الدولتين الفرنسية والأسبانية لان كل واحدة منهما كانت تتهمه بالميل الى الاخرى وخدمة مصالحها وكونها هى التى تنفق عليه .

وقد اجتمع الشيخ مرة ببعض حكام الاسبان فقال له ذلك الحاكم نحن يبلغنا أنك تأخذ الدراهم من الفرنسيين لتكون ضدنا فقال له الشيخ وهل آخذ منكم دراهم قال لا قال فكذلك لا آخذ منهم لأنهم يقولون أيضا إنى آخذ منكم لأكون ضدهم فان كان زعمهم أنى آخذ منكم المال حقا فيمكن أن يكون ما تقول حقا أيضا وحيث إنك تعلم أنى لا آخذ منكم شيئا وأن زعمهم باطل فكذلك زعمكم أيضا باطل .

وسأل مرة بعض كبار المتصدرين للمشيخة بالمغرب بعض قرابة الشيخ رضى الله عنه فقال له بكم من زوج يحرث الشيخ فقال له ما حرث طول عمره ولا بزوجة واحدة ولا يملك مزرعة ولا ثورا ولا بقرة ولا بيتا وانما هو من المتوكلين على ربه فقال لهذا لا يمكن فان مانسمعه عنه من النفقات الواسعة لا يتيسر الا لمن عنده على الاقل حرث أربعين زوجاً فأكثر فقال

له الواقع هو ما أخبرتك به وأنه لا يعلم من أسباب الرزق شيئا فما كاد يصدق وقوفا مع العادة والاسباب ونظرا الى حاله وحال أمثاله من الشيوخ والعلماء .

وقال بعضهم للشيخ رضى الله عنه مرة يا سيدى لو خففت من الناس الذين فى نفقتك فان الحمل ثقيل والوقت شديد فقال له ان السفينة لايستقيم سيرها فى البحر وتأمن تلاعب الرياح بها حتى تكون عامرة مثقلة .

وبالجملة فحال الشيخ رضى الله عنه فى هذا الباب من أغرب الاحوال وأعجب الاوصاف لابالنسبة الى حال أهل الوقت وصلحائهم بل وحال المتقدمين أيضاً من العارفين. فقد ذكر العارف الشعرانى رضى الله عنه أنه كان له وقفية يأخذ منها مايلزم للزاوية وأنه كان يدخر كل سنة نحو عشرة قناطير من عسل النحل وعشرين قنطارا من عسل القصب وثلاثمائة أردب من القمح وأربعين اردبا من الفول وسبعة أرادب من الارز وخمسة وعشرين أردبا من العدس والجلبان وخمسة قناطير من التمر والخرنوب والتين وأشياء اخرى كالبطيخ الهندى كان يدخر منه نحو ألفى بطيخة وكان يأتيه كل سنة من الحطب ما يكفيه للطبخ طول العام الى غير هذا من اللوازم والضروريات .

ومع هذا فذكر عن نفسه رضى الله عنه أن ذلك الجزء البشرى لم تتعطل صفته منه تماماً . أما الشيخ رضى الله عنه فقد سمعت الى اى حد يبلغ اطمئنانه وثقته بالله مع عدم ادخاره لقوت الاسبوع فضلا عن السنة .

قال فى النسمات : وأما توكله فكان على الحال الا كمل عند أهل الله تعالى لا يدبر ولا يختار منطرحا على باب مولاه على الدوام والاستمرار مستسلماً لامره معتمداً عليه فى سره وجهره فلا يهتم بأمر الرزق ولا يدبر ولا يسعى فيه لا لنفسه ولا لعياله بل كان يرى نفسه هو وعياله ضيوف الحق سبحانه يأ كلون من مائدة رزقه ونواله متوكلا على الله حق توكله

فى جميع أحواله شدة ورخاء وعافية وبلاء لايستدعى طبيباً إذا مرض ولا يستعمل فى الغالب دواء وكان يقول فى مرضه اذا قيل له نستدعى لك الطبيب . مرض أبو بكر فقيل له ألا نستدعى لك الطبيب فقال الطبيب أمرضنى يعنى الحق سبحانه وتعالى لانه الطبيب الحقيقى اى هو الذى أنزل فىّ المرض وهو الذى يعافينى حين يشاء لا غيره من المخلوقين وهذا مقام للكمل من العارفين بالله .

وكان دائم التبسم والبشر والوجه الطلق وان كان متحملا باطنا من الاحكام الجلالية والنوازل القهرية والحملات البلائية عن الخلق ما لو نزل على شوامخ الجبال لدكت .

وكان لا يختار حالا على حال بل كان مع مولاه كالميت بين يدى غاسله .

وكان يقول : العارف المحقق لا يختار مع الله شيئا فلو أقامه فى الشمس ما اختار أن يكون فى الظل ولو أدخله السجن ما احب ان يكون خارجه وذلك لفنائه عن نفسه وحظوظه وبقائه بربه وسكونه تحت مجارى أقداره اهـ .

فصـــل

وأما السخاء فكان منقطع النظير فيه لا يعظم فى عينه شىء يعطيه من مال وأرض وعقار وكتب وثوب وطعام وغير ذلك بل كان عطاؤه للألف كعطاء غيره للقرش الواحد بل أهون من ذلك بكثير فان الدنيا لم تكن تساوى فى عينه شيئا فكان لا يقيم لها وزناً كما تعرف ذلك مما تقدم فى زهده وتوكله ويكفيك انه كان يستدين ليعطى سائله بل ومن يرى احتياجه دون أن يسأله .

فكان فى غالب أوقاته مديناً لاصحاب الدكاكين الذين يبيعون الثياب

والأقمشة والأحذية يأخذ من كل واحد ما عنده ليعطيه للقاصدين والمحتاجين لاسيما أواخر عمره فانه مكث سنين وأعواماً لا يأتى عليه فيها يوم لا يكون مديناً لهم مع أنه دائم الدفع لهم حتى توفى وترك أزيد من عشرة آلاف ريال

وكان يقول من استدان فليستدن على ربه فانه لابد أن يؤدى عنه .

أما إذا دخلت بيده دنيا كثيرة فانه كان يفرقها فى الحال كما كان النبى صلى الله عليه وسلم يفعل وكما وصف به صلى الله عليه وسلم المهدى يحثو المال حثياً ولا يعده عداً وقد أعطى مرة رجلا ثمانية آلاف ريال اشترى بها دارين أو ثلاثة وأعطى آخر أزيد من خمسة عشر ألفاً أما الألف والخمسمائة والمائة مما كان يتيسر لديه فغير داخل تحت الحصر ما أعطى من ذلك

وكذلك كان يجود بأحب الأشياء اليه وهو الكتب حتى إن بعضهم اجتمع لديهم مما أعطاهم من الكتب ما يكفيهم فى الفنون التى يعرفونها من نحو وفقه وحديث وتصوف وغيرها

وبالجملة فكان فى الكرم من الطراز الذى يضرب به المثل وتذكر أخباره مدونات الأدب والتاريخ.

قال فى نبذة التحقيق وأما سخاؤه وكرمه فحدث عن البحر ولا حرج فقد ثبت عندى من ثقات أصحابه وغيرهم حتى من المنحرفين عنه أنه كان لا يمسك قوت يوم لغده وربما استسلف ما يعطيه لمستحق وهذا خلق فيه على ما بلغنى منذشب وقد كان فى بدايته على أثر ورود لطنجة يهاديه أهل الفضل خصوصاً المنتسبين إلى طريق سلفه فلا يمسك من ذلك شيئا غالباً وساعة السرور عنده هى التى يبذل فيها ما بيده لغيره

حكى لى من أعتمد صدقه من أحبائه أنه رأى عليه فى بعض الأيام جلابية ظهر عليها اثر القدم فاشترى له أخرى وأتاه بها قال فبينا أنا معه بالطريق نظرت إلى يده فاذا الجلابية ليست معه فسألته عنها فقال أعطيتها لفقير طلبها منى قال فذهبت فى الحين واشتريت ثوبا وخطت له منه أخرى ثم جئت بها إليه

وألححت عليه أن يلبسها فى الحين فأجاب سؤالى فاستبشرت بذلك ولكن بعد يومين رأيته عاد إلى القديمة فلبسها فسألت عن السبب فقيل لى خرج من الدار فلقيه غريب ادعى أنه شريف وتبع السيد يسأله إياها فساقه معه إلى الدار وخلع الجلابية فدفعها اليه ولبس القديمة

وجاء رجل يشتكى اليه بعض فقرائه وهو من الأشراف قائلا إنه اشترى منى زربية بثمن وذكر قدراً له بال وقال انها لكم ووعد أن يأتى بالثمن فلم يفعل فدخل إلى الدار وأخرج له ما كان حاضراً عنده ووعده بالباقى مع أنه لاعلم له بذلك ولا أمر بشراء الزربية وهذا خلق لا يعطيه الله تعالى إلا أحب الخلق إليه وبه وبأمثاله كان لهذا السيد الجليل مكانة عظيمة فى نفوس الناس لا سيما المنتسبين .

وحضر يوما الذكر مع أصحابه فتواجد حتى سقطت عمامته فبيعت بالمزايدة بين الفقراء بأكثر من ألف ريال عملا بقاعدة الصوفية فى بيع الثوب الخليع حال التواجد فما أخذ من ذلك المال قرشا واحدا بل تبرع به على الفقراء إلى غير ذلك مما هو كثير ولا شك أن أمره قائم بالله وقد شاهدنا من أحواله ما هو غريب وعلى الأخص سروره وانشراح صدره حيث تكون يده فارغة فيعد ذلك من عظيم نعم الله عليه وهذا مقام عظيم لا يقوى عليه إلا من قواه الله ثم إنه لا يرى فضلا فيما يحسن به ولا يعظم فى عينه بل لا يراه إلا قليلا وان كان فى الواقع كثيرا بل الكثير والقليل عنده سواء كما شاهدنا ذلك من حاله .

ودخلت عليه يوما فالفيت بيده جزءاً من تفسير السيد محمد صديق حسن خان القنوجى أحد أمراء الهند فى وقته فلمح منى أنى استحسنته فلما عدت لمنزلى وجهه إلى بتمامه وهو فى أربعة مجلدات بطبع الهند وهو قليل الوجود بالمغرب كما أكرمنى مرة أخرى بكتاب مطالع الزهراء فى نسب بنى الزهراء وهو بخط ملوكى جليل وهو للعلامة النسابة سيدى الزكى العلوى ألفه لقريبه

السلطان مولاى عبد الرحمن بن هشام وهذا المؤلف هو المادة العظمى والعمدة الكبرى لابى العلاء الفضيلى المتوفى فى سنة أربع وعشرين وثلاثمائة وألف فى كتابه الدرر البهية فى أنساب الحسنية والحسينية المطبوع بفاس فى مجلدين ا هـ .

وقال فى النسمات وكان رضى الله عنه على حال عظيم ووصف كبير فى الكرم والسخاء والبذل والايثار قد بلغ فى ذلك المنتهى ووصل إلى الدرجة القصوى يعطى عطاء من لا يخشى الفقر ولا يلتفت إلى ما أعطى ولا يرى له قيمة لما كان عليه من الزهد فى الدنيا والاعراض عنها والنظر إليها بعين الاحتقار قد استوى عنده ذهبها وترابها .

وكان لا يرد سائلا سأله شيئا كائنا ما كان ان كان ذلك موجودا عنده وإن لم يكن عنده استدان واعطى أووعد السائل ووفى بالوعد وهو فى كل ذلك يرى المنة والفضل للسائل .

وكان يطعم الجائع ويكسو العريان ويعين المدين ويغيث الملهوف وكان الجم الغفير من الناس معدودين فى عياله وتحت نفقته واحسانه لا سيما أهل تجكان من الشرفاء وقرابته فانهم كانوا يتواردون عليه فى أغلب الأيام فيسد خلتهم يشبع بطنهم ويسترأبدانهم ويزوج عزبهم ويدفع اصدقتهم ويدر عليهم الرزق الواسع ويتوسط فى قضاء حوائجهم بجاهه مع الحكام مراسلة ومكاتبة ، فكان هو المتكفل بجميع شئونهم ذكورا وإناثا صغارا وكبارا .

وكانت مائدته على الدوام مبسوطة للصادر والوارد وقلما يمر عليه يوم من غير ضيوف فقد كانت تتوارد عليه الجماعات من الفقراء وغيرهم من أقطار مختلفة للزيارة وغيرها فيكرم نزلهم ويحسن ضيافتهم ويطعمهم الطعام الجيد الواسع ويجالسهم ويسامرهم بالمذاكرة فى العلوم والمعارف العجيبة والأسرار

الربانية والفوائد الغريبة فى كل الفنون ويصبر نفسه معهم طول اقامتهم فلا يمل ولا يضجر حتى يغادروا حضرته اهـ . وكان اطعامه للضيوف فى الافطار يبتدىء من وقت الضحى ولا ينتهى إلا الى مابعد الظهر لتوارد الضيوف واحدا بعد واحد وجماعة بعد أخرى بحسب الوصول من البر والبحر فى الأوقات المختلفة وكلما وصل ضيف قدم له الطعام ثم يبتدىء طعام الغداء من قريب العصر إلى ما بعد العشاء بكثير .

وكان شديد الاهتمام بالضيوف والاعتناء بشأنهم فاذا قدم ضيف أو ضيوف لا يهدأ له بال ولا يستريح فى مكانه حتى يطعموا ويشبعوا ويشربوا الشاى وكان يأمر الخادمات أن لا يدخلن الطعام إلى الضيوف حتى يمررن عليه به فى محله ليراه خوفا أن يكون قليلا لا يكفى أو غير مناسب للواردين وربما وقف ينتظر وروده من المطبخ أو يستعجل دفعه إليهم خوفا من التأخر والعطلة .

وكان لفرط كرمه وجوده يحب الكرماء والاجواد على أى حالة كانوا ويرجو لهم الخير العظيم من الله تعالى ويعتنى بشأنهم ويفرح بهم غاية الفرح ويثنى عليهم ولو كانوا على غير قدم الاستقامة ويقول إن السخى محبوب عند الله تعالى ولا بد ان يرحمه الله ويختم عليه بخير إذ وضع فيه هذا الوصف الحسن الجميل ، ويستشهد على ذلك بالأحاديث الواردة فى فضل السخاء والأسخياء .

وكان يتعجب من حال أهل العلم وميلهم إلى الدنيا مع أن العلم يقتضى العمل به وقد أمر الشرع الشريف بالسخاء والبذل والايثار وذم البخل وحب الدنيا أشد الذم وكان يقول على سبيل المباسطة ثلاثة من عجائب الدنيا العالم كريم والحاج صادق والحمار أحمر .

وكان لا يطالب أحدا بحق له مليه بالغا مابلغ بل اذا جاءبها عليه أخذه والا

لم يخاطبه فيه أصلا فكان يعطى بعضهم الشىء يبيعه من كتاب وغيره فيأخذ ثمنه أو نصفه فلا يكلمه فى ذلك ولما حج توقف غالب من كان فى رفقته لاتمام نفقة الحج فاستقرضوا منه وربما يرجعون إلى وطنهم فما أدى من الجماعة إلا اثنان أو ثلاثة والباقى لم يدفع ما عليه فما كلم واحدا منهم إلى أن لقى الله ولما توجه الى الحج اكترى داره التى كان يسكنها رجل من الأعيان الأحبة فاستمر فيها بعد رجوع الشيخ ثمانية عشر عاما ما دفع كراء ولا خطر ذلك له ببال واشترى دارا فى قرية كان نازلا بها مدة شهر فلما سافر تركها لفقرائه من أهل تلك القرية لتكون زاوية لهم يجتمعون فيها لذكر الله تعالى فتقدم واحد منهم وباعها وأخذ ثمنها لقضاء دين كان عليه فما كلمه ولا سأله عن الدار بعد ذلك وهو أيضا من الناس الذين استدانوا من الشيخ بالحجاز فلم يدفعوا ما عليهم وكم لهذا من نظير بل غالب معاملاته كانت من هذا القبيل وكل هذا ناشىء من سقوط الدنيا فى نظره مع الكرم والحلم وعظم حق المؤمن وأخوته عنده فانه كان من أشد الناس مراعاة لحقوق الأخوة والصحبة يستهين فى جانبها بكل شىء ويترك من أجلها كل حق من حقوقه وحقوق عياله ويذكر دائما الحديث إن الله يسأل عن صحبة ساعة .

وكان يعطى المحتاج من غير سؤال ولا ظهور أثر الحاجة عليه ، بل كان يفعل ذلك كشفا وفراسة فكثيرا ما يرسل للرجل شيئا وهو فى بيته من غير أن يكون ذلك الرجل معروفا بالسؤال والاحتياج فيوافق ذلك منه ساعة الحاجة والضرورة إلى القدر المرسل من الشيخ رضى الله عنه وكذلك يأتيه بقصد الزيارة فقط فيبادره الشيخ بالعطاء من غير سؤال ولا طلب .

وحدثنى الشريف محمد نور الدين قال كنت مع الشيخ يوما فجاء لزيارته بعض العلماء من أهل البادية فحادثه الشيخ مدة وسأله عن بعض كتب كان جلبها من القاهرة أيام قراءته بها ثم لما استأذنه للخروج قال له اصبر فقام

ودخل الدار وأتاه بعشرة ريال وقال خـذ هذه هدية منا فصار الرجل يقبل يده ويقول أشهد أنك ولى لله تعالى فوالله ما جئت إلا لهذا القـدر احتجت إليه ولم أجد ممن أطلبه وغلبنى الحياء أن أطلبه منكم .

وكان إذا أهديت له هدية ومعه جليس شاركه فيها أو دفعها اليـه بتمامها وهو الأكثر من حاله سواء كانت الهدية كتابا أو ثوبا أو مالا وسواء كان الحاضر فقيراً أو غنياً محتاجاً أو غير محتاج ، بل كانت ترد اليه الكتب التى أوصى على شرائها من ماله من مصر أو فاس فاذا أدخلت اليه الخادم الكتاب من البريد وصادف أن يكون معه أحد من أهل العلم دفعه اليه ولو كان ذلك الكتاب موجودا عند ذلك الزائر .

وقال صاحب حادي الرفيق كنت مع الشيخ يوما فجاء فقير من فقرائه وهو عروس قد تزوج على يد الشيخ فاعطاه أربعة ريال هـدية فرمى لى بريال منها وقال الجليس شريك فجعلته فى صندوقى تبركا به فكان سببا فى ادرار الرزق علىّ ولا زلت والحمد لله فى سعة من ذلك الوقت اهـ .

فصـــــل

وأما الحلم والعفو والصفح والاحسان إلى المسيء فهو فرد زمانه فيه على الاطلاق لا يوجـد فى الدنيا من يدانيه فيه فضلا عمن يماثله أو يساويه فقـد كان لا يتصور الانتقام لنفسه ولا يخطر له ببال ولا يعرف الغضب لنفسه وحقوقه أصلا سواء أوذى فى نفسـه أو عرضه أو ماله أو ولده أو خادمه أو قرابته وسواء أقل الشخص من الاذاية أو أكثر أو بالغ أو قصر أو دام طول حياته أو اقتصر على برهة من الدهر بعيدا كان أو قريباً ضعيفاً كان أو قوياً كل ذلك عنـده فى الحلم والعفو والصفح عنه واكرامه واحترامه واعظامه والبر به سواء فما كان مع من يبغضه ويؤذيه ويسعى فى هلاكه إلا كما يكون

الولد البار مع أبيه ، بل ما كان يبالغ فى الاحترام والمراعاة ويتحمل فى ذلك المشاق غالبا إلا مع هـذا النوع لأنه كان يعلم من المحب الصادق ثبوت المودة واخلاص المحبة الموجبة لسقوط الكلفة فكان يقوم بحقوق الأخوة والمحبة على قدر مقامه وما أكرمه الله به من جميل الأخلاق لكن لا يتكلف فيها كما يتكلف للعدو المبغض الحسود فانه لا يتأخر عن مقابلته ولو كان مريضاً ولا يصرفه إلى وقت آخر ولو كان مشغولا ويبادر إلى قضاء مطالبه واجابة رغبته من توسط وشفاعة وكل ما أتى اليـه من أجله وحكاياته ونوادره فى هذا الباب لا تدخل تحت الاحصاء والعـد لأن غالب من كان يعامله من أهل طنجة هم من هذا القبيل لكثرة حسدهم وعداوتهم وشدة بغضهم ونفورهم من أهل الفضل .

لا سيما الشيخ رضى الله عنه فانهم ما تركوا من اذايتـه إلا ما لم تصل طاقتهم اليـه وقد ذكرنا فى فصل احترامه ومحبته لأهل العلم وفصل احترامه ومحبته لأهل البيت وغيرهما حكايات من هذا القبيل .

ونورد فى هـذا الفصل بعض البعض مما لا يزال بذكرنا وهو قطرة من بحر ومثـال معرف لما وراءه ولما كان عليـه الشيخ رضى الله عنـه فى هذا المقام .

فمن ذلك أن أحمد المرنيسى الطنجى وهو رجل مسن ذو لحية بيضاء وله حظ من العلم وتظاهر بالصلاح دسه الفرنسيون عند ما حصل الخلاف بينهم وبين الشيخ وادعى أن الغيرة الايمانيـة وحب الانتقام والتظاهر بالعـداء للكفار حثه على مخالطة الشيخ والكون من جملة أصحابه مع انه تجانى الطريقة وهم قوم لا يرون الفضل فى غيرهم وغير طريقتهم ويبغضون كل الطرق الحقة إلا ذوى الفضل والعقل منهم فصار يلازم مجالسه ويرد اليه كل يوم صباحا ومساء ولا يفارقه إذا خرج لدعوة دعى اليها او غير ذلك ، بل صار ألزم له

من ظله ثم انتقل من دار سكناه البعيدة الى دار بجانب دار الشيخ تظاهرا منه بفرط الميل والمحبة والغرض من ذلك مراقبة الحركات والسكنات والوارد والصادر وكان كلما قابل فقيراً من الفقراء مديده الى حزامه فان وجد عنده مسدسا قال له هكذا الرجال وهكذا ينبغى أرنى من أى شكل هو وان لم ير عنده سلاحا لامه على ذلك ووعظه بالقرآن والحديث وبالغ فى ذلك تحريضا على شراء السلاح واظهارا للغيرة والايمان والواقع أنه يحصى من معه سلاح من الفقراء وما نوع السلاح الذى مع كل واحد منهم ويرفع ذلك الى أسياده فاغتر به الفقراء كافة وألقوا اليه مقاليد أسرارهم وصاروا يقولون عنه جبل الايمان والواقع أنه جبل الكفر والنفاق والجاسوسية وغرهم فى ذلك لحيته البيضاء وسمته وهديه وعلمه ومذاكرته بالقرآن والسنة وتقربه من الشيخ الذى كان لا يفارقه أكثر أوقاته وكان يكلفه ببعض المهام ويرسله شفيعاً لدى الحكام لا سيما الذى أرسله جاسوسا وكان الواسطة بينه وبين الفرنسيين فكان الشيخ رضى الله عنه يرسله اليه ظاهرا فى قضية أو شفاعة والواقع أنه كان يساعده على غرضه باطنا ويجعل له السبيل للاجتماع مع القائد الواسطة ليرفع له ما رآه من أخبار الشيخ والفقراء مما هو حق وباطل وصدق وكذب على عادة الجواسيس فاتفق أن عزم الشيخ على السفر إلى تطوان لقضاء بعض الاغراض المتعلقة بالقبائل الغمارية ومقابلة قوادها ورجالها بتطوان وعزم هذا الجاسوس على مصاحبته كما هو حاله فلما كانت الليلة التى صبيحتها سيكون السفر عقب صلاة الصبح بينما بعض الفقراء مارا فى منتصف الليل على باب دار القايد ابن عبد الصادق إذ رأى المرنيسى خارجا من الدار متقنعا مختفيا فلحقه الرجل ليتحقق منه فسلم عليه فأبلس ولا أدرى بم اعتذر له ثم بعد صلاة الفجر جاء إلى الشيخ وأخبره الخبر وكان الرجل من قرابة الشيخ فقال له الشيخ رضى الله عنه نحن نعلم ماهنالك ولكن استر الرجل واكتم أمره لاتذكره لأحد من

الفقراء وكان قبل هذه المدة أرسل إليه خفية بعض كبار الحكام المسلمين الذين فيهم غيرة يقول له لا تغتر بالمرنيسى فانه جاسوس بواسطة القائد ابن عبد الصادق فما زاده كل هذا إلا اكراما وإجلالا وبرا واحتراما حتى صار يرسل إليه وقت الطعام ليتناوله معه ومع ضيوفه وصار يشترى له الأضحية فى العيد ويتحفه بالهدايا الثمينة من ملبوس وغيره وترتب عليه مرة دين كبير فأداه عنه ، كل ذلك وهو ظان أن أمره مستور عن الشيخ والشيخ متحقق من حاله وعارف بأمره من طرق متعددة إلى أن أراد الله فضيحته وهتك ستره فى قضية طنجة المشهورة التى انفردوا بها بين العالم بأسره وهى اجتماعهم عن بكرة أبيهم باذن من القائد عبد السلام بن عبد الصادق خادم الفرنسيين وشهادتهم فى عريضة قدموها للسلطان ظناً منهم أنها ستكون السبب فى القضاء على الشيخ وابعاده من بلدهم التى لم يألفوا فيها رؤية الفقراء والعلماء والفضلاء فضاقت صدورهم من ذلك وأحبوا البقاء على ما ألفوه فكان المرنيسى المتظاهر بعداوة الفرنسيين نحو السبع سنين والفانى بزعمه وتصنعه فى الشيخ والفقراء وخدمة الدين من أول الواضعين أسماءهم فى العريضة فلما انفض المجلس جاء جماعة من الشاهدين الواضعين أسماءهم بكل وقاحة ونذالة إلى الشيخ فأخبروه بما صنعوا كالمعتذرين بأنهم فعلوا ذلك خوفا من القائد والخروج عن دين أهل البلد وأن من جملة من وضع اسمه المرنيسى الذى كان يقال عنه جبل الايمان ثم بعد برهة جاء هو يجرى على عادته ونفاقه يسب أهل طنجة وقائدهم الفرنسى وما فعل من العريضة ففاجأه بعض الفقراء بالباب قبل أن يطلع إلى الشيخ بأنه قد سبقك فلان وفلان وأخبروا أنك من جملة الواضعين أسماءهم فقال نعم لما عرضوا على تلك العريضة وقرأت ما فيها كتبت : هذا بهتان عظيم فقالوا له لو كانوا صبيانا يلعبون لما استطعت أن تكتب لهم هذا فكيف بقائد البلد وجميع أهلها وسيرفع ما كتبوه إلى السلطان ثم حضر

أيضاً جماعة آخرون فصرحوا بأنهم لما أنزلوا خطوطهم رأوا خطه بالموافقة ولم يروا ما قال فعند ذلك أنزل الله فى قلبه الدهش والرعب والخوف من الفقراء فصار الشيخ يطمنه ويقبل عذره ويوجه فعله وهو فى كل ذلك غير آمن ولا مطمئن بل فارق البيت الذى كان فيه بجوار بيت الشيخ وطلع إلى بستان بعيد من البلد واختفى به ، ثم لم تطمئن نفسه حتى خرج من طنجة وقصد مدينة الرباط يسكنها ونفاه الله تعالى من غير ناف معاملة له بما قصد به الشيخ كما نفى القائد صاحبه الذى لا يزال منفيا إلى الآن ، أما المرنيسى فأنزل الله به من الذل والمهانة والفقر والحاجة ما يستحقه المنافقون أمثاله إلى أن مات وهو جلاس بحمام وشتت الله شمله وقطع دابره من طنجة نسأل الله السلامة والعافية من النفاق والكذب والخيانة وعداوة أهل الله ورزقنا حسن الفهم عنه آمين .

ومن ذلك أن رجلا يعرف بالحجراوى أرسله بعض الظاهرين فى الوقت بالزعامة والتقدم وارادة الوصول إلى المملكة ليقتل الشيخ لأنه كان يظن أن أمره لا يتم مع وجود الشيخ الذى كان دائما يعارض فى ولايته على القبائل لا سيما القبائل الغمارية لفرط جوره وظلمه حتى كان يقال فيه حجاج المغرب فجاء هذا الرجل وادعى أنه فر من ذلك الظالم الذى أراد قتله فآواه الشيخ وأنزله بالباب مع الفقراء الملازمين وبقى مدة يتحين الفرص ثم لما طالت به المدة أجرداراً قرب منزل الشيخ وسكنها ثم صار يختفى يومين وثلاثة يذهب فيها إلى صاحبه ثم يعود والشيخ على علم من ذلك وهو ينفق عليه ويواسيه إلى أن سلط الله عليه رجلا ضربه بخنجر عدة ضربات أثخنه بها جراحا فمرض وتغيب فافتضح وعرف حاله بورود من أخبر بحقيقته فلم يعد إلى أن مات .

ومن ذلك أن عبد الكريم بن ادريس الطنجى كان من عدول طنجة وأبناء أعيانها وكان من عداوة الشيخ والمجاهرة بها على ما عليه أمثاله فأكثر

من شـهادة الزور وارتـكاب الجرائم فطرد من الشهادة فافتقر وسـاء حاله ثم صار يتردد على الشيخ فيواسيه ويكسوه فلما اشتهر بكثرة تردده اليه ومجالسته إياه جعلته الادارة جاسوسا يأتيها بأخبار الشيخ فـكان يفترى عليه ويلصق به من الجرائم السياسية ما يناسب عداوته الباطنية وقلة دينه الظاهرة ثم صار يصرح بذلك للشيخ ويقول اننا نأكل الخبز بالـكذب عليك فيقول له الشيخ لا تؤذ أحـدا من المسلمين ولك الاذن منا أن تنسب إلينا ما تشـاء وجاء إليه يوما فـكساه جلابة جديدة اشتراها من دكان وألبسه إياها فخرج بهـا وذهب إلى الادارة ، وقال لهم الآن جئتكم من الشيخ تركته وقـد جاء إليه السفير الفلانى وأبرم معه كذا وأمارة ذلك انه كسانى هذا الثوب وجاء إليه يوماً آخر يطلب منه ان يكتب له كتابا لرئيس الجواسيس ليزيد له فى أجرة الجاسوسية فـكتب له ذلك ففرح بالـكتاب الرئيس المذكور ورفع من مرتبه وكلما ازداد الشيخ إليه إحسانا ازداد هو إليه والى دائرته إذاية واستمر معه على حالته الى ان لقى الله وبقى الرجل يعامل انجاله بما كان يعامل به الشيخ نحو اربعة اعوام إلى ان جن ونقل إلى المارستان ومات به على شر الأحوال ووقع يوم ثالث دفنه ما فيـه عبرة وذلك انه اتفق أن مات رجل يوم موته هو لـكنه دفن بعيدا عنه فى مقبرة أخرى فلما كان يوم ثالثه أرسل بعض قرابته شيئا من الطعام لحملة القرآن ليقرأوه على قبره ويأكلوا الطعام فأخذه الحاملوز إلى قبر ذلك الرجل الذى مات معه وأنزلوه عنده فاجتمع عليـه الطلبة وقرأوا وأكلوا الطعام وعنـد فراغهم منه وصل طعام صاحب ذلك القبر من عنـد أهله فأكلوه أيضاً وقرأوا عليه ثانية وهكذا صرف الله عنه بركة قراءة القرآن العظيم عند قبره .

ومثله رجل يسمى عبد السلام كريبش قربه الشيخ وأحسن اليه وآواه نحو سبعة أعوام ثم تعلق به أن يتوسط له فى وظيفة مع الحـكام ففعل ثم صيرو جاسوسا فاتى إلى الشيخ ما لا يتصور من أنواع الاذاية والافتراء ولا يزا

حاله كذلك مع أنجاله إلى اليوم قطع الله دابره وعجل بهلاكه وراحة المسلمين من اذايته .

ومثل هؤلاء من الجواسيس الذين كانوا يتواردون عليه ويعاشرونه ويجالسونه وينتفعون به يزيدون على الخمسين ومنهم من كان يباسطه الشيخ ويصارحه بذلك ويقول له لا تتهول من هذا بل اشتغل وخذ من الكفار ما يعود عليك وعلى عيالك بالنفع بشرط أن لا تؤذى مسلما ولا تكذب على احدغيرنا ولو لا الحياء من الله تعالى وارادة الستر على هؤلاء لسمينا منهم جماعة لا يزالون على حالتهم ومنهم من أنزل الله بهم عقابه وصرفهم عن هذه البلدة شر مصرف وإلى الله عاقبة الأمور .

ولما رحل إلى القاهرة لحضور مؤتمر الخلافة كتب فى اليوم الذى اصبح فيه بالقاهرة رجل رحمانى يدعى أنه وزانى مقيم بالأسكندرية مقالا فى جريدة نسب فيها الشيخ رضى الله عنه إلى أمور قبيحة يريد بذلك اسقاط منزلته عند المصريين ولم تمض ساعات على ظهور المقال حتى عرف الشيخ أنه للرجل المذكور ثم إنه بعد يومين شد الرحلة من الاسكندرية لمقابلة الشيخ والسلام عليه فأكرمه وفرح به غاية كلما كان يتردد اليه طول إقامته بالقاهرة ثم إن الرجل نزل الى الاسكندرية ومرض فلما نزل الشيخ اليها فى طريق عودته الى المغرب سأل عنه فقيل له انه مريض فقال لا بد من عيادته فذهب اليه يعوده مع أنه لم يسبق له به معرفة ولا رآه قبل هذه المرة التى فاتحه بالاذاية قبل أن يجتمع به ومن مرضه ذلك كانت وفاته سامحه الله ورحمنا وإياه .

وذهب مرة بعض القضاة الذين كانوا يجاهرون بعداوة الشيخ الى الفرنسيين وقال لهم كيف شوشكم أمر ابن الصديق وأصحابه ادفعوا الى خمسمائة عسكرى وأنا ألقى القبض عليه وأهدم زاويته ثم اتفق بعد ذلك أن اجتمع الشيخ به فقال بلغنا أنك قلت كذا ولو جئت إلى لذهبت معك إكراماً لك دون أن يكون معك عسكرى واحد فخجل القاضى وتاب

وبالجملة لحال الشيخ رضى الله عنه فى هذا البـاب من أعجب الاحوال وأخباره فيها من اغرب الاخبار وان كان كل حاله عجبا ،

ومن هـذا القبيل ما وقع له مع بعض محبيه من العلماء وذلك فى قضية عظم أمرها لدى الحكام وكان ذلك المحب مطلعا فيها على الحقيقة ومشاهدا للواقع فلما اجتمع الشيخ بمندوب السلطان وعرفه أن الامر خلاف ماهو عندهم وأن الحق بيده استشهد بصديقه العالم المذكور وكان مجلس المندوب غاصا بدائرته من العلماء والكتبة فلما حضر ذلك الصديق أنكر أمام الشيخ أن يكون عنده علم بما قال. فسكت الشيخ وفهم ان الرجل خاف لأنه كان من الموظفين فلما رجع الى منزله أتاه ذلك العالم المحب وقال سامحنى فيما فعلت فأنى أعلم انك تقبل معذرتى وهم لا يقبلون فما زاده ذلك إلا محبة فيه وإخلاصا لصداقته وتكاد هذه القصة تكون اعجب من كل مامضى لأنها مسقطة لجاه المرء مصرحة بكذبه ومبطلة لدعواه فى الموطن الذى يجب فيه انتصاره واثبات حجته ودعواه .

قال فى نبـذة التحقيق وأما حلمه وصفحه عمن كان يؤذيه فبالمكانة القصوى والمنزلة الشماء العليا لا يحقد على أحد ولاينتقم من مؤذيه ولو تمكن منه او وجد اليه سبيلا وحسبك مثالا اغضاؤه عمن ساعدوا من ثاروا عليه حتى ممن كانوا يتظاهرون بالاختصاص به والنسبة اليه وفى الحقيقة كانوا مع من هم عليه وانى لأعرف جلهم عيناً واسماً وصفة ووسما .

ولو كان هذا موضع القول لاشتفى

فؤادى ولكن للمقال مواضع

فكانوا فى صدور من شهدوا فيه وهم زهاء المـائتين ولم تـكن شهادتهم إلا بافترا آت واختلاقات وتزويقات وتنميقات تولى كبرها من هو الآن لا رفيق له سوى عمله وليس له واق من جزاء سوء فعله إلى آخر ما قال .

فصل

وكما كان الشيخ رضى الله عنه متخلقا بهذا كذلك كان يدعو إليه ويحث دائما عليه فلا يأتيه مظلوم يشتكى غيره فى نفس أو عرض أو مال إلا ويأمره بالصبر والاحتمال وكف الأذى ومقابلة الاساءة بالاحسان ويقول للمشتكى أطع الله فيمن ظلمك وتعدى عليك بالاعراض عنه وتحمل الأذى منه من حيث عصاه فيك بتعديه عليك فانه ما قابل أحد من عصى الله فيه بمثل أن يطيع الله فيه ويمتثل أمره بالعفو والاحسان ويفوض أمره الى الله تعالى وهو سبحانه يتولى نصرته والانتقام له بما لا يقدر هو على مثله مع سلامة الدين وا كتساب الأجر والمحمدة ويقول للمشتكى أطع أمرى بالاعراض عنه وجرب ما أقوله لك فان لم تر انتقام الله تعالى لك من عدوك فلمنى على ذلك فان الله لا يضيع أجر من أحسن عملا فاذا أحسنت العمل باتباع السنة والعفو والصفح فلا بد أن يتولاك الله وينتقم لك من عدوك . ويؤيد هذا بما ورد فى أخلاقه صلى الله عليه وسلم من الأحاديث مع حكاية الصالحين فلا يقوم المشتكى من بين يديه إلا وهو فرح مسرور قد طابت نفسه وأعرض عن صاحبه مفوضا أمره لله وربما سامحه ابتغاء مرضاة الله .

فصل

وكان رضى الله عنه فى التواضع بالمنزلة التى يكون عليها أمثاله من أكابر العارفين والعلماء العاملين لايعرف الكبر والعظمة ولايرى لنفسه امام أهل الفضل والدين مرتبة يخدم الضيوف بنفسه ويقدم لهم النعال بيده ويجالس المساكين وذوى الخصاصة والأملاق والثياب الوسخة ويتذاكر معهم فى شئونهم الخاصة حتى كأنه واحد منهم ويخرج بالثياب المتواضعة ولا يلبس

الثياب الرفيعة الحسنة ولو أهديت إليه ولا يتميز فى الجلوس عن اخوانه ولا يحب التميز عن الناس فى شىء أصلا .

قال فى نبذة التحقيق وأما تواضعه فكان بالمكانة التى كنا نستحى منه فيها يسبق زائره والمسلم عليه بتقبيل يده أو على الأقل تقبيل رأسه . ولا سيما ان كان الزائر من أهل الفضل والدين وربما قدم النعل بيده الكريمة عند وداعه ويبدى من مخاطباته لى بخطه المبارك ما يوقعنى فى الخجل حين أقف عليه وربما شككنى فى نفسى حينما أراه مبالغا فى اطرائى لكنى أعود لعشى حينما أتذكر أن ذلك كان دأبه مع غيرى والحقيقة أن ذلك من تنزله مع الكبير والصغير والجليل والحقير ، والكريم الذى حباه هذا الوصف الجميل والخلق السنى الجليل الذى لا يقدر عليه الا سادات الناس هو الذى جعله من أفاضلهم رضوان الله عليهم أجمعين وعنا بهم آمين اه .

وقال فى النسمات وأما تواضعه رضى الله عنه فكان تواضع المحققين من أهل الباطن وأرباب القلوب ، ممن فنوا عن أنفسهم وبقوا بربهم وشهدوا عظمة علام الغيوب ، فكان يتواضع مع الكبير والصغير ويخفض الجناح للضعيف والوضيع والحقير خصوصا أرباب الخمول ورثاثة اللباس ، ممن لا يفتقدون إذا غابوا ولا يعرفون إذا حضروا فكان يعاملهم بمكارم الأخلاق ومزيد الاقبال والتعظيم والاحترام فيلين لهم الكلام ويظهر لهم البشاشة ويصرف لهم الوجهة وينشر عليهم رداء الاحسان ويؤانسهم ويلوا كلهم ويحادثهم بما يدخل عليهم السرور ويزيل عنهم الوحشة والنفور وترى منه معهم من البشر وطلاقة الوجه وانشراح الصدر وطيب الكلام مالا تراه منه مع غيرهم وهكذا كانت معاملته أيضا مع آل البيت والعلماء وأهل الفضل والدين يعظمهم ويجلهم ويتواضع معهم ويتصاغر دونهم ويغيب عن نفسه فى رؤيتهم وينسى حقوقه فى حقوقهم بل لا يرى لنفسه وجودا

معهم . وبالجملة فتواضعه رضى الله عنـه تواضع العارفين وخضوع الاولياء الـكاملين لاتـكلف فيه ولاإتعمل ولا تخلق بل كان خلقـا ممزوجا بذاته ، وهو التواضع الحقيقى الناشىء عن شهود عظمة الحق جل جلاله الذى يغيب صاحبه عن شهود تواضعه وهو وراثة نبوية من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم كسائر أخلاقه اهـ .

قلت : ومن تواضعه أنه كان لايؤم الناس فى المحافل والمجالس ، بل يقدم من حضر من أهل العلم والفضل حتى من الطلبة الصغار فى السن إذا لم يوجد غيرهم . وكان لايحب من يمدحه بالنظم والنثر ولا يترك عنـده قصيدة قيلت فى مدحه الا نادرا ولا يظهر ذلك لأحد ولا يذكره قط ولو كان يترك تحت يده ما قيل فيه من القصائد والامداح ولم يحرقه لجمع من ذلك الشىء الـكثير .

وكان لا يلقن العلماء وأصحاب المظاهر وان طلبوا ذلك منـه وألحوا عليه فيه بل يتواضع معهم ويقول أنتم غـير محتاجين إلى أمثالنا ويعظم من شأنهم ويصغر من نفسه حتى يقوم ذلك الشخص من عنده وهو معتقد أنه حائز لـكل فضيلة وكمال ، وهـذا خلق غريب بالنسبة للمتمشيخين من أهل العصر فانهم يفرحون غاية بكثرة التاقين بل يدعون الناس إلى الأخـذ عنهم وربمـا لقنوا الرجـل وهو كاره لذلك ودعوه إلى ترك ما أخـذه عن غيرهم قبلهم رغبة فى كثرة الاتباع وحب الرياسة والظهور ، وكذلك كان لا يتظاهر بالـكرامات تواضعا وسكونا ورغبة فى الخفاء وعدم الظهور الا ما أظهره الله تعالى على يديه من غير اختيار ولا قصد إلى إظهاره بل كان يذم ذلك ويعده من الرعونات والنقص فى مرتبة الـكمال .

قال فى حادى الرفيق بعد حكاية كرامات صـدرت على يديه ما نصه مع أنه رضى الله عنـه كان لا يتظاهر بكرامة ولا يميـل إلى شىء من ذلك .

وكان يقول : الولى إذا كان يريد ظهور الـكرامة على يده فهو لا يزال ناقصاً ، وكثيراً ما كان يقول لنا فى مجلس المذاكرة نحن لسنا بشيوخ وأنتم

لستم بفقراء وإنما نحن مجتمعون للتعاون على عبادة الله تعالى وذكره على قدر الطاقة وبرود همة أهل الوقت اه .

ومن تواضعه أنه كان كثير الاستشارة مع أصحابه بل وخدمه وأولاده الصغار فى أغلب شئونه ولا ينفرد برأيه فى التقدم إلى شيء وإمضائه دون مشورة إلا فى القليل النادر مع أن الناس كانوا يتواردون عليه أفواجاً للمشورة معه فى أمورهم المهمة فيرشدهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم لا من طريق حسن النظر وإصابة الرأى فقط بل ومن جهة الفراسة الايمانية والكشف النورانى فكثيراً ما كان ينهى أقواماً عن مزاولة أمور هى فى الظاهر وما يبدو للناس فى غاية الموافقة للصواب ثم بعد ذلك يتضح منها ما لم يخطر لأحد على بال وربما أشار بما يثقل على النفس ويظن أنه بعيد عن النجاح فيكون فيه الخير العظيم والبركة التامة وقد تأخر قوم عن إشارته بعد استشارته فما أفلحوا ولا أنجحوا بل وقعوا فى المهالك والمعاطب ومع هذا فكان هو لا يقدم على أمر إلا بعد استشارة امتثالا لأمر الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم كما كان يلازم الاستخارة ويحث عليها دائماً ويبالغ فى الأمر بها . ولا يحب من أحد أن يتقدم لأمر هام دون أن يقدمها بين يديه ، لا سيما أهل العلم والنسبة إلى طريق أهل الله .

فصـــل

ومن تواضعه وحبه للخفاء وإيثاره الخمول على الجاه والرياسة والظهور اختياره السكنى بمدينة طنجة على غيرها من المدن ومفارقته وطنه الذى لو أقام به مع ما لوالده وأسلافه من الشهرة والجاه ونفوذ الكلمة ومع ما أكرمه الله به من المواهب والعلوم والأسرار والمعارف وجميل العشرة ومكارم الأخلاق لحصل له من

الشهرة والجاه والخير العظيم وإقبال الخلق ما لم يحصل لغيره وقد تعلق به أهل فاس وكذلك أهل الاسكندرية والتزموا ببناء الزاوية والقيام بجميع الشئون فلم يقبل إلا أن يقيم بالبلد الذى لايعرف فيه قدره والذى يزداد أهله له عداوة وبغضاً ومحاربة وحسداً كلما رأوا زيادة فضل الله عليه وبعد صيته واشتهار ذكره وعظمة جاهه كما هى عادتهم مع جميع أهل الفضل من الأشراف والأولياء والعلماء فقد أقام الشيخ رضى الله عنه بين أظهرهم خمساً وثلاثين سنة حييت فيها بلدهم بعد موتها واشتهر ذكرها بعد خمولها وعمرت بذكر الله وذاكريه بعد خرابها وقصدها الأشراف والعلماء والفضلاء والأولياء بعد أن لم يكن يقصدها إلا الشرطية والطوبجية وصائدوا الأسماك من الأسبان والبرتغال وصار يسمع فى أزقتها ذكر الله تعالى صباحا ومساء بعد ان لم يكن يسمع بها إلا زمارة الطوبجية وأصوات السكارى ووقع المجاديف وفشا فيهم العلم والفضل وقام فيهم سوق الأدب والدين فكانوا أخسر الناس صفقة فيه وأتى اليهم من المعروف وأنواع البر والاحسان فى الحسيات والمعنويات مالو فعله مع أهل قطر كافر لأسلموا فلم يكد يخلو فرد منهم من وصول بر الشيخ وإحسانه اليه من شفاعة ووساطة فى وظيفة أو معالجة أو مساعدة أو اصلاح أو قراءة علم أو غير ذلك مع ما كان يدافع عنهم هو وأصحابه لدى الحكومة يريد بذلك حفظ حقوقهم ورفعة قدرهم وإبقاء حرمتهم فلم يزدهم ذلك إلا حقداً عليه وحسداً له وبغضاً فيه وسعياً حثيثاً فى إذايته وإطلاق اللسان فيه بما هم متصفون به ثم اجتمعوا كلهم بدعوة قائدهم وكتبوا اعريضة قدموها للسلطان وغاب من أنزل بها خطه تلامذته فى العلم والطريق أو ممن دخلوا فى صف الأناسى واستنشقوا رائحة الوجود بوساطته وشفاعته بعد أن كانوا مساوين للعدم من كل الوجوه وقصدوا بذلك نفيه من البلد هو وأصحابه وأرسل اليه بعض أعيانهم يقول اخرج عنا من بلدنا ودعنا فى أمن وعافية فدارت عليهم الدائرة وسقطوا فى حفرة مكرهم وابتلوا بما صاروا به متميزين عن سائر مدن المغرب من تشتيت الرأى وتفريق

الـكلمة وفرط الجبن مع الفقر والحاجة والذلة والمهانة ونفى الله من تولى كبر ذلك وأخرجه من وطنه وأنزل بهم عقوبته على عدم شكر نعمته وجعلها سارية فى عقبهم إلى يوم القيامة على أن الله تعالى سلك بالشيخ فى ذلك مسلك سلفه الأولياء الأكابر أفراد الأمة المحمدية وورثة الأنبياء والمرسلين كما هى سنة الله تعالى فيهم .

قال القطب الـكبير مولانا ابو الحسن الشاذلى رضى الله عنه جرت سنة الله تعالى فى أنبيائه وأوليائه أن يسلط عليهم الأذى فى ابتداء أمرهم باخراجهم من أوطانهم ورميهم بالبهتان والزور ثم تكون الدالة لهم آخراً ان صبروا قال ولما علم الله عز وجل ماسيقال فى أنبيائه وأصفيائه قضى على قوم بالشقاء فجعلوا لله تعالى زوجة وولداً وقالوا يد الله مغلولة وقالوا ان الله فقير ونحن أغنياء حتى إذا ضاق ذرع النبى أو الولى من كلام قيل فيه نادته هواتف الحق تعالى أما لك بى أسوة فقد جعلوا لى زوجة وولداً ونسبوا إلى مالا يليق بجلالى وعظمتى وأنا خلقتهم ورزقتهم فلا يسع ذلك النبى أو الولى إلا التأسى ولذلك تحمل الأنبياء والأولياء مايرميهم به قومهم من الزور والبهتان والجنون والسحر وغير ذلك مما هو مشهور فى الـكتاب والسنة اهـ

وحكى العارف تاج الدين ابن عطاء الله عن أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنهما أنه كان يقول لايكمل عالم فى مقام العلم حتى يبتلى بأربع شماتة الأعداء وملامة الأصدقاء وطعن الجهال وحسد العلماء فان صبر على ذلك جعله الله اماماً يقتدى به اهـ .

ومن الغريب أن بعض زعمائهم فى الاوصاف والأخلاق المذكورة قال فى هذه الأيام وهو فى مجلس جرى فيه ذكر الشيخ رضى الله عنه لو أقام السيد بباريز المدة التى أقامها بطنجة لـكان له شأن عظيم ولـكنه أقام بين من لايعرف قدره

فصـــــل

وكان رضى الله عنه شديدالحياء لايكاد يكلم إنسانا وهو ينظر إليه إلا فى ساعة المذاكرة العلميــة أو مع من هو من خاصة أحبابه وجلاسه ولا يواجه أحداً بمكروه ولا يطالبه أحــد فى شىء فيرده أو يمتنع من اجابته إلى مراده ويتحمل ضرر الثقلاء وكثرة كلامهم وإطالتهم المجلس ولا ينصرف عنهم حتى يكون الواحد منهم هو المنصرف بنفسه ولا يعارض أحــداً فى قول ولا يرد عليه كلاما ولا يكذبه فى خبر أو حكاية ولو تحقق كذبه .

قال فى نبذة التحقيق كان أشد حياء من العذراء فى خدرها فـكثيراً ماتلقاه ولا تكاد تراه إلا مطرقاً بعينه ورأسه يكلمك وربما لاترى داخل عينيه .

وكان لايحضر المحافل العمومية لا سيما أواخر عمره فاذا حضر كان على غاية من الأدب والـكمال والتواضع فى جلسته وهيأته وكلامه .

وكان على أدب كامل مع الله تعالى ومع شريعته المطهرة وسنة نبيه المشرفة ومع جميع عباد الله تعــالى فى سكناته وحركاته فلا يخرج عن طريقة الآداب الشرعية فى شىء اصلا فلا يمد رجليه لا مع الناس ولا منفرداً وحده لا فى حالة الصحة ولا فى حالة المرض ولا كان ينام على ظهره ويجعل إحدى رجليه على أخرى ولا يجلس جلســة المترفين أو يتكىء على احد جنبيه وإنما كان يجلس متربعاً أو محتبياً لا سيما وقت المطالعة .

وكان يتأدب مع كتب العلم فى الوضع والترتيب فلا يضع كتاب نحو أو أو تاريخ أو ادب على كتاب فقه او تصوف فضلا عن حديث او تفسير بل كان يضع كتب التفسير العليا ثم التى تليهــا كتب الحديث ثم الفقه والتصوف ثم الـكلام والأصول ثم النحو واللغـة والأدب والتاريخ وإذا رأى مجلد تفسير

او حديث تحت مجلد نحو او تاريخ بادر فى الحال ووضعه فى اعلى الكتب

وقد دخلت يوما بمصر على بعض العلماء الذين يدعون العمل بالسنة فوجدت بين يديه كتباً كثيرة فيها النهاية لابن الأثير فى غريب الحديث والقاموس وغيرها وكان يصحح تاريخ الخطيب عند طبعه وإذا هو واضع صينية القهوة بأوانيها فوق تلك الكتب يشرب عليها القهوة فنهيته عن ذلك فقال لم أحسب ان فيها شيئا ولا ان فيها اهانة .

ودخلت يوماً على بعض من يدعى أنه شيخ للطريقة الخلوتية فاذا هو رجل جالس على كنبة وفارش تحت رجليه كثيراً من الجرائد واضع رجليه عليها مع انها لا تخلو من مقال فيه آية أو حديث او من اسم الله على الأقل .

فصل

وكان رضى الله عنه سليم الصدر والنية كثير التصديق حسن الظن يسلم لكل مدع دعواه ويصدق كل قائل فيما يقول لا يكاد يخطر بباله تهمة احد بكذب او تدليس او غش أو خديعة ونفاق مجبولا على ذلك بطبيعته وفطرته التى فطره الله عليها مع التخلق بالأخلاق النبوية فى ذلك والاوامر الشرعية بحسن الظن والحث عليه والترغيب فيه .

وكثيراً ما كان يرد عليه المتمشيخون فيدعون عنده بالمقامات العالية والكرامات الكثيرة وحضور الديوان ونحو هذا فيصدقهم فيه ويعاملهم على مقتضى دعواهم من الاجلال والاكرام اللائق بصاحب تلك المنزلة وإن كان كاذباً فيها بمقتضى شواهد الحال فضلا عما وراء ذلك وما علم أنه امتحن احداً فى مقام ادعاه او رد عليه ذلك لا فى حضوره ولا فى غيبته بل يسلم ذلك ولو تحقق فى نفسه بكذبه بل كان يعتنى غاية بالستر على الكذابين المدعين ويذب عنهم ويتأول ما صدر منهم مما يخالف اصول الطريقة او يباين حال العامة من الناس ويجيب عن ذلك بأجوبة ويعتذر عنهم بوجوه من الأعذار ما لم

يكن ذلك مخالفاً للشرع خارجاً عن حدوده . وقد ذكرت فى الأصل عدة حكايات وقعت له فى هذا الباب .

وكان ستيراً على أهل المعاصى فاذا اطلع من أحد على شىء لا يفضحه ولا يذكر ذلك لأحد بل يغض الطرف عنه كأنه لا علم له بشىء وإذا اقتضى الحال زجر الفاعل عن ذلك الفعل دعاه فى خلوته من حيث لا يطلع عليه أحد وزجره ونهاه حتى كان كثير من خدمه وأصحابه وأولاده يخافون من اطلاع أحد عليهم فى شىء ولا يخافون من اطلاع الشيخ لتحققهم بستره عليهم وعفوه عن جنايتهم دون غيره .

وكان يقوم بحقوق أصحابه وإخوانه من جميع الوجوه ولا يتشوف هو لأن يقوم أحد بحقوقه ولا يعتب على أحد فى تضييع حق من حقوقه أو إساءة أدب معه أو هفوة صدرت منه وإن عظم أمرها وتكرر فعلها ويقول لمن يذكر له شيئا من ذلك إن الناس اليوم يرون لهم حقوقاً على غيرهم ولا يرون لغيرهم حقاً عليهم . فالواجب علينا أن نقوم بحقوقهم امتثالا للسنة المحمدية وعملا بأخلاق مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ننتظر من أحد أن يقوم لنا بحق وإلا قاطعنا الجميع وأعرضنا عن الكل وعاديناهم لأن هذا وصف غالبهم وما بذلك أمرنا الله .

وكان يقول : الناس كلهم يحتاجون الينا ونحن نرجو الله تعالى أن لا يحوجنا إلى أحد منهم .

وكان إذا كثرت عليه الشكايات بالفقراء وتكررت لديه الأخبار عنهم بما يسوء يقول لم يبق اليوم فقراء وإنما هم قفراء بتقديم القاف على الفاء .

ويقول فى حقهم أيضاً : إن الفقراء فيما مضى كانوا فقراء بلا بطون ثم صاروا فقراء ببطون ، وأما اليوم فبطون بلا فقراء .

وكان يأسف لموت أحد من إخوانه فى الله ومجالسيه ويبكى بكاء شديداً

لا سيما فى أواخر عمره فانى رأيته يبكى عنـد موت بعضهم بكاء شـديداً وينتحب نحيباً يسمع من بعيد كما يبكى الرجل على والده وأمه وأعزأولاده لكثرة محبته وألفه باخوانه وجلاسه .

وكان يحب موافقة السنة فى كل شىء ويسعى جهـده أن يحصل له كل ما حصل للنبى صلى الله عليه وسلم ويحث على هـذا وينبه للعمل به ويحكى عن الشيخ الأكبر محيى الدين ابن العربى رضى الله عنه أنه أخـذ يوماً طفلا فبال عليه ففرح بذلك أو قال أولم لأجل ذلك وقال الحمد لله هذه آخر سنة لم نـكن أدركناها قد حصلت لنا الآن ببول هذا الطفل لأن النبى صلى الله عليه وسـلم أتى بطفل رضيـع لم يطعم فبـال عليه وكان الشيـخ يحب كل ما كان النبى صـلى الله عليه وسلم يحبه من الأطعمة كالدباء ونحوه ممـا ورد فى السنة وكذلك كان يحب المعاملة مع اليهود والاسـتدانة منهم لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعاملهم ويستدين منهم ، ومات ودرعه مرهونة عند يهودى .

ولمحبته فى الاقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم وموافقة سنته اختار الله له موافقته فى كثير من أموره بغير قصد منه واختيار . فتزوج قبل وفاته بشهر ونصف أو نحوه بزوجة لم يدخل بهـا لأنها زفت إليه فى رمضان وكان الضعف ومرض القلب الذى مات منـه قد اعتراه مع الصيام إلى أن مات فى سادس شوال ، وكذلك تزوج النبى صـلى الله عليه وسلم قيـلة بنت قيس الكندية قبل وفاته بشهرين وقيل فى مرض موته وقيل فى ربيـع الاول ولم يدخل بها لتأخر قدومها عليه إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى صـلى الله عليه وسلم .

ولما حج الشيخ رضى الله عنـه كانت وقفته بالجمعة كما كانت وقفة النبى صلى الله عليه وسلم مع أن الشيخ خرج للحج قبل ظهور ذلك لأن خروجه من وطنه كان فى شعبان كما سبق .

وتوفى الشيخ رضى الله عنـه وعليه ديون كما توفى النبى صـلى الله عليه وسلم وعليه دين كذلك .

ولم يتزوج على زوجتـه الأولى إلى أن توفيت ثم أخـذ بعدها زوجات متعددات وكذلك فعل النبى صلى الله عليه وسلم لم يتزوج على خديجة رضى الله عنها إلى أن ماتت فأخذ زوجات متعددات .

وكانت زوجته الأولى فاضلة عاقلة صالحة ذات مناقب وكرامات كما كانت خديجة رضى الله عنها ذات مناقب جمة وفضائل عديدة .

وكان إذا نابه شىء فزع إلى الصـلاة كما كانت سنة النبى صـلى الله عليه وسلم فـكان يفرج ما نزل به فى الحـال ويقضى ما قصـده بامتثال أمر الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

وكان يكرم الجار غاية ويراعى حرمته وحقوقه على أى حالة فلقد كان له جارمفرط الجهل والاسراف على النفس مع التـكبر على الله تعالى وعلى عباده الصالحين فلا تلين قناته لأهل الفضل والدين ولا يظهر لهم ميلا ولا احتراماً كأنه غنى عن رحمـة الله تعالى . ومن جهله المفرط أنه بلغ السبعين من العمر وما سجد لله سجدة قط ، فقال له بعضهم يوماً ألا تصلى ، فقال نحن ما كنا نلعب صغاراً فضلا عنا ونحن كبار . وبالجملة فـكان فى منتهى الجهل والجفاء والاسراف كماتقتضيه طبيعةأرضه لأنهمن ذوى بيوتها . فـكانالشيخ رضىالله عنه يكرمه على هذا الحال ويراعى حق جواره لأنه كان ملاصقاً له . ولما توفى خرج لحضور جنازته والصلاة عليه بباب الدار مع أن الفقهاء يكرهون الصلاة لمن هو دون الشيخ على من هو أحسن حالا من هـذا الجار سامحنا الله وإياه وعاملنا جميعاً بفضله ورحمته .

وكان ينخدع لمن خدعه ولو كان خداعه من البين الواضح المـكشوف فـكان جماعة من أتباعـه وفقرائه يبغضون أولاده وأقاربه بحكم طبيعة البلد التى ينبت ماؤها وهواؤها الحقد والحسد فى القـلوب كما ينبت المـاء البقل

والربيع وكانت تحصل منهم إذاية عظيمة وإهانة كبيرة لا يتحملها بشر لأولئك الأقارب والانجال ثم يأتى أحدهم الى الشيخ رضى الله عنه يريد خداعه والتلبيس عليه قائلا إنى فعلت مع الشريف الفلانى كذا وكذا من سب وإهانة واحتقار وأخذ حق ومال ، وما قصدى بذلك الا تعظيم جنابكم وتبرئة ساحتكم لأنى رأيت منه مالا يليق بمقامه ومقامكم فيعلم الشيخ أنه كاذب فى دعواه وأن الذى حمله على ذلك فرط حقد وحسد فى قلبه وحب انتقام من أهل الفضل والدين ولكنه يظهر له الفرح والسرور ويقول جزاك الله خيرا ويمدحه على فعله ذلك ويطريه حتى يذهب الأحمق المغرور وهو ظان أن خداعه قد راج على الشيخ بل لا يكتفى بذلك حتى يعتقد أنه على حق وصواب وفضل كبير كما حلاه به الشيخ الذى قد عرف قصده وتحقق من كذبه ليس فى مرة واحدة فقط بل والله فى مئات المرات وقد يستدعى الشيخ رضى الله عنه ذلك المظلوم المعتدى عليه من ذلك الجاهل المجرم فيوصيه بالصبر والاحتمال ويقول له أنا متحقق من أنك مظلوم برىء مما نسبه اليك فلان وأنا أعرف قصده من ذلك ولكن حيث وقعنا معهم وابتلانا الله بصحبتهم فلا حيلة لنا الا احتمال أذاهم والصبر عما يأتينا من إذايتهم كما أمرنا الله تعالى وما هى إلا أيام قليلة يصبر فيها المرء ثم يعاجله الله تعالى بالنصر والفرج على عدوه وإن أحياك الله تعالى فسترى من أعدائك ما يسرك إن امتثلت أمر الله فيهم بالصبر والاحتمال وعدم المقابلة بالمثل وقد وقع والله كل ما قال وظهر ظهور الشمس فى رابعة النهار ولا يزال يظهر وينمو حتى يصل المنتهى والحمد لله رب العالمين .

وكذلك كانوا يخدعونه من جهة المال والتوسط فى الحصول عليه بضمانة ووساطة ونحو ذلك بأعذار وكلمات ظاهرها حق وصدق وباطنها غش وخداع فينخدع لهم ويوصلهم الى ما أرادوه مع تصريحه لبعض خواصه

فى كثير منهم أنه يعلم كذبهم وعزمهم من أول مرة على أكل المال وعدم رده إلى أربابه ليدفعه الشيخ من عنده ولا يحصى من كان يعامله بمثل هذا وهم على قسمين . منهم من كان يعتقد أنه لحذقه وذكائه يخدع الشيخ ويغره اسلامة صدره وصفاء طويته . ومنهم من كان متحققاً بأن الشيخ غير مخدوع فى الواقع وإنما يتظاهر بأنه قد انخدع لارضاء الخادع ومع ذلك فكان يعامل الشيخ بطريقة المكر والخداع لغلبة ذلك على طباعهم مع قلة حيائهم .

وقد روى البخارى فى الأدب المفرد وأبو داود والترمذى والحاكم والبيهقى وغيرهم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المؤمن غر كريم والفاجر خب اثيم » يعنى ان المؤمن المحمود فى الفعال والخصال من كان طبعه الغرارة وقلة التظاهر بالفطنة للشر وترك البحث عن الأمور وليس ذلك منه جهلا وغباوة بل تجاهلا وتسامحا لكرم أخلاقه وحسن طباعه . والفاجر من أخلاقه الخبث والدهاء والتوغل فى معرفة الشر والحذر لدناءة طبعه ولسوء أخلاقه وفقده الكرم من نفسه .

قال بعض العارفين كن عمرى الفعل فان الفاروق رضى الله عنه يقول : من خدعنا بالله انخدعنا له . فاذا رأيت من يخدعك وعلمت أنه مخادع فمن مكارم الأخلاق أن تنخدع له ولا تفهمه أنك عرفت خداعه . فاذا فعلت ذلك فقد وفيت الأمر حقه لأنك إنما عاملت الصفة التى ظهر لك فيها والانسان إنما يعامل الناس لصفاتهم لا لاعيانهم فاذا عاملته بما ظهر منه كنت مؤمناً حقاً. والمؤمن غر كريم لان خلق الايمان يعطى المعاملة بالظاهر اه .

وقد نص العارف الشعرانى فى الأخلاق المتبولية على أن هذا من أخلاق العارفين وكمل الرجال كما نقلته فى الأصل . وعلماء الوقت يسمون مثل هذا مغفلا وعبيطاً جهلا منهم بالسنة وإعراضا عن العمل بها . نسأل الله السلامة والعافية بمنه .

فصـــــل

وكان يضع السبحة فى عنقـه إذا خرج ويمسك بيـده العصا الطويلة المستقيمة ذات الزج كما هى سنة الأنبياء عليهم السلام وورثتهم من الصوفية العرفاء رضى الله عنهم لا العصى القصيرة المعكوفة الرأس كما يمسكها علماء مصر بيدهم زينة وتـكبراً وافتخاراً وتشبها بالنصارى لانها من سنتهم التى تبعهم فى جميعها علماء مصر ، نسأل الله اللطف والعافية .

وكان فى بداية أمره يجهر بذكر الله فى الشوارع ويأمر بذلك الفقراء كما كان يأمرهم بحفظ القرآن وتعاهد دراسته وتلاوته .

وكان يحث الفقراء وطلبة العلم منهم ومن غـيرهم على الاشتغال بالحرف وتعلمها والتـكسب بها وبالتـجارة ويقبح لهم البطالة جـدا ويبالغ فى ذمها وذم الـكسل والاتـكال على الناس . ويقول ان ترك الحرفة والتجارة يؤدى بالطالب والفقير الى أن يأكل بدينه أو يتذلل لاهل الدنيـا أو يدخل فى الوظائف الحـكومية مثـل القضاء والشهادة ونحوهما ممـا يهدم الدين جمـلة ويقضى عليه بالـكلية . ويقول لان يبيع طالب العلم الفحم والنعناع فى الشوارع خير له من الدخول فى القضاء والشهادة .

وكان كثير الاهتمام بأمر العامة شديد الشفقة عليهم قد بذل كل ما فى وسعه وطاقته لنفى الشر عنهم والتوصل إلى أسباب انقاذهم ممـا هم فيه . فلما أعياه أمرهم وعلم أن مراد الله منهم ما هم فيه أقبل على شأنه وأمر الفقراء المتجردين فى الزاوية بادامة قراءة سـورة يس صـباحا مع الوظيفة بنية الفرج على الامة ودفع البلاء عنها . وبذكر اسمه تعالى اللطيف كل ليلة لهذا الغرض أيضا وترك ما كان يسعى فيـه من الاسـباب الحسية الظاهرة لذلك لبلوغه مقام الـكمال فى المعرفة بالله تعالى .

فقد ذكر العارف الشعرانى فى الفلك المشحون أن من أخلاق الكمل من العارفين عمل أحدهم على تحصيل مقام عدم الاهتمام بأمر المسلمين وعدم مشاركتهم فى همومهم اكتفاء بتدبير الحق لهم ورحمته بهم وشفقته عليهم لا استهانة بحقوقهم وذلك بعد عملهم على مقام مشاركتهم فى كل هم وغم حتى بلغوا الغاية فى ذلك ودليلهم فى الشق الاول العمل بباطن حديث «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم» بعد عملهم بظاهره وهو مقام عزيز قل من يتنبه له من الفقراء وإيضاح ذلك أن هذا الحديث يحتمل أن يكون المراد به أنه ليس منهم على وصف الذم ويحتمل أنه ليس منهم على وصف المدح كما هو شأن الكمل من الاولياء لان أحدهم قد ارتفع عن مقام الاسلام والحجاب الى مقام الاحسان والايقان فضلا عن مقام الايمان يشهد أن الله ما ابتلاهم إلا لحكمة بالغة إما ليؤدبهم بذلك أو ليكفر عنهم سيئاتهم أو يرفع بذلك درجاتهم وصاحب هذا المشهد لا يكاد يهتم لاحد من المسلمين الا بالجزء البشرى الذى يدق فيه . وكأن وجوده عدم ثم أطال النقول فى هذا المعنى عن شيوخه كسيدى على الخواص وشيخ الاسلام زكريا الانصارى وسيدى أفضل الدين وسيدى على المرصفى بما فيه لطائف وفوائد لا تخطر ببال محجوب فارجع إليه فانه نفيس جدا . وذلك بالباب الخمسين من الكتاب المذكور فكان الشيخ رضى الله عنه فى بداية أمره يعمل بظاهر الحديث المذكور ويهتم بأمر المسلمين اهتماما ماراه الراؤون من أحد من أهل عصره لا سيما العلماء ودام يسعى فى ذلك أزيد من خمس عشرة سنة بما يطول شرحه ولا يساعد الوقت على ذكره ثم صار فى نهايته يعمل بباطن الحديث أيضا فسلم الامر لله وصار يترقب مايبرز من الحضرة الالهية دون وساطة بشر أو سعى مخلوق .

وكذلك صار فى آخر عمره لا يتكدر مما عليه الناس من كثرة المعاصى والمخالفات . ولا يتأسف على ذلك ولا يكثر من ذكره الا على سبيل القلة

والندرة بخلاف ما كان عليه فى بداية أمره فانه كان كثير التعرض لذلك فى دروسه وخطبه ومجالسه بقصد تغيير المنكر والتنبيه عليه وذلك أيضا من كمال المقام فى المعرفة وهو مقام عدم الاعتراض على شيء من الاقدار الالهية ولو خاطراً كما ذكر العارف الشعرانى . قال وهو مقام عزيز لا يثبت فيه إلا من أطلعه الله تعالى على اللوح المحفوظ وعرف ما سبق به العلم الالهى . فهناك يذهب الاعتراض منه جملة ببادىء الرأى وصاحب هذا الاطلاع يعرف أن ما سبق به العلم الالهى لا يطلب تغييره لكونه على أعلى مراتب الكمال كما أشار الى ذلك الغزالى رحمه الله تعالى بقوله : ليس فى الامكان أبدع مما كان أى لأن جميع ما برز فى الوجود ما برز الا على أكمل مراتبه التى سبق بها العلم عند هذا المكاشف فكيف يقع منه اعتراض وهو يشهد أن ما برز فى الوجود أكمل مما يطلبه هو بعقله .

وسمعت سيدى علياً الخواص رضى الله عنه يقول من علامة صدق من اطلع على ما سبق به العلم الالهى فى اللوح المحفوظ أن لا يأمر الناس ولا ينهاهم الا بقدر ما فيهم من الجزء البشرى الذى هو مناط التكليف لا يزيد على ذلك ذرة ولا ينقص وان وقع أنه مدح من زاد على غيره فى الطاعات أو ذم من زاد على غيره فى المعاصى فانما هو من حيث الجزء البشرى كذلك انتهى وإلا فشهد صاحب هذا المقام أن العبد لا يقدر أن يزيد ولا ينقص مما قدر له أو عليه . ثم أطال النقول فى ذلك وهو مقام الشيخ رضى الله عنه ومشهده لأنه كان يقول لبعض من تقع منه المخالفات من خواصه استتر بستر الله ولا تبد شانك للناس فانهم لا يعذرونك ولا عليك من اطلاعنا فانا نعرف مراد الله منك ولا نلومك على شيء صدر منك حتى يكون الله تعالى هو الذى يظهر فيك مراده .

وسمعته مرة يقول لبعضهم : والله لو دخلت على سكران تمايل ما تغيرت منى شعرة واحدة عليك وأنا أعلم ما فى الأمر وما هو الواقع ولذلك كان

ستيراً على أهل المعاصى باراً بهم كما قدمناه .

وكذلك كان فى بدايته يكثر التعبد ويتقشف على قدر حال الوقت ثم فى نهايته ترك ذلك وصار لا يزيد على الفرائض فى الصلاة والصيام وربما صام يوم عرفة ونصف شعبان فى بعض الأعوام الا قيام الليل فانه لم يتركه أصلا وما كان يأتى عليه ثلث الليل الأخير الا وهو قائم وربما قام فى منتصف الليل وهذا أيضاً من كمال المقام فى المعرفة بالله تعالى كما هو معروف عند أهله .

وكان يفرح بكثرة كلام الناس فيه ويضحك اذا سمع الجرائم العظام التى ينسبها اليه أهل بغضه وعداوته ويبالغ فى إكرام من يرد عليه من المتكلمين فيه . وقد رأى بعض الشيوخ الصالحين من أهل فاس للشيخ رضى الله عنه مقاماً عظيما فسأل عن سبب وصوله اليه فقيل له كثرة كلام الناس فيه وهذا أيضاً من أسرار اختياره السكنى بطنجة والله أعلم .

الباب السادس

فيما أكرمه الله تعالى به من الفضائل والمزايا وخصه به من عظيم المنن وجزيل العطايا

فمن ذلك جمال الصورة الحسية والمعنوية وكمال الذات الجسمية والروحية أما جمال الصورة المعنوية وهو ما أكرمه الله به من الأخلاق المحمدية وزينه به من الاوصاف السنية فقد مر شرح بعضها فى الباب الذى قبله . وأما جمال صورته الحسية فقد أكرمه الله تعالى بكمال الذات واعتدال القامة مع ميل الى الطول شيئا قليلا وتوسط الجسم فلا هو سمين كثير اللحم ولا هو رقيق بين العروق والعظم ، مستدير الوجه الى الاسالة كبير العينين أسودهما طويل الاشفار واسع الفم مفلج الثنايا فصيح اللسان أبيض اللون مشربا بحمرة كث اللحيـة أسودها الا أنه شاب فى مقتبل كهولته فكان يديم الخضاب بالحناء فصارت حمراء مزهرة زادته نورا وبهجة فى أعلى جبهته دينار مخالف للجسم من أثر السجود جميل الاطراف سليم الأعضاء واسع الصدر بعيد ما بين المنكبين إذا مشى أسرع فى مشيته ومشى قصداً لايلتفت يمينا ولا شمالا إذا ماشاه أحد يتعب فى المشى من حيث يكون هو مستريحا لأنها مشيته العادية .

ومن ذلك النور والبهاء والهيبة التى لم نرها على أحد من أهل عصره لا بالمشرق ولا بالمغرب حتى كان لا يستطيع أحد أن يكلمه وهو ينظر اليه من هيبته وكان أعداؤه يقابلونه فى الطريق فلا يشعرون بأنفسهم الا وقد انحنوا لتقبيل يده . ولما كان بالقاهرة والاسكندرية كان لايمر بشارع من شوارعهما إلا قال الناس عند رؤيته ما شاء الله اللهم صل على سيدنا محمد استعظاما لبهائه وجلالته كما قال العارف ابن بنت الميلق فى وصف الشيخ الكامل رضى الله عنه :

إذا رؤى ذكر المولى لرؤيته ... وفاز بالسعد والتقريب رائيه
عبد عليه سمات العز لائحة ... وخلعة العز والتحكيم عاليه

ووقعت له قضايا متعددة مع شيوخ مصر وعلمائها دهشوا فيها لرؤيته لعدم اعتيادهم ذلك من شيوخهم وعلمائهم وجاء اليه مرة رجل متزوج بكافرة وأصحبها معه والشيخ لا يعلم بذلك فأمر بادخاله إلى غرفة المقابلة فلما دخل الشيخ عليهما حصل لزوجته من الهيبة أمر عظيم فصارت تبكى ثم قامت وخرجت فى الحال

وذكر فى حادى الرفيق أن الشيخ لما كان بالقبيلة الانجرية جاء لزيارته القائد ابن حازم فى جماعة كبيرة من أتباعه حاملين السلاح فلما انصرفوا سأل بعضهم القائد عن الشيخ فقال لما كنت جالسا بين يديه كنت أحس بأذنى تنتفخان من هيبته وبالجملة فأعطاه الله تعالى من الهيبة وكساه من حلة البهاء والجلالة ما كان يتصاغر عنده الأكابر والعظماء وتتضاءل أمامه رياسة الشيوخ والعلماء كما هو شأن كبار العارفين، حلة ربانية ووراثة نبوية .

فقد قال على عليه السلام فى شأن النبى صلى الله عليه وسلم من رآه بداهة هابه رواه الترمذى وأبو الشيخ فى الأخلاق والبيهقى فى الدلائل وغيرهم .

وفى وصف على عليه السلام يقول ضرار الصدائى : ونحن والله مع تقريبه إيانا وقربه منا لا نكاد نكلمه هيبة له رواه الطبرانى وأبو نعيم فى الحلية وكذا قال أبو حنيفة فى جعفر الصادق عليه السلام دخلنى له من الهيبة ما لم يدخلنى للمنصور .

وهكذا حال جميع الكمال من العارفين كما مر فى وصف الشيخ الكامل من كلام العارف ابن بنت الميلق رضى الله عنه .

ومنها الحرية وعدم الخوف من المخلوق فكان يصدع بالحق ولا يخاف فى الله

لومة لائم وينفذ رأيه ومايريده معارضاً بذلك للحكام وأعاظم الدول كأنه أكبر ملوك الأرض وأكثرهم جنوداً وأمنعهم قوة وما ذلك إلا اعتماداً على الله تعالى وتعززاً بجنابه واحتماء بنصرته وولايته وإن كان الجهال والمغرورون كانوا يظنون أنه يفعل ذلك اعتماداً عليهم واستناداً إلى قوتهم حتى امتحنهم الله تعالى فافتضحوا وتحققوا أن جميعهم كان في حمايته وتحت كنفه ورعايته مناً من الله تعالى عليه وعلى اللائذين بجنابه

وقد جاء إليه يوماً بعض الولاة ممن كان يظهر له محبة كذباً ونفاقا وهو في الحقيقة لايحب إلا اليهود وبعدهم النصارى فقال له على سبيل النصيحة والتخويف من معاندة الحكومة والوقوف في وجهها اعلم أنك صرت الآن عدواً لليهود والنصارى والمسلمين يعنى من أهل طنجة ولم يبق معك إلا الله تعالى فضحك الشيخ رضى الله عنه من مقالته وقال له إذن بقى معنا كل شيء وحزنا النصرة على كل أحد .

وحدثني الشريف العارف بالله تعالى سيدى محمد بن الغالى قال كنت ببنى زروال واجتمعت بحاكمها الفرنسى فقال لى كم تجمع تجكان من القبائل فقلت له هي قرية صغيرة فيهـا نحو ثلاثين داراً فدهش لخبرى وتعجب منه لظنه أن تجكان التي هي قرية الشيخ اسم لناحيـة كبيرة تجمع عدة قبائل لما يعلمه من معارضة الشيخ للدولة وعدم رضوخه لأوامرها فكان يرى ذلك لكثرة رجاله والقبائل التابعـة له لا سيما وهو يرى أن جميع شيوخ المغرب قد خضعوا لفرنسـا وأحبوها وخدموها وسعوا في مصالحها مع كثرة أتباعهم وانفرد الشيخ من بينهم بالتمسك بدينه وحريته كما ذكره الفرنسيون أنفسهم فقد كتب حاكم فاس الفرنسى بول أودينو مقالا نشره في جريدة لا مجيس مروكان بتاريخ سابع عشر ابريل من سنة سبع وعشرين وتسعمائة والف عنوانه مولاى التقى ذكر فيه أن جميع شيوخ المغرب خدموا فرنسـا إلا الشيخ الدرقاوى بطنجة

وقد نقلت نص مقالته فى الأصل مع عدة قضايا ووقائع فى هذا الباب وبالجملة فما رأينا ولا سمعنا من يعامل الحكام ويواجههم بما يكرهون إلا الشيخ رضى الله عنه فانه كان منفردزمانه فى الصدع بالحق وعدم الخوف من المخلوق كما كان يشهد له بذلك الموافق والمخالف .

ومنها كمال العناية وتمام الحفظ والرعاية فانه على كثرة أعدائه وحساده ولا سيما بطنجة وكثرة ما كانوا يبلغونه عنه من العظائم فى السياسة إلى كل من الدولتين وانه دائم السعى فى اثارة الفتنة التى يقصدون بها الجهاد مع ما كان يأتيه هو من مخالفتهما والدعاية ضدهما لم يسلط الله عليه أحداً ولم يصرف فيه مخلوقا ولم يمس بسوء أصلا وقد جاء اليه يوماأحد أصحابه فزعاً مرعوباًفأخبره عما حصل من الاحتكاك بين الفقراء والبوليس وان الأمرقدكاد يصل الى تكليم البارود فقال له الشيخ لا يحصل شىء من ذلك فانا بحمد الله محفوظون لا تصيبنا اذاية مخلوق وكذلك كان فعاش كما أراد من غير أن يتصرف فيه مخلوق أصلا وحتى إن ضريبة المبانى التى يدفعها كل أحدمن الناس ولوالوزراء والأمراء أبى أن يدفعها طول حياته وورد أمر من السلطان أخيراً باعفائه خاصة من دفعها .

ومنها حفظه من الذنوب من صغره وكونه شب ونشأ فى طاعة الله تعالى لم تحصل منه صبوة فى شبابه ولم تجر منه مخالفة فى صباه الى بلوغ كماله كما كان يذكر ذلك عن نفسه تحدثاً بنعمة الله تعالى عليه وكما كان يذكره أقاربه من أقرانه ومن كان أكبر سناً منه ممن نشأوا معه من صغره .

ومنها كون نعمه مكفورة غير مشكورة ولا مذكورة ادخاراً لثوابها عند الله تعالى دلالة على كمال إيمانه وكونه من أهل ولاية الله تعالى ورحمته فان أكثر من ناله فضل الشيخ وإحسانه لم يشكر ذلك ولا كان يعترف به لاسيما وقد أسكنه الله بالمدينة التى هى معدن هذا المعنى وأساسه .

وقد روى الحاكم فى المستدرك بسند صحيح من حديث سعد بن ابى وقاص

رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المؤمن مكفر يعنى يصنع المعروف فلا يشكر

وروى ابن أبى الدنيا من مرسل عروة قال حض رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا على رجل يأتى اليه معروفا فقال انى اصنعه به ولكنه يكفره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان رحمة الله على المكفرين هكذا وبسط يده

وروى أيضاً عن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رحمة الله على المكفرين أنا رفيقهم يوم القيامة وقال المؤمن مكفر

ومنها حال أصحابه معه من كمال الأدب ومزيد الاجلال والتعظيم والهيبة والاحترام لايتقدمون بين يديه فى شىء ولا يتأخرون عن امتثال أمره فى شىء واذا كانوا فى مجلسه فكأنما على رؤوسهم الطير لايرفعون بصرهم اليه هيبة وإجلالا فضلا عن أن يكلمه أحد منهم وهو ينظر اليه وهذا فضل من الله تعالى ومنة منه عليه فان ذلك غريب جداً بين أهل تلك القرية .

ومنها كشفه الصريح وكثرة الكرامات التى جرت على يديه كما سيأتى ذكر بعضه فى الباب الذى بعده

ومنها حفظه وسعة اطلاعه وتبحره فى العلوم الظاهرة والباطنة واستحضاره الذى لم يعهد له نظير من أغلب أهل عصره

ومنها علو مقامه فى المعرفة بالله تعالى وبلوغه رتبة القطبية كما أشار اليه كثير من أولياء وقته وصلحائه بل كان هو نفسه يشير إلى ذلك فى أواخر عمره

فحدثنى بعضهم أنه كان جالساً مع الشيخ رضى الله عنه فقال له ان واحداً من الناس مكث فى القطبية خمساً وثلاثين سنة وجمع الى القطبية الفردية والغوثية قال فقلت له هذا مقام كبير لايكاد يوجد فى هذا العصر فقال بل هو موجود

فى الوقت وفهمت أنه يشير الى نفسه

وحدثنى غيره قال كنا معه بالدار فى مجلس وهو يتكلم فى المعرفة ومقام الأولياء الى أن ذكر مقالة الشيخ عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه قدمى هذا فوق رقبة كل ولى لله تعالى فقال الشيخ رضى الله عنه وفى وقتنا هذا من الأولياء من يحمل الشيخ عبد القادر ويجعله تحت أبطه

وحدثنى من زار بعض أولياء الوقت المشهورين بالكرامات فقال له ان أولياء الله تعالى مع شيخك مثل الهراكس يعنى الفراخ الصغار

ويدل لهذا مبايعة شيخه له وهو لايزال معه فى الزاوية فانه جمع ذات يوم الفقراء وقال لهم بايعوا السلطان ومد يده هو أولا فبايعه ثم تبعه الفقراء وذلك اشارة منه رضى الله عنه الى القطبية التى هى السلطنة الحقيقية العظمى والسلطنة الظاهرية انما هى مجاز عنها .

وحدثنى من سمع الشريف العلامة الصالح سيدى تاج الدين ابن عجيبة وقد سئل عن سبب قلة وقوع الضرر بكثرة من الكور الذى يرميه الاسبان على القرى والمداشر بالقبائل الجبلية فانه على كثرة مايرمى بها لا يكاد يهدم بها بيت ولا يموت بها أحد فقال سبب ذلك ان صاحب الوقت وهو سيدى محمد ابن الصديق يضع يده على الكور فلا يقع بها كبير ضرر للمسلمين .

وحدثنى من ذهب أخيراً الى بعض الأولياء وكان متخوفا على من بعض الحوادث الوقتية فقال له ذلك الولى والله مايتوصلون منه ولا الى قلامة ظفر لاظاهراً ولا باطناً فان والده هو الذى يتصرف فى الكون كله .

وحدث من زار قديما بعض الظاهرين بالكرامات والأخبار بالمغيبات فى نواحى القبائل الغمارية من تلامذة سيدى الحاج عبدالقادر بن عجيبة فقال له ان الأمر الآن كله بطنجة فمن أراد شيئا فعليه بسيدى محمد بن الصديق ثم بعد هذا تكررت منه هذه المقالة لجماعة ممن قصدوه .

وحدث بعض طلبة العلم قال لما ذهبت لطلب العلم بفاس ذهبت فى صحبة

بعض الطلبة لزيارة الشيخ العارف بالله سيدى محمد بن ابراهيم فطلبنا منه أن يلقننا الورد لنتبرك به فقال كل ماعندنا من السر قد أخذه سيدى محمد بن الصديق فمن أراد شيئا فليذهب اليه .

ولما كان الشيخ رضى الله عنه بفاس فى زاوية شيخه رأى ذات ليلة بها كأن الشيخ مولاى العربى الدرقاوى رضى الله عنه جالساً تحت شجرة وفى عنقه سبحة فذهب وسلم عليه فخلع تلك السبحة من عنقه ووضعها فى عنق الشيخ رضى الله عنه ولواها مرتين ثم لقنه الورد فلما استيقظ قص هذه الرؤيا على شيخه سيدى محمد بن ابراهيم رضى الله عنه فقال له لقنى الورد كما لقنك مولاى العربى فامتنع الشيخ من ذلك فأقسم عليه بالله أن يفعل وأن يكون من أتباعه وقال له ما انا إلا عبدك بلغت الأمانة التى أودعها جدك سيدى الحاج أحمد بن عبد المؤمن عند شيوخى وهم أودعوها عندى وأنا قد رددتها إلى محلها فتلقن منه ثم أمر أصحابه وفى مقدمتهم نقيبه الشريف مولاى احمد الكتانى أن يتلقنوا منه فلقن الشيخ جميعهم امتثالا لأمر شيخه رضى الله عنه .

وكان الشيخ العارف بالله سيدى الطاهر التسولى بفاس يحب الشيخ كثيراً ويبالغ فى اجلاله وإكباره ويقول لتلامذته لاتدعوه إلا بسيدى محمد الكامل ومن لم يدعه بذلك فليس هو من أصحابى وكان يقول لهم من أراد أن ينظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر إلى سيدى محمد الكامل .

ومنها ماذكره بعض الصالحين من أنه لايرى وجهه شقى ولا يقف على قبره شقى ولا يأخذ ورده إلا سعيد .

فصـــــل

وأختم هذا الباب بما عثرت عليه من مكاتب شيوخه وشيوخ العصر وأوليائه في مخاطبته وذكر بعض القصائد التي قيلت فيه .

فكتب اليه من المدينة المنورة الشيخ الامام العارف القدوة المحدث سيدى محمد بن جعفر الكتاني رحمه الله تعالى ورضى عنه وهو أستاذه وشيخه فى العلم : أخانا وسيدنا الشريف الامام العلامة الصوفى الهمام وحيد الدهر وفريد العصر العارف بالله الذاب عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم السالك مسلك الصدق والتصديق أبا عبد الله مولانا محمد بن الصديق

وكتب اليه من دمشق شيخ الطريقة الشاذلية بها الولى الصالح سيدى محمد ابن يلس رحمه الله : كعبة الحقائق القدسية ومعدن الرقائق الانسية بحر العلوم اللدنية وكنز الأسرار الربانية شمس المعارف ومجمع اللطائف العارف بالله تعالى سيدى محمد بن الصديق

وكتب اليه شيخ الطريقة الشاذلية العلامة المحقق البارع سيدى مفضل أزيات: حياالله بتحيات قدس كماله وزكيات أنس جماله مطلع الشمسين وبرزخ البحرين العارف الواصل ذا المدد المتواصل الجامع لأشتات الفضائل العلامة الناصح الولى العارف الكبير أبا عبد الله سيدى محمد بن الصديق المؤمنى الحسنى

وكتب اليه من فاس الشيخ المربى العارف سيدى محمدا الحلو الفامى: شمس وقتنا وعروة طريقنا وريحانة الله فى أرضنا مربى المريدين وقدوة السالكين وقطب دائرة المحققين الشريف العالم الولى الكامل العارف بالله والدال عليه بأقواله وأفعاله وأحواله الجامع بين التشريع والتحقيق سيدى محمد ابن الصديق

وكتب اليه العلامة القاضى احمد بن شعيب الأزمورى : الحضرة الربانية والبهجة العرفانية الشيخ الامام العارف بالله العالم الخاشع الخاضع الشريف الربانى أبا عبد الله سيدى محمد بن الصديق فذكر كلاما يظهر معناه من الأبيات الآتية ثم قال وأقول لكم :

ياسيدى الشيخ نجل الصالحين ومن ... فى صالح القول والأفعال قد نشأ
يا ذروة المجد أستاذ الطريقة يا ... من فى السناء رؤى وللسنا قد رأى
ذا العبـــد آلمه حزن أضربه ... وإن يحز نظرة منكم فقد برأ

وكتب اليه العالم الأديب الفقيه الكاتب بالنيابة السلطانية السيد محمد الفلاوى: إلى من لا يطمع أبرع كاتب فى تعداد بعض كمالاته ومن تقصر ألسن الفصحاء عن التعبير بما خص به من بديع صفاته من لا نسميه إجلالا وتكرمة وقدره المعتلى عن ذلك يكفى بعد إهداء اطيب تحية وسلام وتقبيل اليد الكريمة التى تسيل من بحارها أودية الانعام فذكر كلاما ثم قال :

سل اصدق الناس عن حبى القديم تجد ... مصونه لم يزل فى القلب محروسا
فكيف أنسى و نيق العهد حاشا وقد ... حبست طوعا عليك القلب تحبيسا
لو لم يدم شخصكم فى الفكر مرتسما ... لكان طابع نجمى صار منحوسا
وإن يحل مانع عن وصلكم فعسى ... يكون خيرا لنا وللعدا بوسا
وليس من عجب قرب الديار ولم ... أصل وغيرى اليك يمتطى العيسا
ففى المقادير أسرار تجلت عن الا ... دراك قد حجبت فى الغيب تقديسا
لعل من قد قضى بالبعد يمنحنى ... حظاً أحوز به قربا وتأنيسا
ويبدلن دائى المضنى بعافية ... تؤسس الصدق فى الأعمال تأسيسا
بجاه جدك من شق الأمين فؤا ... ده وأخرج منه حظ ابليسا
عليه والآل أفضل التحية ما ... أضحى ودادكم فى القلب مغروسا

وقال الأديب الفاضل السيد عبد الله بن محمد الهاشمى الوزانى موريا بلفظة

القطب فى وصف مجلس الشيخ لقراءة صحيح البخارى وبالقرب منه نجلاه .

تأمل إمام العلم آية حفظه كبدر على الكرسى يضىء على الصحب
وقد أجلس ابنيه العزيزين قربه كما هو شأن الفرقدين مع القطب

وقال أيضا فى وصف درسه أن انقطع عنه مدة :

محدث عصر عاد بالعود أحمد لدرس حديث المصطفى خير من يهدى
عجيب يشم الند من جمع درسه وما نظرت عين لدرسه من ند

وقال أيضا وقد اجتمع به بدار بعض الأحبة :

بلقاء أهل الله يظفر بالشفا من كان قلبه بالذنوب على شفا
وينال فى الدارين غاية قصده والله يمنحه المسرة والصفا
وبمدحهم ينفى الشقا عن نفسه لا سيما بمديح نجل المصطفى
ابن الولى الصديق سيدنا ومو لانا محمد من بنوره يشتفى
شيخ المعارف والطريقة من به وبفضله هذا الزمان تشرفا
أحيى قلوب العالمين بعلمه وعن النهى ظلمات جهل قد نفى
فتبارك المولى الذى أعطى له علما بسؤل عنه لن يتوقفا
منه استمد الفتح والعرفان من وافى إلى أبوابه مستعطفا
وخطابه يشفى النفوس كأنما من لفظه الدر النفيس تألفا
تزداد إيمانا برؤية وجهه فكأن ناظره يطالع مصحفا
فريده من وجهه فى جنة وكفى له شرفا بنظرته كفى
كم من كرامات بدت ومناقب ومفاخر ظهرت وليس بها خفا
جمع المكارم كلها فتكاملت أوصافه العليا وحاز الاصطفا
أمداحه لا تنتهى وبذكرها تبدو المنافع للاحبة والشفا
لم يشق ناظره وملتمس الرضى منه ونظرته بها زال الجفا
ولقد سالت من الكريم جليسة معه فانعم لى بها وتعطفا
فشهدت فى نفسى من الافراح ما يعقوب شاهد حين أبصر يوسفا

قمر أضاء على اليقين ونجله نجم به نال الهدى وله اقتفى
يهنا جليسهما ويعظم أجره حتى كانه بين مروة والصفا
فالله أسأل أن يديم له البقا ولنجله ولمن بنورهما اكتفى

وقال الفاضل الأديب السيد محمد بن الشيخ القاضي :

الا واسكبا من فرط عشق الخرائد دموع العيون الواكفات الشرائد
خرائد لا تنظر مدى الدهر مثالها تميس كغصن البان وقت العوائد
تهادى وتمشى كالهوينا طبيعة وتستر رمان الشدى النواهد
رمانا به يحيى القلوب وصالها ترائبها مصقولة كالقلائد
ألا ليت شعرى هل لدى الدهر عودة وهل من خليل للوصال مساعد
وصال لسلمى حين جاءت تزورنى ولم تأت إلا من فيافى الأباعد
فقلت سليمى لا أريد خرائدا وقصدى إلى شيخ الشيوخ وقائدى
الى الشيخ للصديق يعرف نسبة ويسمو بصدق فى كريم العوائد
بنيت لعلم الحق بنيان واصل مداو لداء القلب نافى الشدائد
وقمت بعلم الفقه حفظاً محرراً وعلم اصول مع دليل العقائد
وعلم الحديث والفنون جميعها ونحو اللسان والحروف الزوائد
أتيت لعلم الشرع والحق ناصرا فأنت بهذا العصر قطب الأماجد
كريم جواد عالم متواضع لكل جليس من قريب ووافد
بليغ فلا سحبان يوم لقائه خطيب ولا قس له بمعاند
سخى فلا معن يباهى وحاتم لكف نداه فى مجال المحامد
فكف السخا لا تستطيع لقاءه مخافتها من جوده المتوارد
وبحر الندا أمواجه متأدباً لفيض عظيم بالمعارف سائد
عليك بباب الشيخ تظفر بالمنا وكل جميل من طريف وتالد
فأنت إمام سابق فى فضيلة وأنت لطرد الجهل بدر الطوارد

وأنت لهذا العصر نور يضيئه ويقصر عن علياك مدح القصائد
فحمداً لمن أعطاك منه مواهبا تفوق على الأحصاء رغم الأحاسد

وقال الأديب محمد بودقة المكنامى :

عزمت فلم تخف إخفاق سعى ففزت بما هويت من المعالى
لمست بأصبع قمم التسامى ونلت من المزايا كل عالى
وطئت بأخمص أوج المعالى فأرغمت الأنوف ولم تبالى
وشاوك فى فنون العلم شاو لعمرى دونه لمس الهلال
كأنك ءاية من آى ربى تطاطىء نحوها هام الرجال
وكم وافت لك الأسرار تسعى على ساق بجد وامتثال
فأنت إمام كل الناس دنيا ونجل عميدهم يوم المآل
فخذها كالتهانى من صحيب يقدمها كعقد من لئالى
هنيئا يا ابن فاطمة بعيد عظيم المهرجان والاحتفال
بقيتم طبق مالك من أمان ونلتم كل مرتخص وغالى

وقال بعضهم ولم أقف على اسمه :

القلب من لهب الأشواق مكلوم إذ حب مثلك فى الأحشاء مكتوم
يا من سما بعظيم البر منزلة وفضله لجميع الخلق معلوم
أنت الامام الذى سارت مناقبه وبالعناية من مولاه مرحوم
لولاك فى أرض طنجة وساحتها تذب عنها لامسى رأسها الروم
هبوا لخدمته يا أهل بلدته قوموا لدعوته يا قومه قوموا

البـــاب السابع

في ذكر بعض ما جرى على يديه من الكرامات وأخبر به رضي الله عنه من المكاشفات وهو باب واسع لا تكاد تحصر أخباره ولا تدخل تحت العد وقائمه إذ قل أن يوجد أحد من أصحابه المتفرقين في الاقطار الشاسعة من حواضر وبوادي الا وعنده في هذا الباب أخبار ووقائع مما شاهده بنفسه أو سمعه ممن شاهده خصوصا وقد مات منهم العدد الكثير وانقطعت سبل المواصلة بهم وإنما نذكر هنا بعض ما شاهدناه وسمعناه ممن أمكن الاجتماع به في الوقت الحاضر .

فمن ذلك أني لما قدمت من القاهرة بعد وفاة الشيخ رضي الله عنه أتى إلى بعض أصحابه فقال لي إن زوجي حامل وقد نزل بها داء كان أصابها في بداية الحمل وكنت أخبرت به الشيخ فأمرني باطعامها اللوز المدقوق بالسحتر وقال لي إنها ستلد ولداً ذكراً فقلت له أطعمها الآن أيضاً ما أمرك به وبعد عشرين يوما ولدت ذكراً كما قال .

ومنها أن امرأة من قرابته جاءت لزيارته وكان لها ولد فمات ولم تحمل بعده نحو عشر سنين فقال لها إنك ستحملين قريباً بولد ذكر فسميه حمزة وسيعيش إن شاء الله فكان كما قال ثم لم تحمل بعده .

ومنها انه لما ولد آخر أنجاله قال لزوجاته ان والدي مات وترك ولده فلاناً ابن شهرين وأنا كذلك سأترك ولدي هذا ابن شهرين فمات بعد شهرين لان ولده المذكور ولد سابع عشر رجب وتوفي هو سادس شوال بعد شهرين وسبعة أيام أو ثمانية ولم يكن في ذلك الوقت مريضاً بل بعد ذلك بنحو نصف شهر تزوج امرأة أخرى كما سبق .

وتكررت الحكايات وتنوعت أساليبها عنه فى هذا المعنى وهو إخباره بموته لجماعة كثيرة من الناس تارة بالتصريح وأخرى بالتلويح .

ومنها أنه فى السنة التى توفى فيها قام ذات ليلة فى منتصف الليل على عادته فى كل ليلة لكن لم يذهب إلى موضع مصلاه بل بقى بداخل الغرفة وكانت الزوجة نائمة فانتبهت على سماع حركة وجلبة وأخذ وعراك شديد وبعدها سقط الشيخ سقطة منكرة فقامت فزعة فاذا هو جالس يلهث لهثاً عظيما وإذا حاجبه مشجوج ووجهه وصدره مكسوان دما فسألته عن الواقع فأجابها بأنه سقط على الحصير فقالت كيف يحصل مثل هذا الجرح العظيم من السقوط على الحصير مع انى كنت أسمع حركة وجلبة على أثرها استيقظت فأصر على ذلك وهو يضحك ويمسح الدم عن وجهه ولما شاع خبر ذلك سأله بعض من له به مزيد اختصاص فأخبره بأن ولياً لله تعالى من أهل اليمن كان يتعرض لبعض مصالح المسلمين فحصل بينى وبينه نزاع أدى إلى المضاربة والمقاتلة فقتلته بعد أن شجنى ثم بعد هذا الحادث بنحو السنة توفى هو رضى الله عنه كما وقع لجده سيدى أحمد بن عبد المؤمن فانه بعد قتله للغربزورى من طريق الغيب بسنة كانت وفاته أيضاً كما ذكرته فى الأصل وفى كتاب المؤذن مع بعض من وقع له ذلك من الأولياء .

ومنها ان بعض الفقراء لم يكن له فى بدايته أولاد فاوصى للشيخ بثلث ماله بعد الوفاة وكتب بذلك كتابا وأشهد عليه ثم أتاه به فبقى عنده أزيدمن عشر سنين وفى يوم أرسل به اليه وقال له انا كنا قبلناه منك فى وقت لم يكن لك أولاد واذ رزقك الله أولادا فانت أولى به فلما ذهب الرسول به إلى الرجل المذكور صار يبدى عجبه ويقول هذه كرامة عظيمة فان والدى وصله الخبر بأنى أوصيت بالثلث للشيخ فارسل إلى قريبا يقول لابد أن ترجع فيما أعطيت شيخك وإلا فانا ساخط عليك فبقيت متحيرا خائفا من سخط الوالد ومستحييا من الشيخ وبينا أنا أفكر فى ذلك ولم أخبر به أحداً إذا بك جئتنى بالكتاب من غير طلب ولا سؤال .

ومنها أنى كنت وأنا بالقاهرة أفعل شيئا أو أعزم على شىء فيأتينى منه كتاب بعد العزم بيومين أو ثلاثة يحذرنى فيه من ذلك الشىء ويذكرنى عاقبته أو يأمرنى به ويؤكد على فيه تارة تصريحا وتارة تلويحا مع أن الكتاب لا يمكن أن يصل من المغرب إلى القاهرة فى أقل من اسبوع فكان رضى الله عنه يكتب إلى فى ذلك العزم قبل أن يجرى بخاطرى .

ومنها ماذكره صاحب النسمات قال حلف رجل بالطلاق لا يدخل دار فلان لرجل من أصهاره ثم بعد مدة مات المحلوف عليه فسألنى الرجل هل يجوز له دخول داره بعد موته فارسلت الى الشيخ مع بعض أنجاله فاجابه بأنه لا يدخل فاستشكلت الجواب وظننت أن الرسول لم يبلغ السؤال على وجهه فكتبته فى ورقة وكتبت معه بعض النصوص الفقهية وأرسلت اليه فلما نظر فيه قال قل له الجواب ما ذكرته أولا فبقيت حائرا متعجبا فلما قابلت السائل سألته عن سبب الحلف فاذا هو حلف من أجل زوج الرجل الميت وكانت أخت زوجه هو لا من أجل الميت نفسه وإنما سماه عند الحلف لكونه صاحب الدار والمرأة المذكورة لا تزال بالدار والحلف انما وقع من أجلها فعلمت أن ذلك من كشفه رضى الله عنه .

ومنها انه لما ركب القطار متوجها من بورسعيد إلى القاهرة وقف البابور بأبى صير وكان وقت العصر فنزل الشيخ للصلاة ونزلنا معه فصار الركاب يقولون لا تفعلوا فان البابور لا يقف هنا الا قليلا بحيث لا تمكنكم الصلاة فلم يلتفت اليهم وصار أهل المحطة أيضا يصيحون ويقولون لم يبق لقيام البابور إلا دقيقة واحدة أو اثنان فنزل وصلى العصر بالاتمام أربع ركعات ثم سلم وركب وقام البابور وصار الناس متعجبين لتأخر البابور عن موعد قيامه .

ومنها أنه كان له تباع كثيرون من الجن كان يراهم أهل البيت ووقعت لهم معهم وقائع متعددة فكانوا يذكرون ذلك للشيخ فيقول لا تخافوا فانهم فقراء يأتون للزيارة .

ومنها انه خرج ذات يوم إلى الجيزة بضواحي القاهرة وجلس بمكان متسع هناك معد للجلوس فى الصيف لمن يشرب الشربات والمبردات فجلس وجلسنا معه فرأيت فى منتهى ذلك الموضع شاشة بيضاء لعرض السينما على القاعدين بعد الغروب فقلت فى نفسى إذا جلس إلى وقت عرضها فسينظر اليها اليوم وكان يسمع عنها ويشدد النكير فيها جدا فصلى المغرب ثم جلس وأطال الصمت لا يتكلم مع أحد وصرنا ننتظر ظهور ذلك واذا بالنور الكهربائى انقطع تياره ووقف سير العربات الكهربائية نحو نصف ساعة وهو فى كلها صامت لا يتكلم ونحن سكوت ثم التفت إلى وقال نمشى قلت عن اذنكم فقام وجاء التيار الكهربائى عند قيامه فركبنا ونزلنا مع أنى أقمت تسع سنين بالقاهرة ما رأيت التيار الكهربائى انقطع بها ولا دقيقة واحدة .

ومنها أنه كان يقول لبعض أصحابه يافلان اصبر فسيمر عليك أمر عظيم قال ذلك له مرارا وبعد وفاته بنحو العامين وقع له ما كان يخبره به ورأى من الشدائد والأهوال ماتشيب له الولدان وحضر فى حرب أسبانيا ثم فى أوائل حرب ألمانيا مع الحلفاء ولا يزال منفياً عن وطنه الى اليوم .

ومنها ما حدثنى به بعضهم قال ألقى القبض على بعض قرابتى فى مسألة ثورية سياسية فحكم عليه بالسجن لمدة ثلاثين سنة فذهبت إلى الشيخ مستشفعاً به وحصل لى تشويش عظيم فقال لى كل هذا لا أصل له واعتقد أن ابن عمك معنا الآن فى موضعنا هذا فلم يمر العام حتى اجتمعنا بذلك الموضع عنده ونسخ حكم الثلاثين سنة .

ومنها أن بعض أطباء الجبل شددت عليه الحكومة الاسبانية فى التداوى وأرادت منعه منه فجاء إلى الشيخ فقال له لا تخف فانهم سيأتون أنفسهم للتداوى عندك فكان ذلك بعد وفاة الشيخ رضى الله عنه بنحو العام لما وقع الحرب باسبانيا وكثر الجرحى المنكسر عظامهم فكانوا يرسلونهم للتداوى عنده .

ومنها أنه أرسل يوما لرجل خياط وأمره أن يخيط له جلابة ويحضرها في اليوم الثاني فاعتذر بأنه لا يخيط بالليل لضرر يعتريه عند الخياطة بالليل وإنما يخيط بالنهار منذ زمان طويل لأجل الداء المذكور فلما رجع اليه الرسول بذلك أعطاه شمعة وقال قل له يوقدها ويخيط على ضوئها ولا يخاف من شيء ففعل فأذهب الله عنه ذلك الداء ورجع الى حالته الأولى ولا يزال كذلك الى اليوم .

ومنها ما حدثني به بعض العلماء الأشراف قال قصدت الشيخ للزيارة وأخذت أخا صغيراً لم يخرج من بلده قط فلما سافرنا وكان فصل الشتاء أصابنا شدائد ومتاعب من أجل الرياح والامطار والبرد والثلج الذي أخرنا بالطريق ثمانية أيام فقال أخي في ضجر ليتنا لم نخرج من محلنا فقلت له هذا دليل قبول زيارتنا إذ قابلتنا هذه المشاق التي يكون عظم الأجر على قدر عظمها فقال في حالة غضب أنا ما خرجت للزيارة إنما خرجت للفسحة ورؤية مدينة طنجة فلما قدمنا على الشيخ وكان ذلك قبل عيد الأضحى جلسنا في ضيافته أياما فلما قرب العيد قال لي يوما يا فلان أما أنت وفلان لأخ ءاخر كان معنا فسافرا للبلد لتحضرا العيد مع الأهل واما فلان الاخ الصغير فاتركاه معنا حتى نفسحه في طنجة قال فتذكرت مقالته التي قالها بالطريق وعرفت أن الشيخ يشير اليها ولكن أردت أن أتحقق فقلت له يا سيدي هو ما جاء إلا بقصد زيارتكم فقال لا هو جاء للفسحة فاعدتها عليه مرة أخرى للتثبت وقلت ياسيدي ما جاء إلا للزيارة فأعاد قوله أيضاً وقال بل ما جاء إلا للفسحة ثم اعدت مقالتي ثالث مرة فقال حسن وإذا كان الأمر كما تقول فليجمع بين الفسحة والزيارة .

ومنها ان بعض الصادقين حدث انه لما كان وقت الجهاد بالقبيلة الانجرية وكانت وقعة صدينة وكنت حاضرا بها رأيت الشيخ وقت المعمعة في جهة فقصدته للسلام عليه فلم أر له أثرا وكان وقته بطنجة لم يخرج منها .

ومنها ما حدث به بعض الأشراف الصالحين من أهل فاس قال جاءله الشيخ من طريق الطى ومكث فى ضيافتى ثلاثة أيام ما خرج من الدار ولا رآه أحد عندى وهو مقيم بطنجة لم يخرج منها .

ومنها ما حدثنى به بعض الفقراء بالقبيلة الانجرية قال لما كان الشيخ عندنا راجعا من غمارة وكانت أيام فتنة الريسونى دخلت عليه متخوفا من وإذاية الريسونى فقال لى من هنا إلى شهر انا ضامن ان لايقع لكم شىء وبعد رجوعنا الى طنجة لابد ان نجتمع ونذكر الله جميعا بها قال ثم توجه الشيخ إلى طنجة وفى اليوم الحادى والثلاثين من مقالته احرق اصحاب الريسونى دارى وسلم الله عمرى منهم فتعجبت من تحقيقه لمدة الضمان وكونه لم يزد على ذلك يوما واحدا ومن سلامة نفسى منهم حتى اجتمعنا به وذكرنا الله معه بطنجة كما قال .

ومنها ماحدثنى بعض الأشراف قال مرض والدى مرضاً طويلا حتى سئم أهله وكلوا من مقابلته فلما اشتد بنا الحال ذهبت إلى الشيخ وذكرت له ذلك فقال لى يوم الأربعاء ينتهى الأمر إن شاء الله تعالى قال فخرجت جازما بما قال وذهبت فى الحال وأحضرت الكفن وما يلزم للجنازة وفى يوم الأربعاء توفى والدى قال وكنت أتيته قبل ذلك للزيارة فخرج إلى ولم يدخلنى فسلمت عليه وانصرفت فلما وليت نادانى فقال أخبرونى انك أنت المباشر لوالدك والقائم بشئونه فقلت نعم قال اذهب فسيعطيك الله الدنيا والآخرة قال وكنت وقتئذ لا أملك الامائة وأربعين ريالا فلم تمض على مقالته أربعة أعوام حتى فتح الله فتحا عظيما لم يخطر لى بالبال وامتلكت دورا ومزارع ولا زلت أرى فضل الله تعالى على فى الزيادة .

ومنها ما حدث به بعض أفاضل أهل فاس قال : قدمت لطنجة لصنع بعض الشبابيك بدار السلطان عبد الحفيظ ، وفى يوم الجمعة ذهبت إلى الزاوية

لحضور العمارة مع الشيخ وسماع مذاكرته فلما دخلت وجدته يتكلم على رسائل مولاى العربى بكلام بسيط فقلت فى نفسى ماهكذا بلغنا عن الشيخ ولا عن معارفه وعلومه قال فبمجرد ما وقع هذا فى نفسى رفع رأسه و نظر الى وشرع يتكلم بكلام عجيب ويخوض فى معارف واذواق فدهشت حتى صرت لا أفهم ما يقول وخجلت منـــه غاية الخجل وصار العرق ينحدر منى حياء مما خطر ببـالى .

ومنها ما حدثنى به بعض الأشراف الصالحين قال كنت أنا وأخى نمشى بأطراف البلد فتذاكرنا أمر الجدول والتصرف به فعزمنا على الذهاب الى الشيخ وطلب الاذن منه فى التصرف به فلما دخلنا عليه فاتحنا ابتداء من غير سؤال بذكر الـكلام على علم الجدول واسرار الحرف وانه صعب المنال خطر غير محمود العاقبة وصار يذكر لنا شروطه وأحكامه وما يلزم للتصرف به مما هو فى غاية البعد عن طاقتنا فعلمنا بكشفه الصريح واجابنا عما جئنا له من غير سؤال

ومنها ان امراة كان ياتيها كل ليلة عند ارادة النوم جنى فى صورة كلب فاتى والدها الى الشيخ وذكر له ذلك فقال له مرها ان تقول له انا اشكيك الى صاحب اللحية الحمراء يعنى نفسه لأنه كان يخضب بالحناء ففعلت فلم يرجع اليها بعد ذلك .

ومنها ما ذكره فى نبذة التحقيق قال ذهبت لزيارته يوما فوجدت عنده جماعة من الناس فأخذنى وادخلنى الى محل آخر وقال لى هؤلاء القوم بقاليون جاءوا يشتـكون اذاية الريسونى ونفيه عنهم النسب بسبب ما ألقاه اليــه بعض فقهاء الوقت ويطلبون الـكتابة فى إثبات نسبهم فدهشت بذلك كأنه عمل بيد لأنى ما قصدت زيارته الا لأخبره بما حصلت عليه من نسخة من شجرة البقاليين ثم ذكر القصة وان الشيخ امره بالتأليف فى ذلك .

قال ومثل هذا اتفق لى معه كثيرا كنت اعقد النية واذهب اليه بقصد الـكلام معه فى مسألة علمية تشكل على أو غرض دنيوى فيكون غالباً هو

لمفاتح لى بما جئت له ومن ذلك مسألة كون الحرام لا يتعلق بذمتين فانى كنت بتطوان وجرت بها مذاكرة فى المسألة مع الفقيه اللواجرى وظهر منه تشديد فيها ولم يحضرنى وقته من النصوص ما يكفى فلما رجعت عزمت على الذهاب الى الشيخ للاستفادة منه فى المسألة فقبل أن أذهب اليه بعث إلى مع بعض أصحابه شرح ابن رجب على الأربعين النواوية وقال اشترهذا الكتاب فانه ينفعك فنظرت فيه وقلبت أوراقه وإذا فى موضع منه علامة من عند الشيخ فنظرت فى الورقة المعلم عليها فوقع بصرى على المسألة نفسها فى شرح الحديث السادس فسلمت الثمن للرسول وأخذت الكتاب فوجدت فيه ما نفعنى كما قال الشيخ .

قال ومثل هذا جوابه لى يوما عن سؤال عزمت على الذهاب اليه ليبسط لى المقال فيه فبينما أنا كذلك إذ به يوجه الى لطائف المنن الكبرى للعارف الشعرانى معلما فيه أيضاً على موضع الكلام فى المسألة عينها وهى كون أهل المراتب يتسلط عليهم من يؤذيهم فى بدايتهم خصوصاً الفقراء المنتسبين .

قال وبالجملة فالذى وقع لى مع هذا السيد الجليل من هذا القبيل كثير جداً بل إنى تعودت منه ذلك حتى صار عندى من قبيل الضروريات ثم أطال فى ذلك بما ينظر فيه .

ومنها ما ذكره صاحب النسمات قال كنت معه بفاس سنة سبع وعشرين وكنا بمنزل بعض الاخوان فجاء الفقير المتجرد الذاكر السيد العباس براده فلما دخل قال له الشيخ رضى الله عنه لم ابطأت يافلان قال كنت اطوف فى فاس بالذكر لأن مولانا ادريس رضى الله عنه قال لى حصن لى بلدتى بذكر الله جهراً حتى لا يدخلها الفرنسيس فتبسم الشيخ وقال له ما فى يدك تحقيق ولا يحصل لك شىء من هذا والفرنسيس لا بد داخل فكانه استنكر ذلك واستعظمه فقال انا ما قلت الا ما قال لى فقال له الشيخ ارجع اليه واسأله عن هذا الأمر فانه رجع عما وعدك به فسكت ولم يرد جواباً فكان الأمر

كما قال فانه بعد سنتين نفذ حكم الله وقضاؤه المبرم ودخل الفرنسيس سنة تسع وعشرين .

ومنها ما حدثني به بعض الصالحين من أصحابه قال ذهبت إلى الشيخ يوما وأذن لى بالدخول فلما أقبلت على المحل الذى هو به رأيت ذاته عظيمة جدا قد حازت ركنا كبيراً من الغرفة فدهشت لذلك فلما وقع بصره على تبسم وقال مرحبا فزال عنى ماأصابنى من الدهش ثم رجع جسمه إلى حالته الاعتيادية .

وحدثنى بمثل هذا أيضاً غيره من الفقراء الصادقين

ومنها ما حدثنى به فقيه من بنى سعيد وهو رجل صالح مشهور ببلده قال ذهبت الى تجكان لحضور الموسم فرأيت الشيخ قرب ضريح جده فذهبت أسعى للسلام عليه فلم أجد له أثراً فرجعت وسألت بعض الأشراف من أهلها وقلت أين نزل الشيخ هنا فصار يضحك وقال الشيخ بطنجة لم يقدم إلى هذه البلدة .

ومنها ما حدثنى به بعض أهل العلم قال كنت أواخر أيام الشيخ رضى الله عنه أكثر التردد لزيارته فكان يقول لى كثيراً هل سمعت شيئاً عن حرب أسبانيا فأتعجب لذلك من جهة انه لم يكن بها حرب ومن جهة أنى لست من أهل السياسة وقراءة الجرائد إلى أن فاجأتنا حرب أسبانيا بعد وفاة الشيخ رضى الله عنه بنحو سبعة أشهر .

ومنها ما حدثنى به بعض الخطباء من الفقراء الصالحين قال رأيت ذات ليلة كانى ذاهب إلى الحج فلما استيقظت قصدت الشيخ للزيارة ولاقص عليه الرؤيا لعلى أسمع منه بشارة ووعداً بذلك فلماجاست معه عدلت عن ذكرها واشتغل خاطرى بامر آخر فقال لى يا فلان ستكون سفرة جمالية إن شاء الله تعالى .

وكراماته رضى الله عنه كثيرة جداً وقد ذكرت فى الأصل أضعاف هذا مع كونه لا نسبة بينه وبين الواقع والحمد لله رب العالمين .

الباب الثامن

فى ترجمة شيخه فى الطريق وهو الشيخ الامام العالم العلامة الهمام العارف الكبير المحقق الفرد الشهير بقية السلف وحجة الله على الخلف سيدى محمد بن المفضل بن ابراهيم وبهذا عرفت عائلته أولاد ابن ابراهيم ولذلك يكتب بالالف ولد رضى الله عنه بفاس وحفظ القرآن العظيم على كبر لأنه لم يتوجه لحفظه إلا بعد البلوغ ثم شرع فى طلب العلم واعتنى بحفظ المتون فحفظ مختصر خليل وتحفة ابن عاصم والفية ابن مالك والأجرومية وأخذ العلم عن جماعة علماء فاس فى وقته ثم بعد الانتهاء من الطلب اشتغل بالتدريس فى جامع القرويين نحو أربعة أعوام ثم انتسب ودخل فى طريق أهل الله فسلكها على قدم التجريد والمجاهدة التى انقطع نظيرها منذ قرون وكان السبب فى أخذه الطريق رفيقه فى الطلب الفقيه الامام العلامة الشريف أبو العباس سيدى احمد ابن الخياط فانه أخذ عن الشيخ العارف بالله سيدى عبد الواحد بنانى ثم دعاه إلى الأخذ عنه ففعل وتلقى منه ورد الطريقة الشاذلية الدرقاوية فطلب منهما الشيخ الحضور مع الفقراء فجعلا يترددان اليه وعليهما حلة العلماء المعروفة بفاس والمغرب فصار الشيخ يجردهما من ذلك بالتدريج الى أن خرجا عن جميع العوائد والمالوفات ثم لبسا الخشن من الثياب بل لبسا الخيش وشدا فى وسطهما الحبل وانقطعا للمجاهدة وخرق العوائد والذكر جهرا بشوارع فاس التى كانا يمران فيها بهيأة العلماء مع ارتكاب كل ما يشق على النفس وترك الشهوات وتعمير الوقت بأنواع الطاعات ومكثا على هذا الحال ست سنين مات فى انتهائها شيخهما سيدى عبد الواحد بنانى رضى الله عنه فجددا الأخذ عن أخيه فى الشيخ سيدى الحاج أحمد ربيع بوصاية من شيخهما واستمرا معه على حالهما الى أن دخلا معه السجن فى جماعة من الفقراء على يد قاضى فاس عمر الرنده وذلك بوشاية الفقيه الجامد محمد بن المدنى كنون فانه هو الذى طلب من القاضى

ان يأمرهما بالرجوع الى التدريس والاشتغال بالعلم وترك ما هم فيه من التجريد والمجاهدة للنفس وكان الباعث له على ذلك حقده على أبي العباس ابن الخياط اذ كان من أنجب تلامذته وألزمهم لدروسه وخدمته فلما دخل في الطريق انقطع عن درسه فعاتبه يوما وقال له كنت أظن أنك لا تقدم على شيء كيفما كان الا بعد مشورتي فاذا بك قدمت على هذا الأمر بغير علمي فلما لم ينجح فيه عقابه وشى به الى القاضي فأمرهما بترك ذلك والرجوع إلى تدريس العلم فامتنعا فأدخلهما وشيخهما وجماعته الى السجن فمكثوا فيه ثلاثة أشهر هدى الله فيها على يدهم من كان بالسجن من العصاة وتاركي الصلاة وحصل لهم خير جسيم ولما مرت المدة المذكورة أخرجهم القاضي وألزم المذكورين بالرجوع الى التدريس أيضا فاما ابن الخياط فرجع اليه بأمر شيخه وأما المترجم فاستمر على تجريده وعبادته وانقطاعه فذهب الى بيت كان له بالمدرسة البوعنانية وأقبل على العبادة وتفرغ لها فكان ورده عشرة أحزاب من القرآن العظيم خصه بها شيخه مع ورد الطريقة ومكث خمس سنين صائما يفطر على تمرة واحدة ويتسحر بزبيبة واحدة وكان الباعث له على ذلك انه كان ينسخ شرح الشمائل فمر به حديث كل عمل ابن آدم له الا الصيام فهو لي وأنا أجزي به يترك طعامه وشرابه من أجلي فقال كيف يقول الحق هذا وأنا أفطر فشرع في الصيام على الصفة المذكورة وكان مع ذلك يذهب كل ليلة الى مراحيض المساجد والمدارس فيغسلها وينظفها خدمة للمسلمين وهضما لنفسه فأثر ذلك في جسده فمرض مدة طويلة ذهبت فيها احدى عينيه وكان جنى ضربه فيها أيام غسله لتلك المراحيض فلما شفاه الله تعالى باع ذلك البيت وجميع ما فيه من الكتب وغيرها وقد وهب ثمن ذلك لشيخه ثم لزم باب الزاوية فكان ينام خارج الباب مدة طويلة الى أن اذنت له زوجة الشيخ سيدي محمد ايوب صاحب الزاوية المدفون بها وهو شيخ شيخه فدخلها وعمرها بذكر الله تعالى وتربية الفقراء والمريدين الى ان مات بها .

ولما مات شيخه الثانى سيدى أحمد ربيع شرع الناس فى الآخذ عنه والانتساب إليه فاشتهر أمره بفاس وأقبل الناس عليه بالأخذ والتلقى مع المحبة والتعظيم والاعتقاد والاحترام وامتلأت عليه الزاوية بالفقراء المتجردين من أهل فاس والغرباء فكان يربيهم على طريقته فى الجدوالاجتهاد والصيام والقيام ومحاربة الهوى ومخالفة النفس فى جميع ما تهوى حتى كان لايتركهم يتناولون الطعام إلا بعد تغير طعمه وذهاب لذته بان يتركه نحو اليومين والثلاثة وربما خلط لونين مختلفى الطعم والمذاق فى ءانية واحدة وأحيانا يغمر الطعام بالماء حتى لا تبقى فيه لذة يتمتع بها وتدعو الى الاكثار منه وملء البطن الذى ما ملأ ابن ءادم وعاء شراً منه وغضب مرة من فقير له أتاه بطعام جيد فرده عليه وانتهره وقال له نحن عندكم بمنزلة المرحاض كل من عنده فضلة يصبها فيه .

وكانت كتبه التى يقرأها مع الفقراء كتاب تاج العروس والتنوير فى إسقاط التدبير للتاج ابن عطاء الله رضى الله عنه وكذلك حكمه بشرح ابن عجيبة وكان يقرأ لخاصته تفسير الجلالين كلما ختمه افتتحه مرة أخرى بقراءة تلميذه الشريف نور الدين .

وكان له اعتناء عظيم بذكر اسمه تعالى اللطيف مع الفقراء بالزاوية مساء بين العشاءين وبضريح مولانا إدريس رضى الله عنه صباحا وكان يقصد بذلك حصول اللطف بالأمة لما كان يتوقع من نزول البلاء وحلول النقم باحتلال الكفار الذى هو أعظم نقمة وشر بلية ورزية فكان ذلك حاصلا مدة حياته ولم يقع الاحتلال إلا بعد وفاته .

وكان يلبس ثلاثة أثواب لا يزيد عليها صيفا وشتاء وهى قميص وقشابة صوف ومرقعة كان لبسها باذن شيخه وأخبره شيخه أنه أمر بها باذن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت لباسه الى أن لزم الفراش وانتقل بعده الى جوار ربه .

وكان فى بداية مشيخته يلف على يده اليمنى خرقة من الخيش لئلايصيب يده شفتا من يقبلها من المردان .

وكان فى ءاخر أيامه لا يتناول من الطعام الا شربة لبن فى الصباح وأخرى فى المساء وكان لا ينام الليل أصلا بل يستغرقه بالصلاة وذكر اسم الله اللطيف ولم يتزوج قط ولا مالت نفسه اليه ولا إلى غيره من الشهوات وقد عرض عليه مرة بعض الوجهاء والأعيان أن يزوجه أو يشترى له جاريتين ويسكنه داراً وينفق عليه الى أن يموت فامتنع وقال انى بعت نفسى لله تعالى فلم يبق لى فيها رجوع .

وكان عظيم الهيبة شديد الشكيمة لا يستطيع أحد مواجهته بخلاف ماهو فيه من الجد والاجتهاد والاقبال على الله تعالى والاعراض عن الدنيا وما يؤول اليها حتى إن من عرض عليه مسألة الزواج وهو من أكابر العلماء الأشراف أعيان أهل المغرب لم يستطع مواجهته بذلك وانما راسله به مع تلميذه الشريف نور الدين وكان يخدمه ويدخل عليه ويذكر عنده بأمره ويقرأ عليه الكتب التى يريد سماعها .

وقد حدثنى أنه خدمه ثمان سنين فما رآه ضحك فيها وانبسط إلا مرتين إحداهما أنه كان ببيت بعض الاخوان فسأله هل عندك كتاب قال نعم عندى المستطرف فأتاه به فدفعه إلى مولانا الشيخ الوالد وقال افتحه فما وقع بصرك عليه فاقرأه ففعل فوافق الكتابة فى الفالوذج فصار يقرأ وهو يضحك وحصل له سرور وانبساط وقال ما نحن إلا بشر ومرة أخرى فى بيت بعض الفقراء أيضاً قال وما عداهما لم أره ضاحكا قط فى خلال هذه المدة .

وكان يحب الخمول والتواضع والسكون تحت مجارى الأقدار فلايتظاهر بكرامة ولا يفوه بدعوى إلا إذا غلبه الحال وغاب عن حسه وأظهر الله على يديه مالا اختيار له فيه كما حدثنى الشريف المذكور وغيره قالوا كان الشيخ

أواخر عمره فى غرفته بالزاوية وحده فنادى بأعلى صوته يا نور الدين فلما دخل عليه وجده فى حال عظيمة فقال له اقاب الاعلى أسفل والأسفل أعلى ولم يزد على ذلك ثم رجع إلى حسه وبعد هذه الواقعة صار يظهر انعكاس الأحوال فى الدنيا وانقلبت وتبدلت إلى أن صار الأعلى أسفل والأسفل أعلى ووصل إلى ما هو عليه الآن نسأل الله اللطف والعافية بمنه وفضله وجوده ورحمته الواسعة وشفاعة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان فى ءاخر عمره أقعد فكان إذا اضطجع لا يستطيع الجلوس بنفسه بل يجلسه بعض الفقراء الملازمين لخدمته ولا يجلسه إلا بتعب لانه كان بادنا عظيم الجثة ومع ذلك فكان اذا أخذه الحال يجلس وحده ويأخذ مخدة عظيمة لا يستطيع حملها إلا الصحيح القوى فيصير يشير بها بيديه مرارا كأنه يريد أن يضرب بها ثم يردها اليه مراراً وأخيراً يرمى بها أمامه الى آخر الغرفة ثم يزحف اليها ويرجع إلى محله يفعل كذلك مراراً الى أن يذهب عنه الحال أو يدخل عليه الخادم فيصحو ويرجع إلى حاله وفى يوم دخل عليه بعض الفقراء وهو كذلك فقال له مالك يا سيدى فقال لاشىء غير أنى كنت مع ابن الصديق بطنجة نقضى بعض المئارب .

وكان معتقداً محبوباً من الخاصة والعامة يبالغ الكل فى تعظيمه والثناء عليه قد اجتمعت الالسن على ذلك من غير منازع مع نفوره من الناس واعراضه عنهم وفراره من مخالطتهم وكان الكبراء من أهل فاس أعيانها وعلمائها وشيوخها يقصدونه للزيارة والتبرك فكان يقابلهم تارة ويردهم أخرى فيجلسون بالزاوية أمام غرفته وهم يسمعون كلامه فلا يجترىء أحدمنهم على الدخول عليه ثم لا يحصل لهم تأثر ولا نفور من ذلك بل يقابلونه بالرضى والتسليم ويعودون لزيارته وقد يتردد الواحد منهم مرارا متكررة فلا يقابله فى شىء منها وهو يعيد الكرة الى أن يسعفه بمرغوبه وكثيراً ما كان يفعل هذا مع أهل الظهور والجاه من العلماء والأعيان

يريد ان يصرفهم بذلك عنه فلا ينصرفون .

وابتلى ءاخر عمره بالمرض المزمن فأقعد وأضر وذهبت عينه الاخرى واستمر ملقى على قفاه مدة طويلة حتى سكنت الفيران تحت فراشه وهو في كل ذلك صابر محتسب راض بحكم مولاه بل غائب عن حسه بحلاوة مشاهدته إلى أن انتقل الى جواره ومحل رضوانه يوم الخميس فاتح رجب سنة ست وعشرين وثلاثمائة وألف ودفن بالزاوية المذكورة رحمه الله تعالى ورضى عنه وعنا به ونفعنا بمحبته وبركاته آمين .

فصـــــل

أما الشيخان اللذان أخذ عنهما فالأول هو الشيخ العارف المحقق المرشد أبو محمد سيدى عبد الواحد بن بدوى بنانى ولد بفاس وكان فى بدايته مشتغلا بالتجارة فحفته العناية الالهية وجذبته إلى طريق أهل الله فدخل فيها على يد شيخه العارف سيدى محمد بن الغالى أيوب ووافقه فى ذلك شقيقه فحصل لهما بعد الأخذ نفور شديد من الدنيا وإقبال عظيم على الله تعالى وفنيا فى محبة شيخهما وخطر ببالهما ذات ليلة أن يخرجا له عن جميع ما بيدهما من الدنيا ثم عزما عليه وخافا من تغيير ذلك الوارد فأسرعا بالليل إلى شيخهما وخرجا له عما يمتلكان فنالا مرادهما من الله تعالى وحصل للمترجم الفتح الالهى والفناء فى الذات العلية وصار من جلة أصحاب شيخه بل كان هو الوارث لمقامه وحاله فلما توفى شيخه ظهر هو بمظهره وانتصب فى محله واجتمع عليه الفقراء فصار يذكرهم ويذاكرهم .

وكان له دكان بسوق العطارين يبيع فيه الجوهر والمرجان والطيب ونحوه فى حال مشيخته وتربيته للمريدين قياما بالشريعة وستراً للحال وتعففا عن الخلق فكان بعض الجهلة يطعن فى مشيخته من أجل ذلك حسداً وجهلا كما هى سنة الله تعالى فى خلقه ولا سيما مع أوليائه وأصفيائه .

وحدث تلميذه المترجم قبله سيدى محمد بن ابراهيم رضى الله عنه قال سمعته يقول رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال لى من رآك فقد رآنى ومن قبل يدك فقد قبل يدى وكان تلامذته والعارفون به يثنون عليه كثيراً ويصفونه بعلو المقام فى المعرفة ورسوخ القدم فى الولاية ويدل لذلك قصيدته التائية التى أنشأها وهو أمى لم يحضر مجلساً من العلم وفيها يصف نفسه بالمعرفة ويذكر ما حصل له من الفناء وهى قوله :

ولما فنى عنى فنائى فلم ازل ... أشاهد معنى الحق فى كل وجهة
وزال وجودى عن وجودى وهل لمن ... فنى عن فنا أهل الفنا من بقية
ومذ نظرت عينى الوجود توهما ... شهدت بعين الفكر سر حقيقتى
وكنت رهينا فى سجون عوالمى ... فصرت خبيرا بالعلوم الغريبة
وأخبرنى عنى غرامى بأننى ... غريق بحار الوصل فى عين وحدتى
وسرى روى عنى وكنت حديثه ... وبالحق حققت معالم جملتى
وأنشق من روحى نسيم حقائقى ... ومتعت طرفى فى محاسن بهجتى
وخمرى بدا منى وكنت ختامه ... وأرشف من ثغر الكؤوس مدامتى
وعربدت من سكرى هياما لأننى ... شهدت بهائى فى صفاء أنيتى
وخمرنى خمرى وراح براحتى ... وصرفى ومزجى مع تهتك نشوتى
وسكرى وصحوى والفناء مع البقا ... وشربى وريى واحتفالى برؤيتى
ومنها بدا كلى وبعضى وجملتى ... وحسى ومعنائى وجمعى وفرقتى
وراحى وريحانى وروحى وراحتى ... ونفسى وأنفاسى ولبى ومهجتى
شربت صفاها من أهيل مودتى ... قديما فصار الشرب دينى وملتى
وغيبنى عنى شهودى لحسنها ... وشدة أفراحى بوصل الأحبة
ولاح لسرى من معانى جمالها ... فعاينتها عينى وبعضى وجملتى
وهام لها قلبى وسرى بها اهتدى ... اليها وقرت بالمحاسن مقلتى
وصرت محل السر منها بسرها ... وصرت بها سرا بغير أنية

وبحري در ليس يدرك وصفه … وبرى زهر نشره طيب نفحتى
وخيمت فى برى وطاب لى المنا … وخاضت بحار العشق منى مطيتى
وفرقت جمعى واستبانت معالمى … وحددت طرفى لم أجد غير وحدتى
فها أنا ما بين البحور وديمة … أو فى حقوقا حقها بالسوية
ولى فى الهوى علم تضوع نشره … وراق شرابى من كؤوس الأحبة
أبيح لى التعبير فى مذهب الهوى … ومن ذا من العشاق يبلغ رتبتى
فلا وصل الا من تعطف وصلها … ولاقرب الا إن حبتك بنظرة
وان قصدت جادت ببعض جمالها … وان أظهرت بعداً لفقد الأذلة
فان شئت أن تحظى بطلعة حسنها … فخيم ولاتسأم بباب الأحبة
وكن ذليلا واصبر على ألم الهوى … وواصل شراب الحب فى كل لحظة
وجرد سيوف العزم فى طلب اللقا … ومزق ثياب الوهم عنك بسرعة
وحى حمى الخمار وانزل بحيه … وعفر خدودا فى ثراه بذلة
ولاحظ رضاه فى المهمات كلها … وكن كئيبا ترجو الشفاء لعلة
لكى تسقى من خمر الوصال صفاءه … وتجنى ثمار القرب من كل ذرة
وتفنى فناء فى فناء عن الفنا … وتبقى بها معنى بغير هوية
وتحيى حياة لا ترى الموت بعدها … منعم فكر فى سرور ورفعة
هنيئا لمن أضحى يراها بطرفها … وهام بها فيها بغير معية
وعاينها عينا وغيراً ولا سوى … ولاثم غير فى ظهور الحقيقة
وصار بها يدعو العباد لربهم … ويسقى مدام الحب من غير راحة
مدام تسلى الهم وهى بدنها … وتشفى سقيم القلب من كل علة
مدام لها معنى لطيف لمن درى … قديم به قامت عوالم حكمة
مدام بها هام الوجود بأسره … وهامت بها الأرواح لما تجلت
مدام لها نور بهى لدى الورى … يلوح سناها للقلوب السليمة
تنوعت الأشياء منها فما أرى … سوى نورها الوضاح فى كل وجهة

تشعشع منها الكل وهى حياته ومن حسنها كل البدور استمدت
فريدة حسن لاح نور جمالها فخرت لها الاشياء حين تبدت
وغنت وقالت فى لذيذ خطابها أنا الحسن والاحسان وصفى وشيمتى
تبدى جمالى فى المظاهر كلها وأبدعت كل الكائنات بقدرتى
وصنت جمالى بالجلال وإنما جلالى جمالى والتستر حكمتى
وأظهرت حتى لا يرى ظاهر معى وأبطنت حقا فى سرادق عزتى

توفى رضى الله عنه سنة خمس وثمانين ومائتين وألف .

وأما الثانى فهو الشيخ العارف القدوة المسلك المربى سيدى أحمد بن محمد ربيع الفاسى من عائلة معروفة بفاس أخذ عن العارف سيدى محمد بن الغالى أيوب ثم بعده أتم على أخيه فى الشيخ سيدى عبد الواحد بنانى ثم بعد وفاته ورث حاله وقام فى التربية والتسليك مقامه وكان ذلك باشارة من شيخه فاجتمع عليه الفقراء من أصحاب شيخه وغيرهم وانتفعوا به النفع العظيم وتخرجوا على يديه فى طريق الجد والاجتهاد والاقبال على الله تعالى وكان مقلا من الدنيا زاهداً فيها راغباً فيما عند الله يحترف حرفة اللجم فيصنعها ويبيعها ويأكل من كديده وكان مع فقره وقلة ذات يده كثير البر والصدقة والاكرام للفقراء يطعمهم وينفق عليهم ولا يأخذ من أحد منهم وكان ذا تواضع وسمت وأخلاق حسنة وهدى جميل وأوصاف حميدة محباً للعلماء وآل البيت شديد التعظيم لهم والادب معهم له يد فى التصوف ولسان فى المذاكرة كثير الذكر لا يكاد يفتر لسانه عنه حتى عند النزع وخروج الروح يميل إلى الخمول ولا يظهر مظهر الفخر والدعوى وربما حدث بعض الخواص ببعض ما كوشف به كما أخبر تلميذه أبا العباس سيدى أحمد ابن الخياط أنه أتاه من الغيب اربعة رجال على شكل واحد وصورة واحدة لهم أنوار خارقة فملأوا بيته نوراً وقالوا جئنا إليك لنزورك ونطلب منك صالح الدعاء وكان اسم أحدهم الطيب ابن الطيب

وأخبر مرة شيخنا الامام أبا عبد الله سيدى محمد بن جعفر الكتانى انه خرج مرة لجنازة بعض الفقراء فلما سووا عليه التراب كشف لى عنه فصرت أراه فجعلت أغمض عينى كى يحتجب عنى فلم يحتجب ترجمه شيخنا المذكور فى سلوة الانفاس وذكر أنه كان يعوده أيام مرض موته فيجده فى غاية الثبات واليقين وأنفاسه متصاعدة بالذكر قال ودخلت عليه مرة بعد ما سقط لسانه فصار يشير بسبابته كانه يقول لا إله إلا الله قال وتوفى صبيحة يوم الاحد تاسع محرم سنة ثلاث وثلاثمائة وألف .

الباب التاسع

فى سلسلة طريقه وبعض الابحاث المتعلقة بها وقد كتب هو رضى الله عنه اجازة لبعضهم ذكر فيها ساساته فقال .

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على سيدنا محمد مهبط الوحى ومنبع الرحمات وعلى آله وأصحابه الائمة الهداة أما بعد فلا يخفى على ذوى البصائر والعقول ان الفنون كلها لا بد فيها من واسطة ومن لا واسطة له فى فنه لا بركة له فيه ولو حصل فيه على الغاية القصوى فبركة الفن وسره وروحه وجود الواسطة فيه فمن رزقها رزق الفن وبركته ومن حرمها حرم الفن وبركته وهو أمر لا يحتاج الى برهان إذ ليس الخبر كالعيان .

ولما كان التصوف أولاها بذلك وأحقها بما هنالك وكان من لا شيخ له فيه لا يعبأ به ولا يلتفت اليه بل هو عندهم لقيط لا أب له وسقيط لا طعم فيه بل حتى لو فرض ان شيئا من المعارف والاذواق حصل لأحد على سبيل خرق العادة بلا واسطة فالمتعين عليه أن يستند الى الواسطة ادبا مع الشريعة المطهرة إذ جاءت باعتبارها وامرت بشكرها وايضا فان الاستناد اليها فيه كمال ورفعة قدر وجلال لأن فيه خروجا من رعونات النفس والأنانية إلى رفعة التواضع والعبودية وناهيك بها عزا وشرفا ورفعة وفخراً إذ هى سبب للحرية بل هى فى الحقيقة عينها ولو صح لأحد شىء بلا واسطة لما كان لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل واسطة مع أنه عليه الصلاة والسلام أجل منه وأفضل وأعلى وأعز وأكمل ففى تقديم المفضول على الفاضل رفعة

لمقام الفاضل وتنويه بعبودية الكامل فافهم وانظر الى أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم مع أنهم لا يعصون الله ما أمرهم تنفتح لك الباب وتفهم سر الخطاب فما عظمت الحرية فى أحد إلا كانت العبودية فيه أعظم اذ ما تشرف من تشرف الا بها وما طرد من طرد الا بالدعوى والركون الى الحرية والأنانية وما أفلح من أفلح الا بصحبة من فلح .

وقد قال الجنيد رضى الله عنه سبق فى علم الله القديم ألا يدخل أحد حضرته الا على يد عبد من عباده .

وقال القطب المرسى رضى الله عنه ما صارت الابدال ابدالا الا بمجالسة امثالنا لذلك وجب علينا أن نذكر سندنا ونبين نسبتنا فى هذه الطريقة الدرقاوية التى هى لب الطرق الاتصالية الجامعة بين الجيلانية والشاذلية المؤسسة على الكتاب والسنة والمخصوصة بالنفحات الربانيـة إذ فى اتصال سندنا بسببهم ونسبتنا بنسبتهم استمطار للرحمات الالهية واستنزال للنفحات القدسية وتحريك للسلسلة النبوية مع أن الاسناد من الدين فى كل وقت وحين طال الزمان أو قصر وقل عدد الوسائط أو كثر فنقول .

أخذنا هذه الطريقة النبوية عن شيخنا وقدوتنا نور الملة والدين ورحمة الله للقاصدين الواقف بباب الله الذى لم يمل فى وقت من الأوقات لسواه سلطان العارفين وقطب الواصلين سيدى ومولاى محمد ابن ابراهيم الفاسى أطال الله بقاءه وبلغه فى الدارين مقصوده ومطالبه وهـذا الشيخ شأنه عند الله عظيم وأمره جسيم ما رأينا ولا سمعنا فى وقتنا هـذا مثله وشرح حاله يستدعى مجلدات ولسنا بصدد ذلك الآن وهو أخـذها عن شيخه العـارف الربانى سيدى عبد الواحـد بنانى الفاسى وهو عن شيخه الهـائم فى الله العـارف المحبوب سـيدى محمد أيوب دفين زاويته نفاس وهو أخذها عن جدنا الشريف أعجوبة الزمان العـالم بالعلمين الظاهر والباطن القطب الجامع السالم مدده الجارى

سيدى الحاج أحمد بن عبد المؤمن الغمارى وهو عن إمام الأولياء
وبمد الاقطاب والاصفياء بحر المعارف الالهية ومعدن الاسرار الربانية برزخ
البحرين وشيخ الثقلين الذى كان لغير الله لا يأوى سيدنا ومولانا العربى
الدرقاوى وهو عن بحر البحور ومنبع الخمور أبى الحسن سيدى على الجمل
دفين زاويته بفاس وهو عن القطب سيدى العربى بن عبد الله عن شيخه
ووالده قطب الزمان سيدى احمد بن عبد الله وهو عن القطب سيدى احمد
اليمنى والقطب سيدى قاسم الخصاصى ، أخذ عن الاول الجيلانية وعن الثانى
الشاذلية وهو عمدته وسيدى قاسم أخذ عن سيدى مبارك عبابو وعن
القطب أبى عبد الله سيدى محمد بن عبد الله معن وهو عمد ، وعنه ورث
القطبية بقى فى صحبته عشر سنين وهو عن العارف أبى زيد سيدى
عبد الرحمن الفاسى محشى تفسير الجلالين والسنوسية وهو عن أخيه القطب
أبى المحاسن سيدى يوسف الفاسى وهو عن القطب سيدى عبد الرحمن
المجذوب عن أبى الحسن سيدى على الشهير بالدوار عن أبى اسحق سيدى
ابراهيم أفحام الزرهونى عن القطب الجامع سيدى احمد زروق عن
القطب احمد بن عقبة الحضرمى عن أبى زكريا يحيى القادرى عن القطب سيدى
على وفا عن والده سيدى محمد بحر الصفا عن القطب داود الباخلى عن تاج الدين
ابن عطاء الله صاحب الحكم عن القطب أبى العباس المرسى عن قطب الاقطاب
سيدى أبى الحسن الشاذلى الغمارى عن القطب مولانا عبد السلام بن مشيش عن القطب
سيدى عبد الرحمن المدنى الشهير بالزيات عن القطب تقى الدين الفقير بالتصغير
فيهما عن القطب فخر الدين عن القطب نور الدين عن القطب تاج الدين
عن القطب شمس الدين بأرض الترك عن القطب زين الدين القزوينى عن
القطب أبى إسحاق البصرى عن القطب أبى القاسم أحمد المروانى عن القطب
أبى محمد سعيد عن القطب سعد عن القطب أبى محمد فتح السعود عن القطب
سعيد الغزوانى عن القطب أبى محمد جابر عن أول الأقطاب وأجل الأصحاب

سيدنا الحسن ابن مولاتنا فاطمه الزهراء وعلى بن أبى طالب عن والده باب مدينة العلم عن سيد المرسلين وحبيب رب العالمين هذه سلسلتنا الروحانية ونسبتنا النورانية وقد قال القطب أبو العباس المرسى رضى الله عنه طريقتنا هذه متصلة بالاقطاب الى قطب الرحمن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام قلت وليكف الانسان شرفا وفخراً وعزاً ورفعة أن يعرف رجال هذه السلسلة النورانية المحمدية فانها سلسلة الذهب الابريز التى من تمسك بمحبة رجالها نال رضى الملك العزيز وأما من دخل فيها وكان حلقة من خلاصتها فلا يصف الواصف فضله ولا يلحق أحد شأنه وقدره .

فقد قال القطب الشعرانى رضى الله عنه من فوائد النسبة العامة أن المنتسب يكون كالحلقة فى السلسلة لا يتحرك فى أمر إلا تحركت السلسلة كلها معه إلى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخلاف غير المنتسب فانه يتحرك وحده ويسكن وحده الى آخر الاجازة المذكورة فى الأصل .

فصل

وهنا مباحث تتعلق بهذه السلسلة .

المبحث الاول

فى أول من ذكر هذا السند من القطب ابن مشيش الى النبى صلى الله عليه وسلم وهو تقى الدين أبو عبد الله محمد الاسكندرى سبط الشيخ أبى الحسن الشاذلى فى كتابه النبذة المفيدة وهو ممن أدرك أصحاب أبى العباس المرسى وتبرك بهم كما ذكره فى كتابه المذكور فقال بعد ذكر قول أبى العباس المرسى رضى الله عنه فى هذه الطريق أنها متصلة بأخذ واحد عن واحد إلى الحسن ابن على عليهما السلام مانصه فلما اطلعت على هذا الكلام أمعنت الفحص عن معرفة بقية هذا الطريق فلم أجد سوى أن الشيخ أبا محمد عبد الرحمن المدنى أخذ

عن عارف وقته الشيخ القطب تقى الدين الفقير فذكره ثم قال واعلم انى ظفرت بهذه السلسلة واتصالها بعد الفحص الكبير وجدتها منقولة عن الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله صاحب الشيخ ابى العباس المرسى ومطابقة لقول المرسى أن طريقة المدنى متصلة بالأقطاب ففى هذا اشعار بصحة هذه الطريق واتصال سلسلتها وإن كنت لم أجزم فيها إلا بالشيخ الشاذلى وشيخه ابن مشيش وشيخه المدنى ثم بالحسن بن على بن أبى طالب فمجموعها على قسمين منها ماهو قطعى ومنها ما هو ظنى وأما قولهم فلان الدين ولم نذكر له شهرة فحيث وجدت ذلك هنا فاعلم أنى نقلته كذلك فحكيته على ما وجدته

وكذلك ذكره أيضاً فى كتابه شفاء الغليل ودواء العليل ثم تبعه كل من جاء بعده ممن ألف فى الطرق وأسانيد الطرق .

قال أبو عيسى الفاسى فى تحفة أهل الصديقية ولعل هؤلاء الرجال المنقولين عن ابن عطاء الله رضى الله عنه من كشفه أو من كشف شيخه أبى العباس المرسى رضى الله عنه القائل والله الذى لا إله إلا هو ما من ولى لله كان أوهو كائن إلا وقد اطلعنى الله عليه وعلى اسمه ونسبه وكم حظه من الله تعالى قال وإذا كان كذلك فلا يذكر لكل واحد إلا الذى ولده فى سماء الروحانية ومن هو منبع مدده وأصل حقيقته الذى بشهافيه ولقنه إياها عن مخالطة أو دونها لا الذى رباه بعد ذلك أو أفاده أمراً والله أعلم اهـ .

المبحث الثانى

ما ذكره الشيخ رضى الله عنه من كونها تنتهى إلى على عليه السلام هو ما ذكره كثير ممن أورد هذه السلسلة كالشيخ زروق وابن حجر الهيتمى فى فهرسته وابن عطية فى سلسلة الأنوار والشيخ عبد السلام الأسمر فى نصيحة المريدين وأبى الاقبال ابن وفا فى شجرة الارشاد وأبى العباس أحمد

ابن يوسف الفاسى فى المنح الصافية وابن عجيبة فى فهرسته وشرحه للحكم وآخرين .

واقتصر جماعة يطول عدهم على رفعها إلى الحسن بن على عن النبي صلى الله عليه وسلم دون واسطة أبيه على عليه السلام .

وصرح بعضهم بأنها تروى من الطريقين فيكون الحسن رضى الله عنه لبس واستقى من جده صلى الله عليه وسلم وصحب واقتدى بوالده عليه السلام .

وذكر بعضهم أن الحسن ورث القطبية من والدته سيدة نساء أهل الجنة صلى الله عليها وسلم وأنها هى أول الأقطاب على الاطلاق وكل هذا صحيح لا شك فيه فانهم أهل بيت النبوة ومهبط الوحى وبحر المعارف ومنبع الأسرار والكساء شمل جميعهم فحازوا به من الله الخير العميم والفضل الجسيم والشرف الرفيع والولاية الكبرى إذ السر فى الكساء عند المحققين من أهل الله هو إمداد أهله بالمدد الربانى الفائض فى الذات الشريفة النبوية السارى بواسطة الكساء إلى تلك البضعة الطاهرة الهاشمية ولولاه لما كان لذلك التجليل مع الدعاء معنى كما أوضحته فى الأصل وفى البرهان الواضح الجلى فى تحقيق انتساب الصوفية الى على .

المبحث الثالث

ما تقدم من كون الراوى عن الحسن هو أبو محمد جابر غير منسوب ولا مذكور والده هو كذلك عند الأكثرين وذكر أبوعلى بن رحال فى الروض اليانع الفائح أنه جابر بن زيد وهو بعيد لأنى لم أر من ذكر روايته عن الحسن عليه السلام فضلا عن أخذ هذا السر العظيم عنه لا سيما وهو بصرى ومذهب أهل البصرة معلوم بل ناصبى إباضى وان نقل عنه التبرى من ذلك .

وذكر التادلى فى المعزى أنه جابر بن عبد الله الأنصارى وهذا ممكن بل هو الواقع إن شاء الله كما بينته فى البرهان الواضح .

المبـــــحث الرابع

قد تقدم أن هؤلاء الرجال مذكورون من طريق الكشف فلا يمكن أن يعرفهم الا أهل الكشف وقد حلاهم العارف محمد بن مسعود الفاسى فى الفتوحات الربانية بما يصح أن يحلى به كل عارف فلا يحصل به تعريف تام ولعله فعل ذلك من طريق الكشف أيضا فقد قال فى كلامه على الديوان وقد أعطانا الكشف والعلم الالهى ان أولياء الأمم الماضية كانت ولايتهم تنقطع بموتهم وموت أنبيائهم وأما أولياء هذه الأمة المحمدية فلا تنقطع ولايتهم الى يوم القيامة لوجود بقاء شريعتهم فكما انه لا انقطاع لشريعتهم كذلك لا انقطاع لولايتهم اه فلا يبعد أن يكون حلاهم بذلك عن كشف وعيان .

المبـــحث الخامس

ما تقدم من أخذ أبى العباس احمد بن عقبة الحضرمى عن أبى زكريا القادرى عن سيدى على وفا هو ما ذكره الأكثرون وذكر بعضهم ان ابن عقبة أخذ عن سيدى على وفا بلا واسطة وهو باطل فان سيدى على مات سنة سبع وثمانمائة وكانت ولادة احمد بن عقبة سنة اربع وعشرين فلابد من واسطة أبى زكريا المذكور ومع ذلك ففيه اشكال من وجوه .

منها ان بعضهم روى عن ابن عقبة عنه عن والده ابى مسعود احمد عن والده أبى صالح نصر عن والده أبى محمد عبدالرزاق عن والده القطب الكبير مولانا عبدالقادر الجيلانى رضى الله عنه وهذا غلط بين لأن أبا زكريا القادرى المذكور مات بمدينة حماه سنة أربع وثلاثين وسبعمائة وذلك قبل ولادة

الحضرمي بتسعين سنة لأنها كانت سنة اربع وعشرين وثمانمائة .

ومنها ان القادري هذا غير معروف وقد قال أبو عيسى الفاسي لا يبعد أن يكون المراد به أبا زكريا يحيى بن احمد الوفائي المعروف بأبي السيادات وتبعه على هذا جماعة جازمين به وفيه بعد لأن يحيى بن احمد الوفائي كنيته أبو السيادات لا أبو زكريا ولا تعرف نسبته بالقادري ولا سبب لها لأنه غير قادري لا نسبا ولا طريقة .

ومنها ان الشيخ ابا العباس احمد بن عقبة رحل من بلده إلى مكة سنة ست وأربعين وثمانمائة وأقام بها عشرين سنة فيكون انتقاله إلى القاهرة بعد سنة ست وستين وفي ذلك الوقت كان يحيى بن احمد الوفائي قد مضى لوفاته نحو تسع سنين لأنه مات سنة سبع وخمسين .

ومنها ان أبا السيادات يحيى بن احمد الوفائي لم يصحب عمه ولا تأدب به لأن عمه مات وهو ابن تسع سنين لم يبلغ سن الصحبة والاقتداء فقد ولد سنة ثمان وتسعين وسبعمائة ومات عمه سنة سبع وثمانمائة ثم ان الطريقة الوفائية تروى من طريق يحيى بن احمد الوفائي هذا عن والده احمد عن أبيه محمد لا عن عمه على فالحق انه شيخ قادري النسب شاذلي الطريقة من أصحاب سيدي على وفا أخذ عنه أبو العباس الحضرمي وكان خاملا لايعرف فلم يترجم له أحد .

المبحث السادس

ان سيدي محمدا وفا لما مات كان لولده سيدي على ست سنين على الراجح لكنه أوصى بمنطقته أن تخلع على ولده عند كبره فلما خلعت وقع له الفتح فلذلك نسب إلى والده وهذا قد وقع لكثير من الأولياء كما بينته في البرهان الواضح وفي مناهج التحقيق فلا يظن من وقف على تاريخهما ان بالسند انقطاعا في هذا الموضع .

وهنا مباحث أخرى ذكرتها فى الـكتابين المذكورين .

فصـــــل

وأما رجال السلسلة من مولانا الشيخ الوالد قدس سره إلى القطب ابن مشيش فقـد استوفيت ترجمتهم فى مناهج التحقيق فى الـكلام على سلسلة الطريق وغالبهم أفرد بالتأليف كالشاذلى والمرسى و بنى وفا والحضرمى وزروق وأبى المحاسن الفاسى وسيدى احمد بن عبدالله وسيدى قاسم الخصاصى ومولاى العربى الدرقاوى وجدنا سـيدى الحاج احمد بن عبد المؤمن فانى أفردته بتأليف سميته المؤذن بأخبار سيدى احمد بن عبد المؤمن .

الباب العاشر

فى ذكر وفاة الشيخ وبعض ما قيل فى رثائه كان الشيخ رضى الله عنه مريضا بضعف القلب والخفقان مصحوبا معه من مدة طويلة إلا أنه لم يكن ظاهرا فيه الا فى بعض الأحيان ثم فى أواخر شهر رمضان قوى فيه الا انه لم يلزمه الفراش فكان يخرج لمحل مقابلة الزوار والضيوف ولما كان يوم عيد شوال قابل كثيرا من الناس على عادته وصرح لبعضهم بأن هذا آخر اجتماع بيننا ثم فى ذلك اليوم وما بعده اشتد به الحال فجمع أهله ومن كان حاضراً من اولاده واوصاهم فحثهم على التقوى والتمسك بالدين والعمل بالسنة واجتناب البدعة وملازمة ذكر الله تعالى وذاكريه ومحبة الأولياء والصالحين واهل النسبة من الفقراء الذاكرين واكرام الضيوف وخدمتهم بالنفس والمال ومواساة الضعفاء واعانتهم ورحمة الصغير وتوقير الكبير وصلة الرحم والتخلق بالحياء والمحبة والألفة والعمل بالعلم واحياء السنة ونشرها وكف الأذى وتحمله مع الصبر والاحتمال ومعرفة الوقت واهله ونحو هذا مما كان يحث عليه دائما وقال لبعض اولاده كنا نرجو من الله تعالى الفسحة فى الأجل حتى ينصر بنا هذا الدين الشريف ونعلمكم العلم ونحج بكم ولكن راينا الأيام المقبلة ايام شرور وفتن ومصائب ومحن واشتداد ضعف فى الدين ووهن فسألت الله تعالى ان يقبضنى اليه كما فى الحديث الشريف وإذا اردت بعبادك فتنة فاقبضنى اليك غير مفتون فاستجاب الله دعائى وصدق رضى الله عنه فقد اشتد الخطب وعظمت الرزية وظهر الانقلاب العظيم بسرعة وهو فى الزيادة نسأل الله مغفرته ومعافاته ولما كان يوم الأربعاء سادس شوال اشتد به الحال وظهرت عليه علامة الانتقال وارسل إلى بعض الفقراء فحضروا اليه فامرهم بذكر الله جهرا فلما وصل وقت العصر قدم احدهم فصلى به وبهم وصلى هو جالسا بالتيمم ثم امرهم بذكر الله ايضا إلى قرب الغروب فامر بخروجهم

فدخل عليه اهله وانجاله ولم تمض إلاهنيهة حتى فاضت روحه وانتقلت إلى الرفيق الأعلى وذلك سنة اربع وخمسين وثلاثمائة والف وكانت له جنازة لم تر طنجة مثلها منـذ خلقها الله تعالى وحضر الناس من سائر مدن المغرب كفاس والجـديدة والدار البيضاء وسلا وما بين ذلك والعرائش والقصر واصيلا وتطوان وغمارة ومابينها وذهب بجنازته الى الجامع الـكبير للصلاة عليه بها لـكثرة الناس وازدحام الخلق ورؤى اليهود يبكون فى بيوتهم من مهابة ذلك المحفل وما جعل الله فيـه من النور والبهاء وتبرك الناس بنعشه ووزعت سجادة كانت تحته خيوطا للتبرك ثم رد الى الزاوية ولم يدفن انتظارا لما يرد من عندنامن القاهرة وكنا سعينا فى الحضور بالطيارة فلم يتيسر لنا ذلك ثم أمرناهم بالدفن بتلغراف أرسلناه فوقع الدفن ليلة الجمعة وحضر جنازته الأديب السـيد محمد بن الطاهر الفاسى فرثاه بقصيدة نشرها فى جريدة السعادة فقال: بالأمس قدمنا لقراء جريدتنا السعادة ترجمة العلامة البدراوى؛ واليوم نقدم إليهم ترجمة علم من أعلام المغرب وكبير من كبرائه فقيد العلم والدين الشريف سيدى محمد بن الصديق الغمارى فنى ذلك اليوم نفسه سادس شوال بينما نحن نمتع الطرف فى مناظر طنجة الفيحاء حيث مالت الشمس الى الغروب اذ رأينا ذلك الشبح المخوف شبح الموت الذى لا يهاب عظيما ولا يخشى شريفاً ولا مشروفاً يمد يده بدون شفقة ولا حنان فيقضى قضاءه؛ المبرم على تلك الروح الطاهرة ويطفىء ذلك المصباح الوضاء الذى طالما اهتدينا بنوره فى تلك الظلمات القاتمة والليالى الحالـكة هناك كنت لاترى إلاعيونا باكية ووجوها متغيرة وزفرات تتردد فى الفضاء ونحيبا يرن فى الاجواء؛ وألسنة لاهجة بالمدح والثناء ثم ذكر ترجمة وجيزة ثم قال اما جنازته فكان لها مشهد عظيم حضرها كل أهالى طنجة من مختلف الطبقات ومن ذلك اليوم والوفود ترد من جل مدن الايالة. قال ولما بيننا وبين الفقيـد رحمه الله من العلائق الودية والرابطة العلمية رثيته بالقصيدة التالية التى ألقيتها بنفسى؛ على قبره يوم ثالث صباح القبر .

خبرونى هل غاب نجم السعود أم تسامى الى مقام الخلود

كان عهدى به يبذ الثريا كيف امسى رهين هذى اللحود

اندبوه وابكوه علّه يرثى لبكاكم فيرعوى عن صدود

ليت شعرى ايصبح الناس فوضى فى ظلام فى شقوة فى ركود

قد اخذنا بالأمس منه عهودا اتراه يفى بتلك العهود

سئم الناس بعدك العيش حتى شغلوا بالبكا ولطم الخدود

كنت فينا تبيد كل ظلام وضلال وبدعة وجمود

كنت فينا تدعو بكل صلاح باذلا فى الصلاح كل الجهود

لم تكن تبتغى سوى نصرة الدين جهارا وملة التوحيد

فى سبيل الاله ما قد نلاقى من شقاء ومحنة وهجود

ان فى القلب لوعة واحتراقا ومعانى الأسى والحزن الشديد

لا تقولوا قد مات انى أراه يمتع الطرف فى جنان الخلود

لا تقولوا قد غاب ان سناه فى ازدياد ونوره فى صعود

ان يغب فى بنيه خير عزاء سيما احمد كريم الجدود

ولنقتصر على هذه القصيدة اختصاراً ، والحمد لله وكفى وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً والحمد لله رب العالمين .

تم بحمد الله تعالى وعونه

فهرس الكتاب

صفحة

تم الفهرس

تصويب

(ص ٤٨ س ١٦ — إلا الرجوع — ص ١٠٢ س ١٠ — وما أنا)
وربما بقيت أغلاط ضئيلة نبا عنها البصر لا تخفى على فطنة القراء

صحح وفهرس بمعرفتى
الشيخ عبد الله بن محمد بن الصديق
احد علماء الأزهر الشريف

اعلان هام

شرعنا بعونه تعالى فى طبع كتاب

« تشنيف الآذان »

بأدلة استحباب السيادة عند ذكر اسمه صلى الله عليه وسلم فى الصلاة والاقامة والاذان ، وهو كتاب فريد فى بابه يشتمل على أربعين دليلا من الكتاب والسنة وصحيح النظر على استحباب السيادة فى الاحوال المذكورة وغيرها ورد على الوهابيين الجامدين والسبكيين المتنطعين وغيرهم من أعداء البيت النبوى الشريف .

فبادروا إلى اقتنائه فان النسخ محدودة .